مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

سَلا ورباط الفتح
أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء الرابع

(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

سَلا ورباط الفتح

أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء الرابع

(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

أكاديمية المملكة المغربية

أمين السرّ الدائم : عبد اللطيف بربيش

أمين السر المساعد : عبد اللطيف بنعبد الجليل

مدير الجلسات : إدريس العلوي العبدلاّوي

مدير الشؤون العلمية : أحمد رمزي

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : alacademia@iam.net.ma : **E-mail**

فاكس 75.51.01 (037)

الكتاب : «سلَا ورباط الفتح، أسطولُهما وقرصنتهما الجهادية»

تأليف : جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق : أحمد بن جعفر الناصري

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2006/1337

ردمك : 9981-46-042-7 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-046-X (الجزء الرابع)

الفصل الأول

عن اهتمام السلطان
سيدي محمد بن عبد الله
بفداء الأسرى وسياسته الخارجية الرامية
إلى ذلك وعن محاولاته
وضع حد للقرصنة المستفحلة
وعن السفارات الموجهة لهذا الغرض،
وعن عقد المواصلة والمؤازرة
مع الدولة العثمانية

المبحث الأول
اهتمام السلطان سيدي محمد بن عبد الله
بفداء الأسرى وما بذله
من الجهود في ذلك

بيّنا فيما سبق من الفصول، وما استعرضناه من الوثائق والأصول، وجلبناه من النصوص والنقول، أن القرصنة منذ نشأتها في العصور الأولى من الدهر، كانت آفة على الإنسانية، ومشكلة عويصة من المشاكل الدولية، التي يتعذر تلافيها، ويصعب الوصول إلى حلها، ودرء فسادها، إذ بينما يكون الإنسان حرًا في بلاده، سيّدا في قومه، أمينا في سربه، ممتّعا بشرفه وعزِّه، يصبح بين عشية أو ضحاها عبدا قنّاً، فاقدا حريته وعزه وشرفه، لا يملك من نفسه وأمره شيئا، مُعذبا مُهانا مُشردا خادما بعد أن كان مخدوما.

وعلمنا أيضا ما جاء به الإسلام، وقرره الشرع من السعي في فك الأسير ورد حريته إليه حتى جعله من فروض الكفاية الواجبة على كل مسلم، ولا تسقط عنه حتى يقوم بها من سخره الله لذلك.

وأن الملوك المتقدمين قاموا بهذا الفرض الواجب، وأعانهم المسلمون عليه بكل ما في وسعهم في كل زمان ومكان.

وقد كان موقف السلطان المقدّس، أبي النصر، المولى إسماعيل رحمه الله من هذه المسألة الدينية السياسية القومية الدولية، موقف الملك الموفق الحكيم. فلم يضِع للمغرب حق من حقوقه، إذ كان الفداء طوال عهد دولته رأساً برأس أو واحدا بعشرة مع التعويض المالي، وأنقذ الله بسببه وعلى يده من قدّر الله إنقاذه من المسلمين.

ولمّا آلت الدولة إلى حفيده السلطان أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله، وكان ذا عز وصولة، وجدد معالم الدولة، وأحيى المراسم، وردّ المظالم، ورفع سمك هيكل سياسته الداخلية على الإصلاح المنشود، والعدل الموزون بالقسطاس المستقيم المقصود، وشيّد أركان سياسته الخارجية على المساواة بين الدول واستجلابهم واستعمالهم في المصالح المغربية، والاستفادة من تقدمهم في الميادين الصناعية، وما كان يجلبه منهم من الآلات الحربية.

قال أبو عبد الله الضُعيّف في مجموعته التاريخية :[1] «سخّر الله لسيدي محمد بن عبد الله السفن في البحر، من أهل سلا ورباط الفتح، وسخّر له أجناس الروم، فما كان يامرهم بشيء إلاّ بادروا بامتثاله مسرعين، وقاموا بين يديه سامعين مطيعين.»

وقال أبو العباس أحمد بن المهدي الغزّال في مقدمة رحلته إلى اصبانيا، كما سياتي مفصلا :[2] «جدّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله في تهيء المراكب للجهاد، واجتهد، وشحنها بالعدد...

ثم قال : «وضيّقت عساكره بالعدو الكافر البر والبحر، حتى صاروا قذىً في عيون المشركين وشجىً لهم في النحر، وحصل منهم العدد الكثير في الأشراك، وغُنموا بعدما كاد يستوعبهم الهلاك، ولم يجدوا بُدّاً من طلب المهادنة عن خضوع وإذعان، ومذلة وصغار وهوان، وجعل العدو يتردد في المسالمة، ويلحُّ في الطلب والمسألة، فلم ينصت لذلك ولم يبال بما هنالك...

ثم قال : فلم يسعه بعد أن تأمل وتدبّر، إلاّ الإجابة للمهادنة بما هو في أنفسهم أدهى وأمر، من تحملهم الشروط الشاذّة المثبتة للكافر مذلته وخزيه. ولاشك أنها تقوم فيهم مقام الجزية، وأذعنوا لما أُمروا به وتحمّلوه وقبلوه، وانعقدت المهادنة بينه وبين عدة من الأجناس، على أحكم قواعد وأوثق أساس، وبما يعود نفعه على الإسلام وينتج المصلحة التامة في العاجل والآجل والخاص والعام، وأعظمها فكاك الأسرى من المسلمين، وإنقاذهم من العذاب المهين وجلب ما يستعان به على الجهاد من بارود ومدافع وآلة السفن من بلادهم، ولا خفاء في ذلك قهرا لهم، وفيه مذلة، ودلالة على الغلبة وهو معنى ما أشار له في قصيدته الرائية التي مدحه بها لمّا فتح الجديدة قال :

1) ص 14 من ج، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

2) ص 2-1، طبع العرائش سنة 1941.

إمَــامٌ لَهُ في بَاذِخِ الْعِــزِّ رُتْبَــةٌ تَقاصَرَ عَنْها الْوَهْمُ والْوَصْفُ والْحَصْرُ
تَسامى على سامي السِّماك مَكانُها وَصــار إلى عَلْيـائِهـا يَخْـضَعُ الدَّهْرُ
قَــادَ لهــا شُمُّ الشَّــوامِخِ هَيْـبَـةً وأَمْـسـى يَراها فَـوْقَ هامَـتـه الْبَـدْرُ
تُذَلُّ لهــا الآســادُ في أَجَـمــاتِهــا وتَرْتَاعُ في أَعْمـالِهـا الْغُضُبُ الْبُتْـرُ
تَزَلْزَلَ أَهْلُ الشِّـرْكِ مِنْهـا وأَذْعَنُوا وَعَمَّ عَلَى آفــاقِ أَجْناسِــهِمْ قَــهْــرُ
وَصــاروا عَبِيداً مِنْ مَـهابَةِ بَأْسِـهـا وَلَمْ يُنْجِـهِمْ في الأَرْضِ بَحْــرٌ وَلاَ بَرُّ
يُؤَدُّونَ بالإِذْلالِ والْهُــونِ جِــزْيَةً يَقُـونَ بِهَـا الأَنْفَـاسَ فَـهْيَ لَهُمْ عُـمْـرُ
وَمَنْ لَمْ يَرُمْ إِعْطاءَهـا مُــتَكَبِّــراً يَحيقُ بِهِ في الْحِينِ مِنْ بَأْسِهِ مَكْرُ...»

... وجاء في «الاستقصا» أثناء الكلام على مآثر هذا السلطان وعظم دولته :[3] «وهابته ملوك الإفرنج وطواغيتهم، ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتُّحَف، يطلبون مسالمته في البحر، بلغ ذلك، رحمه الله، بسياسته، وعُلُوِّ همَّته، حتى عمّت مسالمته جميع أجناس النصارى كلهم إلاّ المُسكوب، فإنه لم يسالمه لمحاربته للسلطان العثماني. ولقد وجّه رسله وهديته إلى طنجة، فردّها رحمه الله وأبى مسالمته.

ووظف عليهم الوظائف فالتزموها، وكانوا يؤدّونها كل سنة، واستمر ذلك من بعده، إلى أن انقطع في هذه السنين المتأخرة.

وكانوا يستجلبون مرضاته بالهدايا والألطاف، وكل ما يقدرون عليه، ومهما كتب إلى طاغية في أمر، سارع إليه ولو كان محرما في دينه، ويحتال في قضاء الأغراض منهم بكل وجه أحبّوا أم كرهوا. وكان أعظم طواغيتهم الإنجليز وطاغية الفرنسيس، فكانوا يأنفون من أداء الضريبة علانية مثل غيرهم من الأجناس، فكان، رحمه الله، يستخرجها منهم وأكثر منها بوجه لطيف.»

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في «إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا»[4] :

وَقَــدْ أَقــامَ الرُّعْبَ في الأَفْــرَنْجِ لَمَّـــا انْتَــحَى أُسْطولَهُمْ بِالنَّهْجِ

3) ص 121 من ج 4، طبع القاهرة. وص 94-95 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.
4) ص 123، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

ثم قال :

فَـهَـالَهُمْ مِنْ أَمْـرِهِ مَـا عَـايَنُوا وَجَمٌّ مَـالِهِ وَصُلْحـاً أَعْلَنُوا
فَـوَفَـدُوا لِبَـابِهِ مُـسَـالِمِينْ وَلِرِضَـاهُ وَمُنَاهُ طَالِبِـينْ
وَأَبْصَـرُوا الأَمْـرَ يَؤُولُ لِلشَّطَطْ وَلِلنِّضَـالِ إِنْ تَجَـاوَزَ الْغَلَطْ
فَـعَـقَـدَ السِّلْمَ مَعَ الأَصْـبَـانِ وَبَعْـدَهُ الْفَـرَنْسُ بِالإِعْـلاَنِ
تَمَّتَ وَافَى غَـيْـرِهِمْ لِلْهُـدْنَةْ فَـعُـقِـدَتْ عَلَى شُـرُوطٍ عِـدَّةْ.»

وذكر الضُعيّف :[5] أنه في أوائل سنة أربع وسبعين ومائة (1760/1174) أتته الهدايا من ملوك النصارى، لأنه دوخهم في البحر وغنم منهم غنائم كثيرة، وأسر منهم ما لا يُحصى، وتكاثرت سفنه في البحر من أهل سلا ورباط الفتح، وأقبلت عليه الأيام، وساعده الحظ في البر والبحر.

وكان رؤساء البحر من أهل سلا والرباط يفدون عليه بمراكش بمن أسروه في كل سنة، مثل الرئيس عوّاد السلاوي والرئيس كوّار الرباطي، والرئيس قنديل السلاوي، والرئيس أحمد الواد، والرئيس صالح، وغيرهم، وكلهم كانت لهم سفن، وكانوا يغنمون سفن النصارى. وقد كان من نتائج هذه السياسة الموفقة أن فكَّ الله على يديه، وبواسطته الجم الغفير، والعدد الكثير، من أسرى المسلمين الذين كانوا مقرّنين في الأصفاد بأروبا، فاسترجعوا حريتهم، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم بما عقده من المعاهدات، ووجهه لأروبا من السفارات، وما أنفقه في ذلك من الأموال الطائلة.

قال في «الاستقصا»، أثناء الكلام على مناقبه وسجاياه التي لا تحصى:[6] «أما ما كان ينفقه في الجهاد على رؤساء البحر وطبجيته، وما يُصيِّره على المراكب الجهادية والآلات الحربية، التي ملأ بها بلاد المغرب فشيء لا يحصيه الحصر.

وأما ما كان ينفقه من الأموال في فكاك الأسرى المسلمين فأكثر من ذلك كله، حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير من المغرب ولا من المشرق، وقد بلغ عددهم سنة مئاتين وألف (1786/1200)، ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة...»

5) ص 21، من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

6) ص 121 من ج 4، طبع القاهرة. وص 93-94 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وهو ما ذكره أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في «إتحافه» : [7]

وَاسْتَخْلَصَ الأَسْرَى بِنَحْوِ الأَرْبَعِينْ   مِنَ الأُلُوفِ عَدَداً عَلَى الْيَقِينْ»

وقال الكاتب السفير أبو العباس الغزال في قصيدة مدحه بها :

«يُرَاعِي الْعَهْدَ يَحْفَظُهُ امْتِنَاناً   يَفُكُّ أَسِيرَ ظُلْمٍ مِنْ قُيُودِ.»

وقال السفير الوزير أبو عبد الله محمد بن عثمان في : «الإكسير في فكاك الأسير» :[8]

«كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله ممن اختصَّه الله تعالى بالشفقة على عباده، والصلاح والسعي في صلاح أرضه وبلاده، والبحث عن أسارى المسلمين الذين بِأَيْدي الكافرين.»

وكان الناس يبذلون كل نفيس وغال في فداء أسراهم، ويتبرَّعون بما ينعم عليهم السلطان من العطايا لِتُصْرَفَ في هذا السبيل.

ومن ذلك ما ذكره أبو عبد الله الضُعيّف في تاريخه :[9] قال :

«إن الشيخ أبا العباس أحمد الورزازي، وكان من العارفين، قَدِمَ على السلطان سيدي محمد بن عبد الله، سنة سبع وسبعين ومائة وألف (1764/1177)، فأعطاه خمسمائة دينار، فردَّها وأبى قَبولها، فقال له السلطان : إنها إرث حلال، فقال له الشيخ إن كان ولابد، فأرى أن تفدي بها أسارى المسلمين الذين ببلاد الروم.»

وقال ابن عثمان في «الإكسير» أيضاً :[10] كان عند النصارى الإصبنيول من أسارى المسلمين عدد كثير، وجمهور غفير، وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس، وتونس، والجزائر وعمالتها، فَسَرَّحَ الله تعالى جلَّهم على يد هذا السلطان الكريمة لكرامتها عند الله تعالى وجلالتها. وهو ما ذكره ولده المولى عبد السلام، كما في «درة السلوك».

والحاصل أن مسألة الأسرى كانت ثقيلة في ميزان المواصلة بين دول أوروبا والمغرب، منذ القرن السادس عشر إلى الثامن عشر. وكانوا قبل دولة المولى اسماعيل ملكا

---

7) ص 26، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

8) ص 5-6، طبع الرباط سنة 1965.

9) ص 25 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

10) ص 6، طبع الرباط عام 1965.

للأشخاص، ولا يمكن فَدَاؤهم إلا بالمخابرة مع مُلاّكهم. وكذلك كان الأمر في أروبا في أسرى المسلمين الذين كانوا بها، ثم ساروا منذ العهد الإسماعيلي ملكا للسلطان ولا تمكن المخابرة في فدائهم إلاّ معه.

وفي الغالب كانت المخابرة لا تسفر عن النتائج المطلوبة من الطرفين، حسب ما يُعْلَم من أخبار المعاهدات والسفارات المتبادلة بين المولى إسماعيل، ولويس الرابع عشر، وغيره من ملوك أروبا. وإنما أنقذ الله على يده من أنقذه لتمسكه بمطالبه المبنية على صيانة حقوق الدولة، لأن ملوك أوروبا في ذلك العصر كانوا لا ينظرون إلاّ مصلحتهم الخاصّة، ولا يعتبرون ما كان يعرضه عليهم، ويدعوهم إليه من الحق المشروع.

ولمّا جاء حفيده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، نظر إلى هذه المسألة بالعين المجرّدة عن المصلحة الخاصة، ولم يُرَاعِ فيها إلا مصلحة أولائك الأولوف المؤلفة من البشر الذين كتب الله عليهم الجلاء في الدنيا، وحلّ بهم الذل والهوان، من سائر الدول والأقاليم، فبذل جهوده كلها وكلمته المسموعة في إنقاذهم، والتخفيف عنهم بكل ما يمكنه من مال ونفوذ.

ودعا إلى عدم أسر الشيوخ والنساء والصبيان، وإلى إلغاء الأسر بالكلية في أحوال متعددة أثناء الحروب وتكدُّر الجو السياسي بين الدول. وفيه دليل قاطع على ما كان يعلقه من الأهمية الكبرى على هذه المسألة التي هي حق من حقوق الإنسان التي أجمع العالم المتمدن عليها في عصرنا هذا، والتي لا فائدة فيها للهيأة الاجتماعية في كل صقع وقطر من الأقطار.

وقد سبق رحمه الله، بهذه الفكرة الإنسانية، والنداء بالحق الإنساني من أصبح شعارا له من أهل القرن العشرين بنحو مائتي سنة.

وممّا يدلُّ على ما كان يبذله رحمه الله، من الجهود، ويعلنه لمن يأتي إليه من أوروبا من الوفود، أنه لمّا قابل القنصل الفرنسي شينيي (Chenier) بفاس، سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف (1189/1775)، قال له أثناء المذاكرة معه : «إنني متأسف جدّا، لأن ملكك لويز السادس عشر لم يقدم لنا هدية بعض الأسرى المسلمين، مع أن هذا عمل له قيمته في الدنيا والآخرة.» فأجابه القنصل أنه لم يبق بمعامل ملك فرنسا أسير من المغاربة، فردّ عليه السلطان قائلا : «كان يمكنه أن يشتريهم من دول أخرى ويقدمهم لنا هدية»، لأن ملك إصبانيا كان فعل ذلك معه[11].

11) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لكايي، ص 28

(Les Accords Internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdellah par Caillé)

المبحث الثاني

معاهدات سيدي محمد بن عبد الله وفداء الأسرى

من تتبع المعاهدات التي عقدها السلطان سيدي محمد بن عبد الله مع الدول المسيحية ودرسها، تبيّن له أن القصد منها كان إقامة صرح السلم عقب الحروب التي كانت تقع معها، كالحرب مع Nاصبانيا وفرنسا والبرتقال مثلا، وترويج التجارة بالمملكة المغربية للفائدة المرجوة منها، واستجلاب ما يحتاجه المغرب من المعدات الحربية، وأدوات السفن البحرية، والقضاء نهائيا على الأسر والقرصنة والاسترقاق والاستعباد ليأمن الناس على أنفسهم وأموالهم التي هي قوامهم وقوام دولهم، ومدّ حبل المواصلة الوُدِّية مع ملوكها ورؤسائها، ولكنهم كانوا لا يعتبرون ذلك الودّ اعتبارا حقيقيا، لاعتقادهم أن مودّة ملك مسلم مع ملوك ورؤساء مسيحيين إنما هي ظاهرة خيالية، لا ترتكز إلاّ على المصلحة الموقتة الذاتية، وإنّما كانوا يجارون الملك المسلم فيما يعقدونه معه من المعاهدات السلمية، جلباً لمصلحتهم التجارية، وامتيازاتهم الخاصّة التي كانوا يحرصون أشدّ الحرص عليها، ويتنافسون في الحصول عليها، اتّقاءً لهجمات أساطيله القُرصانية، واختطاف سُفُنهم في لُجج البحار، وأسر من فيها من الركّاب والبحّارة والرؤساء وغنيمة شحناتها على اخْتِلاَفِ أنواعها، في مقابلة أعمال قراصنتهم ومعاملتهم بالمثل، حتى ضاق الناس بها ذرعا.

وقد كان الأسرى من الطرفين يُعدُّون بالآلاف، ولا يخفى أن القرصنة السلاوية الرباطية، كانت أقلقت راحة أوروبا، وأدخلت الرعب والفزع على ملوكها، منذ حدود سنة ثلاثين وألف (1620/1030) إلى آخر دولة السلطان المذكور، أي ما يزيد على مائة وسبعين سنة تقريبا، وكان بعضهم كالسّويد والدانمارك يؤدي له إتاوة كل سنة ليأمنوا صولة قراصينه.

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ   يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَتَّقِي الشَّتْمَ يُشْتَمِ.

ومع ذلك فإن موقفه، رحمه الله، من القرصنة عموما، وما ينشأ عنها من الأسر خصوصا، المؤدي إلى التغريب والتعذيب والتشريد والفتنة في الدين معلوم بما بَذَلَهُ من

المجهود، وعقده من العهود، المتضمنة لتسهيل فداء الأسرى، ومعاملتهم بالحُسْنى والقضاء على الرقّ، واستعباد الأحرار، لأنهم ولدوا أحرارا، وينبغي لهم أن يعيشوا في هذا العالم أحراراً، رحمة وشفقة بالإنسان الذي يحيق به العذاب المهين، في كل وقت وحين.

كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله
إلى لويس السادس عشر يعرض فيه فداء الأسرى الدائم

وبمقتضى ذلك كتب كتابا لملك فرنسا لويس السادس عشر بتاريخ رابع شتنبر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (4 شتنبر 16/1777 جمادى الاخرة 1187)، يعرض عليه فداء الأسرى المستمر، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، بحيث إنه بمجرد ما تنزل مصيبة الأسر بشخص مسلم أو مسيحي إلاَّ ويُعتق حينا، سواء كان بفرنسا أو بغيرها من الدول الأوروبية، وعرض عليه أن الرجل البالغ من العمر سبعين سنة، فما فوقها، يعفى من الأسر في سائر الأحوال، والمرأة والصبي الصغير لا يقع أسرهما بالكلية.

وطلب منه أن يكون واسطة في تبليغ هذا المشروع الإنساني للدول الأوروبية ليصادقوا عليه، ويعملوا بمقتضاه، ويُطَبِّقُوا فصوله وأحكامه بكل رعاية وعناية.

ولكن حكومة لويس السادس عشر، لم تُعِرْ أذنا صاغية لهذه الصيحة الإنسانية المدوية من أرجاء المغرب الأقصى.(12)

عقد معاهدة بين المغرب والسويد وهولاندا

وفي عاشر شتنبر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (10 شتنبر 7/1777 شعبان 1191) عقد معاهدة مع السويد وهولاندا تشتمل على خمسة فصول، أربعة منها تتعلق بالأسرى، والخامس خاص بعدم التَّعَرُّضِ للسفن التي تكون حاملة للحبوب وأسرها.

ونصُّها بِمَعْنَاها دون لفظها، لأنَّنا لم نقف على النصِّ العربي، وإنَّما ترجمناها من النص الفرنسي.

12) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لكايّي، ص 36

(Les Accords Internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdellah par Caillé)

انظر ص 13 من هذا الكتاب : نص رسالة السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى ملك فرنسا.

رسالة من محمد الثالث إلى لويس السادس عشر

مأخودة من «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»

الجزء التاسع، عهد العلويين، تأليف عبد الهادي التازي

الحمد لله حق حمده

(الطابع السلطاني الشريف)

يعلم من هذا الصكّ أننا عقدنا مع دولة السويد (وهولاندا) معاهدة تشتمل على الفصول الآتية، راعينا فيها مصلحة السلم والعدل وحسن المعاملة بين الجانبين، وستكون دائمة خالدة.

الفصل الأول

إن فداء الأسرى يكون بالمبادلة رأسا برأس، يعني مسلم في مقابلة مسيحي، والعكس بالعكس، بدون زيادة أي تعويض من الطرفين.

الفصل الثاني

إنْ كان أحد الطرفين ليس عنده أسرى يفدي بهم أسراه، فليفد من يريد فداءه بتعويض مالي قدره مائة ريال لكل رأس من غير مراعاة لحالة الأسير المُفدى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية.

الفصل الثالث

يكون فداء الأسرى بين الطرفين أوَّل كل سنة، طبق الشروط المتقدِّمة أعلاه.

وعليه، فلا يمكن أن يبقى أسير في الأسر من الطرفين أكثر من سنة واحدة.

وإذا كان أحد الأسرى مملوكاً لشخص خاصّ من الأشخاص، من الطرفين، فإنه يلْزَمُ بقبول فدائه طبق الشروط المتقدمة.

الفصل الرابع

لا يطبق الأسر على الشيخ المتجاوز من العمر السبعين سنة، ولا على المرأة سواء كانت شابَّة أو عَجوزاً، وهم أحرار.

الفصل الخامس

كل سفينة تكون حاملة للأقوات من الحبوب، كالقمح والشعير والأرز، وغير ذلك، (ويستثنى الزبد والعسل واللحوم)، سواء كانت آتية من بلاد إسلامية أو مسيحية، لا يمكن لأي مسلم أو مسيحي أن يتعرض لها أو يأخذها، إذ يمكن أن هذه الأقوات تكون موجهة لبلاد مسَّتْها الحاجة، وأصيبت بالمجاعة، وربما يكون تأخير وصولها إليها سببا في هلاك الجمٍّ الغفير من أهلها.

نعم، إذا وُجد في سفينة حاملة لهذه الأقوات أشياء أخرى زائدة عليها كالأموال النقدية، والسلع المختلفة، فإنها تُحجز وتُوخذ غنيمة، ويُطلق سراح السفينة وما حوته من الأقوات، ومن فيها من الملاحين والنوتية.

وحرر بمكناس في سابع شعبان عام واحد وتسعين ومائة وألف (7 شعبان 10/1191 شتنبر 1777).(13)

وفي التاريخ نفسه عُرض مشروع هذا الصلح على ملوك أوروبا ليصادقوا عليه، فلم يحض لديْهم باعتبار.

وبعد نحو العام من عقد هذه المعاهدة جدِّد إعلانها في صورة كتاب منه لقناصل الدول بتاريخ سابع وعشري شتنبر سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (27 شتنبر 5/1178 رمضان 1192)، باللغة الفرنسية، وتضمن الفصول الخمسة المتقدمة، وزيد عليها أربعة فصول أخرى فيما يرجع لعلاقة المغرب مع الجزائر، ومدينة راكوز (Raguse) الحرة بصقيلية. ولكن هذا الكتاب لم يكن له تأثير عند الحكومات الخارجية الأوروبية التي وصل إليها، لأنّها لم تكن تعتبر إلاّ مصلحتها الخاصّة وحدها.

ولمَّا عقد معاهدة سنة خمس وستين سبعمائة وألف (1179-1178/1765) مع جمهورية دوج فينيسيا (Les Doges de Venise) الإيطالية، نص الفصل السابع منها على أن قراصنة سلا والرباط لا يكون لهم الحق في متابعة السفن الفينيسية، ولا يُسْتعملون في البلاد المعادية لها(14).

---

13) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لكايي، ص 220.
(Les Accords Internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdellah par Caillé)

14) نفس المصدر،، ص 75.

وتضمنت الفصول : 12-21-22 من المعاهدة المعقودة مع البرتقال بعد خروجهم من الجديدة بتاريخ ثاني عشر رمضان عام سبعة وثمانين ومائة وألف (12 رمضان 28/1187 نونبر 1773) :

أن كل برتقالي، بعد انبرام الصلح والمهادنة، لا يمكن أسره في المملكة الشريفة ما دام الصلح محكم، وبهذه الأحكام يعامل المغاربة بأرض البرتقال، ولا يُباعون ولا يُشْتَرون.

ومن كان مأسورا في مملكة غير مملكة سلطان المغرب، فلا يُبَاعُ ولا يُشْتَرى في مملكة المغرب.

وإذا نُقض هذا الصلح من قِبَل السلطان أو من قِبَل البرتقال، فالمسلمون الذين يكونون بأرض البرتقال لا تجري عليهم أحكام الأسر ولا يوصفون بهذا الإسم، ويُسرحون لحال سبيلهم. وكذلك البرتقاليون الذين يكونون بالمملكة الشريفة يُطبق عليهم هذا الشرط، ولا يُكلَّفون بعمل حتى يتوجهون لمأمنهم[15].

وبعد استرجاع الجديدة، منّ على ثلاثين أسيرا مالطيا بدون عِوَضٍ، وتفضّل بهم على دوق طوسكان (Le Duc de Toscane) الأكبر، لأنهم من رعيته.

وفي سادس عشر يبراير سنة ثمان وسبع وسبعمائة وألف (16 إبرير 18/1778 محرم 1192)، عقد معه معاهدة سلمية تضمّت فصولها : 2-3-12 إطلاق سراح الأسرى من الجانبين، واستثناء الشيوخ والنساء والبنات والصبيان من الأسر، وأن تكون المبادلة في ظرف سنة[16].

وفي شهر مايو سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (مايه 1778/ ربيع الثاني 1192)، قدّم الدوق الأكبر المذكور لجلالته اثنين وستين أسيرا مغربيا، كهدية وجّهها إليه صحبة مبعوثه إليه الذي كان عنده، القائد محمد بن عبد الملك ومعه هدايا أخرى نفيسة مهمة.

وفي سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وألف (1196/1782)، اشترى ،رحمه الله، عددا كثيرا من الأسرى المسلمين من جزيرة مالطة وإيطاليا، وجلُّهم ليسوا مغاربة. وبلغ ما دفع في ثمنهم مائتين وإحدى وسبعين ألفا وثلاثمائة وأربع وخمسين بياسطر (271.354).

ولمّا عقد معاهدة سنة ستين وسبعمائة وألف (1173/1760)، تضمن الفصل 24 منها تخصيص إنجلترا بمائتي ألف دورو (200.000) لفداء أسراها بالمغرب.[17]

---

15) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لكايي، ص 205-206
(Les Accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdellah par Caillé)

16) نفس المصدر ص 224-225.

17) نفس المصدر ص 166.

وفي سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181-1180/1767)، لمَّا عقد معاهدة سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181-1180/1767)، تمَّ الفداء بعوَض مالي في الأسرى الفرنسيين الذين كانوا بالمغرب وعددهم مائة وتسعون أسيرا[18].

وجاء في الفصل الثامن عشر من المعاهدة المبرمة مع الولايات المتحدة سنة ست وثمانين وسبعمائة وألف (1200/1786) أنه في حالة الحرب معها، تقع مبادلة الأسرى بين الطرفين على الصفة الآتية :

القبطان في مقابلة القبطان، والضابط في مقابلة الضابط، والنوتي في مقابلة النوتي، في ظرف سنة واحدة، بواسطة من يُعيّن لذلك من التُّجار، أو غيرهم ممن يقع عليه الاختيار. ومن بقي في الأسر فاضلا عن المبادلة من الجانبين، يُفدى بِعوَض مالي قدره مائة بياسطر لكل شخص[19].

وفي الخامس والعشرين من مارس سنة ست وثمانين وسبعمائة وألف (25 مارس 1786/ 5 جمادى الاخرة 1201)، أعلن لقناصل الدول الأوروبية أن كل نصراني اشترى أسيرا مسلما، وجاءه به، فإنه يجازيه عنه بأن يأذن له أن يصدر من مرسى الصويرة قدرا من القمح إلى الخارج بمائتي فانيكة للرجل وثلاثمائة للمرأة بدون أداء أي شيء عنه من الحقوق المخزنية[20].

وذكر أبو عبد الله الضُعيِّف في مجموعته التاريخية :[21] أنه في خامس عشر محرم عام واحد وثمانين ومائة وألف (15 محرم 13/1181 يونيو 1767)، أطلق، رحمه الله، سراح مائة وثمانين أسيرا (180) من أسرى النصارى، وقبض في فداء كل واحد منهم سبعمائة مثقال (700). وكان بعضهم أسر بالعرائش، وبعضهم أسرتهم السفن القرصانية في البحر.

وذكر أيضا [22] أنه في ثامن وعشري شوال عام ثلاثمائة وألف (28 شوال 22/1203 يونيو 1788)، وصل إلى رباط الفتح نحو ستمائة أسير (600)، فكَّ أسرهم السلطان سيدي

---

18) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لكايي، ص 27.

(Les Accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdellah par Caillé)

19) نفس المصدر ص 75.

20) نفس المصدر ص 28.

21) مخطوط الخزانة النصارية السلاوي، ص 29 من ج 2.

22) نفس المصدر والجزء، ص 97.

محمد بن عبد الله من جزيرة مالطة بأربعمائة مثقال لكل واحد منهم، ثم توجهوا اليه إلى مراكش فكساهم وأحسن إليهم، وكان بعضهم من الأتراك، فتفضَّل بهم على السلطان العثماني.

هذه بعض الجهود التي بذلها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، في سبيل فكاك الأسرى على طريق المخابرة والمواصلة والمبادلة والمعاهدات الرسمية الدولية. وسنرى ما حصل عليه من نتائج مرضية بواسطة سفراءه إلى الدول الأجنبية في الفصول الآتية.

المبحث الثالث

حالة الأسرى المسلمين بإصبانيا
وما نتج عنها من سفارة الغزّال[23].

كانت إصبانيا في عهد لسلطان سيدي محمد بن عبد الله مملوءة بالأسرى في محنة وشقاء، فوجهوا رسائل متعددة إليه يعلمونه فيها بما هم فيه من ضيق الأسر، وثقل الإصر، وما نالهم من الكفار، ويرجون منه نزع الأغلال التي في أعناقهم، وكان فيهم من ينتمي للعلم، ويقرأ القرآن، على أنه كان، رحمه الله، يتعهدهم بالصِّلات والصدقات من حين لآخر.

ولمَّا وصلت كتبهم إليه، وقُرئت عليه، تأثَّر منها غاية، ووقعت منه موقعا كبيرا، وأمر في الحين بالكتْب إلى ملك إصبانيا شارل الثالث (Carlos III) في شأنهم رسالة جاء فيها :

رسالة سيدي محمد بن عبد الله
إلى كارلوس الثالث ملك إصبانيا

إننا لا يسعنا في ديننا إهمال الأسرى، وإبقاؤهم في قيد الأسر، ولا حجة في التغافل عنهم لمن ولاّه الله التصرف والأمر، وفيما نظن أنه لا يسعكم ذلك في دينكم أيضا مع الإمكان والاستطاعة، ووجود ما يُفتدون به من أسارى المسلمين، واتِّساع البضاعة، فما للتغافل من الجهتين وجه يعتبر، ولا أمر ينتظر، والحرب سجال، في المبارزة والنزال.

---

23) المراجع : - «رحلة الغزّال»

- «الاستقصا»، ص 100 من ج 4، طبع القاهرة. وص 33-34 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.
- «تاريخ مكناس» لابن زيدان، ص 308 من ج 3.
- «التاريخ الصغير للمغرب» لكايي، ص 65 وما بعدها.

ثم قال : ومسألة أخرى أعظم من هذا كله، هي غفلتكم عن البحث في أسارى المسلمين، حتى يتبيَّن العالم بعلمه، والجاهل بجهله، ثم تجعلون لأهل العلم حرمة ومكانة، وعزّاً وصيانة، بحيث تجعلون لهم علامة يتميزون بها عن الغير، حتى لا يقع أحد فيهم بشتم، ولا تُهضم حرمة لمقامهم، ولا يمسُّهم ضيْر، مثل ما نفعله نحن بأساراكم من الفرايلية، إن قدّر الله بأسرهم، فإننا لا نُكَلِّفُهُمْ بخدمة، ولا تخفر لهم ذمة، فلماذا تحترمون الرؤساء من الأسارى، ولا تَعْبَؤُونَ بِحَمَلَة كتاب الله على أنهم أفضل منهم عند الله، ومطلق أسراكم لا نُحمِّلهم ما لا يطيقون، ولا نلزمهم ما لا عليه يقدرون، بل نترك مريضهم لمرضه، ونسمع ضراعتهم، ونُنْصِتُ لما يقولون، فتأمل ذلك في نفسك، وامُرْ به أبناء جنسك.

وقد تضمَّن هذا الكتاب المحمدي وصف معاملة الأسرى المسيحيين بالمغرب في عهده، رحمه الله، وهو خلاف ما نقرأه في كتب الأسرى والرهبان والمبشرين والمستعمرين من المبالغة وتشويه الحقيقة.

ولمَّا بلغ هذا الكتاب للملك الإصباني، سُرَّ به، وأمر في الحين بإطلاق الأسرى المسلمين الذين كانوا بحضرته، وبعث بهم إليه، ووعده بأن يُلْحِق بهم غيرهم من الذين بقوا بسائر إيالته، وأجاب بتلطُّف وتودُّد وتحبُّب راغبا في المهادنة كغيره من الدول الأخرى.

ولما بلغ جوابه للسلطان وقع منه موقعا عظيما، وكان كريم الطبع، يحب الفخر ويعنى به، فقابل الجميل بمثله، وأطلق سراح جميع الأسارى الإصبانيين الذين كانوا تحت يده، وعزَّزهم بأسرى غير جنسه، لتكون للملك الإصباني بذلك مزية على غيره من ملوك أجناس أخرى، وبعث معهم له بهدية فيها عدد من الأسود على يد قائد سبتة، زيادة في إظهار اعتباره، وفيه إشارة إلى عدم التفرقة بين أُسارى المغرب وغيره إذا كانوا مسلمين.

ولمَّا بلغ ذلك لشارل الثالث سُرَّ به سرورا عظيما، وهيَّأ هدية استوفى فيها غاية مقدوره، وبعثها مع رهيب كبير وبعض الضباط العسكريين، وأصحبهم كتابا أفصح فيه عمّا يُكنُّه من الوُدِّ والاعتراف بالفضل والمنَّة للسطان، وطلب منه مع ذلك أن يتفضل ببعث أحد أرباب دولته وكُبرائها إليه لتتشرف بلاده بمقدمه، وتشتهر هذه المواصلة والملاطفة بين الدولتين، فيعظم بذلك قدره، ويكمل فخره، فساعده السلطان، رحمه الله، على مطلبه وعيَّن سفارة الغزال إجابة لرغبته.

المبحث الرابع

سفارة أبي العباس الغزّال لإصبانيا وما كان من أمره[24]

التعريف بأحمد بن المهدي الغزّال ورحلته

الكاتب الشهير، السفير، أبو العباس أحمد بن المهدي الغزّال، الحِميري، الأندلسي، المالقي النِّجار، الفاسي الدار، نشأ وترعرع في أكناف الدولة الإسماعيلية. وكان والده أبو عيسى المهدي من جملة أعيان كتّابها. وأصله من حفدة مهاجرة الأندلس المالقيين.

وربما كان رجع إلى الأندلس، إمّا زائرا مطلعا، أو في مهمة مخزنية.

وقد عدّه أبو عبد الله محمد بن الطيب العلمي في «الأنيس المطرب» من جملة البدور الإثني عشر التي كانت لامعة في عصره، وأثبت له جملة من رقيق شعره، تُنبئ عن ملكته في التعبير، وقدرته على تنميق الطروس والتحبير.

وكان لولده أبي العباس هذا اتِّصال ومواصلة مع المؤرخ أبي القاسم الزياني، وكلاهما كان من الكُتّاب البارزين المبرّزين، والسفراء الممتازين في دولة السلطان أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله.

---

24) المراجع :
- «رحلة الغزال»
- «الاستقصا»، ص 108 من ج 4، طبع القاهرة. وص 54 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.
- «سلوة الأنفاس»، ص 381 من ج 3.
- «الأنيس المطرب» للعلمي، ص 155.
- «إتحاف أعلام الناس» لابن زيدان، ص 341 من ج 3.
- «الإعلام» لابن ابراهيم المراكشي، ص 197 من ج 2.
- «مؤرخو الشرفاء» لبروفانسال، ص 224 .(Les Historiens des Chorfas) par Provençal

وبهذه الصفة، قام بالسفارة لَدَى ملك اصبانيا شارل الثالث آخر سنة تسع وسبعين ومائة وألف (1766/1179)، للمفاوضة في مسائل الأسرى وفدائهم من الجانبين، وتقرير الصلح والمهادنة بين الدولتين، حسبما بسطه في رحلته المسماة : «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد»، المطبوعة بالعرائش سنة احدى وأربعين وتسعمائة وألف (1359/1941).

وضمَّنها وصف الحالة الاجتماعية، والنظام الداخلي للأسرة الإصبانية كما شاهده أثناء الضيافات والحفلات والمراقص التي كانت تُقام على شرفه في المدن والقرى التي اخترقها، ومرَّ عليها، أو أقام بها، ومقام الدولة الإصبانية في ميدان الحضارة بين الدول في القرن الثامن عشر.

وكان أثناء رحلته هذه يهتمُّ بالبحث عن الآثار الإسلامية، الخالدة الباقية، بالأصقاع الاندلسية في العواصم والمشاهد والمساجد التي حُوِّلت إلى كنائس ومعابد، ويستوعبها ويقيِّدها ويعتني بها، ويأخذه الخشوع والخُنوع، والحزن والأسف والأسى، ويدعو الله أن يعيد إليها كلمة الاسلام.

وفي مسجد قرطبة وجد لوحتين رخاميتين كبيرتين منقوش على كل واحدة منهما البسملة والصلاة على النبي ﷺ، وتاريخ بناء المسجد والزيادات التي أحدثت به، وأسماء الخلفاء الذين قاموا بها، منبوذتين على الأرض في بيوت سُكْنى بعض الرهبان، تدوسها الأقدام، فاضطرب لذلك، وأخذه الشهيق والبكاء، وألقى بنفسه عليهما يعفر وجهه وشيبته بترابهما، وأعلن أنه لا يُبارحهما حتى ترفعا من ذلك المحلِّ، ولم يبارحه حتى صدرت الأوامر برفعهما وتنظيفهما. ومن الغد رجع متفقدا لهما، فوجدهما رُفعتا وعُلِّقتا فوق حائط من حيطان المسجد، ولم تبقيا معرضتين للإهانة، فرحمه الله، وأجزل ثوابه.

وقد ذكرتني هذه القضية أنَّنا كُنا في إحدى سياحاتنا بفرنسا بمدينة إيڤيان (Evian)، ونزلنا بفندق من فنادقها الكبرى، فوجدنا بساحته زربية فارسية كُتب على أركانها الأربع ووسطها إسم الجلالة، وإسمِ النبي ﷺ، واسم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، تدوسها الأقدام، فتأثرنا لذلك غاية، ونبهنا عليه مدير الفندق، فاعتذر بجهل ما هو مكتوب عليها، وطلب المسامحة، وأمر في الحين برفعها وتعليقها على جدار واجهة السَّاحة المذكورة.

وبالجملة، فرحلة الغزَّال مفيدة، وتُعد وثيقة تاريخية معتمدة، وعبارتها سلسة عذبة، وإنْ كانت اشتملت على بعض الجمل والألفاظ العامية والأعجمية المحضة، وخصوصاً فيما يرجع للتعبير عن بعض الأحوال والمظاهر التي كانت غير مألوفة في مجتمعه، ولا معروفة عند قومه.

أمَّا ما يرجع لمهمة سفارته وما نتج عنها فهو ما سنراه في الفصول الآتية، حسبما ذكره وسطَّره في رحلته.

وبعد رجوعه من هذه السفارة، بنحو ثلاثة أعوام، وجّهه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في سفارة أخرى لمبادلة الأسرى، بالجزائر، وسياتي الكلام عليها في محلّه.

وهكذا كان الغزّال كاتبا ممتازا، وسفيرا مقدّما، وشخصا مرموقا بعين الاعتبار بين رجال دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى أن حدث ما نشأ عنه غَضُّ السلطان منه، وانصراف وجهه عنه، فخفت صوته، واختفى من بساط الملك شخصه، ولم يُسمع له بعد ذلك ذكر إلى أن لقي ربه.

وذلك أنه لما كانت سنة سبع وثمانين ومائة وألف (1774/1187)، حاصر السلطان مدينة مليلية، ونصب عليها المدافع والمهاريس، ورماها بالقنابل، واستمرّ ذلك أياما، وكتب إليه ملك إصبانيا يعاتبه على حصارها، ويذكّره المهادنة والصلح المنعقد بينهما ويقول له : هذا خط يد كاتبك وسفيرك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لازالت تحت يدي، فأجابه السلطان بأنه إنّما عقد الهدنة والصلح معه في البحر فقط، وأمّا المدن التي بإيالته فلا هدنة فيها، ولو كانت فيها هدنة، لكان الخروج والدخول منها وإليها مُباحاً فكيف ادِّعَاءُ المهادنة مع هذه المداهنة. فبعث إليه ملك اصبانيا بصك الصلح بعينه، وإذا هو عام في البحر والبر، فكفّ حينئذ عن حربها، وأفرج عنها، وترك هنالك جميع الآلات الحربية من مدافع ومهاريس وكراريص وبُنب وبارود، وشرط عليه حملها في البحر وردّها إلى الثغور التي جُلبت منها، لِمَا في جرِّها في البرّ من المشقّة على المسلمين، فبعث ملك إصبانيا مراكبه فحملت بعضها إلى تيطّاوين، وبعضها إلى الصويرة، وذلك محلها الذي سِيقَتْ منه.

وفي «دُرّة السلوك» للمولى عبد السلام بن سيدي محمد بن عبد الله، أن صاحب مليلية طلب تجديد المهادنة وبذل في ذلك مالاً جزيلاً، وعدداً من أُسارى المسلمين الذين كانوا عنده، وهذا لا يتنافى مع ما تقدّم لأنّ العدو كان يطلب السلم بأي وجه أمكن.

وقد كانت هذه الحادثة سبب تأخير الغزّال عن الكتابة. وكانت له تآليف أخرى غير «الرحلة»، منها :

- «اليواقيت الأدبية بجيد المملكة المحمدية»
- «الأطروحة الهندسية والحكمة الشطرنجية الإنسية»
- «نتيجة الفتح المستنبطة من سورة الفتح»

وكلها في مدح مخدومه السلطان سيدي محمد بن عبد الله ؛ وكان له خط رائق رحمه الله.

وفاته

لمَّا صرفه السلطان عن خدمته، لَزِمَ بيته بفاس مُقبلا على شأنه، مشتغلا بنفسه، منعزلا عَنْ أبناء جنسه، فكُفَّ بصره، وأدركه أجله، طلوع فجر يوم الأحد خامس عشر جمادى الأولى عام واحد وتسعين ومائة وألف (15 جمادى الأولى 22/1191 يونيه 1777). ودفن ظهرا بزاوية الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي، في صحنها، تغمَّده الله برحمته، آمين.

أخبار سفارته

كانت نتيجة المواصلة التي تمَّت بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وشارل الثالث ملك إصبانيا أن عيَّن، رحمه الله، سفارة وجَّهها إليه تتركب من خاليه أبي يعلى عمارة بن موسى الأودي ومحمد بناصر الأردي، وكاتبه أبي العباس أحمد الغزَّال بصفة كاتب لهما فقط. ولمَّا انفصل الغزَّال عن الحضرة السلطانية، كتب إلى بعض وزراء السلطان يقول له : «أريد منك أن تُعَرِّف أمير المؤمنين بأنَّ هذين الرجلين لا معرفة لهما بقوانين النصارى، وإنِّي قد خِفْتُ عاقبة الأمر فيما ينشأ عن رأيهما، فلا تواخذني بشيء من ذلك.»

فأخبر الوزير السلطان بما كتب به الغزَّال، فقال : صدق، وقد ندمت على تعيينهما، وما راعيت إلا منزلتهما، والآن أكتبْ إلى الطاغية وقلْ له : «إني قد بعثت إليك بكاتبي الغزَّال باشادوراً وابعثْ بالكتاب إلى الغزَّال، فإذا بلغه فليستمسك به، وليحز الكتاب الذي عندهما، ويلي الأمر دونهما.

فلمَّا بلغه كتاب السلطان، امتثل وقضى الغرض على الوجه المطلوب، وأبقى ذكراً جميلا[25].

وكلَّفه بالبحث عن الأسارى الذين بإصبانيا والاستفسار عن أحوالهم، واختبار أمورهم، وأعطاه صلة أنعم بها عليهم، وأمره أن يُحْصِيَ كل واحد باسمه ولقبه، واسم رئيسه ومركبه، وتمييز الحامل لكتاب الله من غيره، ومواعدة الجميع بخير، وتقييد ووصف ما يلقاه ويراه في رحلته، واسترجاع الكتب العربية الاسلامية التي استولى عليها الإصبان أثناء حروبهم الاسترجاعية (Reconquista).

وأحضر سفراء شارل الثالث الذين كانوا بحضرته وسلَّم لهم الأُسارى الطاعنين في السِّن من غير جنسهم كهدية قدَّمها إليهم.

25) «الاستقصا»، ص 101 من ج 4، طبع القاهرة. وص 33-34 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

سفارة الغزال بإصبانيا وأعماله فيها[26]

أبحرت السفارة من طنجة متوجهة إلى إصبانيا في سفينة خاصّة، فهاج عليها البحر، ولم يساعدها الريح، فاضطرت إلى الاتّجاه إلى مرسى سبتة، وكان وصولها إليها منتصف ذي الحجة عام تسعة وسبعين ومائة وألف (15/14 ذي الحجة 25/1179 مايه 1766)، فنزل السفير ومن معه إلي البرّ، وتلقّاه والي المدينة بكل حفاوة وإكرام.

ثم زار المدينة وتطوّف بأنحائها، ووقف على مشاهدها، والآثار الاسلامية التي بها، حسبما وصفه في رحلته.

وذكر أنه لمّا دخل الكنيسة التي بناها الإصبان بإزَاءِ المسجد، وجد فيها ألواحا مكتوبة معلقة بحيطانها، فسأل عنها، فقيل له إنها زِمامات اشتملت على أسماء من افتُدي من أسراهم من يد المسلمين في أول الزمان، وأسماء الملوك المسلمين المُفتدى من أيديهم أولائك الأسرى، وأسماء الفرايلية الذين توسّطوا في فدائهم.

وفي الحادي والعشرين من ذي الحجة من العام المذكور (21 ذي الحجة /31 مايو)، بارح السفير ومن معه سبتة، متوجها إلى الجزيرة، فهبّت عليهم زوبعة بحرية، وعاينوا الهلاك، لولا أن الله نجّاهم إلى البر، وقطعوا المسافة التي بين المدينتين في البوغاز في ثمان ساعات، وتلقّاهم بالمرسى خلق كثير، وقابلهم الحاكم في احتفال باهر.

ثم تابع السفير وجهته مخترقا البلاد الإصبانية الأندلسية وعواصمها الكبرى كقرطبة واشبيلية. وكان كلما حلّ بمدينة أو قرية قابله أهلها بما لا مزيد عليه من الحفاوة والاحتفال التّام، إلى أن وصل إلى مدريد ونزل بدار من أحسن دورها، وأقام بها مدة تزيد على الشهر في الانتظار، لورود الخبر بموت أم الملك واشتغاله بمَأتمها.

وفي أثناء إقامته بمدريد، كتب له أربعة وعشرون أسيرا مسلما شكاية وصفوا فيها حالهم، فسأل عنهم، فأُخبر بأنّهم بالمستشفى، فبعث في الحين بعض أصحابه لعيادتهم، وأصحبهم صلة لهم واساهم بها، ووعدهم خيرا، وأخبرهم بما امتنّ به السلطان عليهم من إكرامهم، وإحسانه إليهم، كما هي عادته وخيّرهم في قبض ما وجب لهم بين إخوانهم من الصلّة السلطانية، أو يؤخروا ذلك إلى أن يأخذوها مع باقي إخوانهم من الأسارى، فاختاروا التأخير، خشية الطمع فيهم من المباشر لهم بالمستشفى.

---

26) هذه الأخبار ملخصة من «الرِّحلة».

وفي العاشر من ربيع الأول عام ثمانين ومائة وألف (10 ربيع الأول 16/1180 غشت 1766)، بارح مدريد متوجها إلى مدينة لاكرانخة (La Granja) المصطاف الذي يقيم به الملك. ومر في طريقه على طريق جديدة كان العَمَلُ لا زال جاريا في تمهيدها، فقال إن طولها يزيد على تسعة أميال، وأنفق عليها ملك إصبانيا أموالا طائلة لشقِّ الجبال، وهدّ الشواهق بالبارود، والعملة فيها كلهم من أسارى المسلمين، وكم أُصيب منهم أثناء عملهم، عند انفجار المينات، بالأحجار، ولم يتيسّر له لقاؤهم لأنهم مرُّوا عليهم ليلا ولم يشعروا إلاّ وقد جاوزوا محل استقرارهم، فكتب لهم كتابا، ووعدهم بالاجتماع بهم في الأوبة.

مقابلته للملك ومذاكرته مع وزيره في مهمته.

لمّا وصل إلى المدينة التي يقيم بها الملك، إستقبلهم استقبالا رسميا في أُبّهة ونظام واحتفال رائق.

وبعد المقابلة، عيّن له أحد وزرائه للمذاكرة معه في مهمة سفارته، فشرع في الكلام معه فيما يتعلق بالمسائل التي أُمر بمباشرتها وإنجازها وهي :

1 – تسريح الأُسارى الطاعنين في السِّن، والمصابين بالعمى، والمرضى، والفاقدين لبعض أعضائهم، ومن في معناهم من أي بلد كانوا.

2 – ما تجده السفارة من أسارى المغرب عند استعراض جميعهم واستيعاب أسمائهم وألقابهم.

3 – إطلاق سراح أسيرين من الجزائر، أحدهما طالب علم، وهو الفقيه السيد علي البابادْغي، والآخر ذو مروءة، لأنهما كتبا للسلطان طالبين منه إنقاذهما من الأسر.

ثم ذاكر الوزير في أمور أخرى مهمّة اشتكى منها الكثير من الأسارى، وهي :

1 – إذا مات أحدهم يتولّى دفنه إخوانه، ومتروكه لهم.

2 – لا يُولّى عليهم أحد من المتنصِّرة حال الخدمة، لأنهم أضرّ عليهم من مطلق النصارى.

3 – لا يُمنعوا من كتب رسائلهم بالعربية.

4 – يُرفق بهم في الخدمة، ولا يُحمّل أحد منهم ما لا يطيق.

5 – يعالج مرضاهم بالمستشفى كَغَيْرِهِمْ.

6 - لا يُلْزموا بالخدمة وقت صلاتهم.

7 - لا يُهْملوا فيما لابدَّ منه من الكسوة والطعام.

وقال له : إنَّ هذه المطالب كلها لا تكبر على الملك، ولا يامر بخلافها، وإنما المتولّون عليهم يجحفون بهم في حقوقهم، ويأكلون أرزاقهم ويُؤْذونهم لعدم من يخبر الملك بخبرهم.

فصادق الوزير على جميعها، وأمضاها بعد إعلام ملكه بها.

وفي الحال، أمر بكسوة جميعهم، وأوصى بالرِّفق بهم حال الخدمة، والإحسان إليهم، والبرور بهم، إلى أن يجعل الله لهم فرجا ومخرجا.

ثم سأله الوزير نيابة عن الملك، هل بقي له ما يقضيه من مطالبه.

فأجابه بأنَّه لم يبق إلاَّ ما طلبه السلطان من استرجاع كتب الإسلام، وتمييز الحاملين لكتاب الله من أسارى المسلمين بعلامة تدلّ على توقيرهم واحترامهم، وهذا أعظم شيء لازال ينتظره، لاسيما وقد حصل الوعد به على لسان الراهب الملازم للسفارة.

زيارته للأسرى المسجونين بمدينة شيقوبية (Segovia).

إغتنم الغزال فرصة وجوده بمدينة لگرانخة (La Granja)، فتوجه منها إلى مدينة شيقوبية (Segovia) القريبة منها، لزيارة الأسرى ورؤساء البحر المسجونين بها.

وكان عددهم أربعة وعشرين أسيرا، تعدَّدت رسائلهم إليه طالبين رؤيته والاجتماع به، متشفعين إليه بسيد الشفعاء ليصل إليهم.

ولمَّا اجتمع بهم، وسلَّم عليهم، أنّس غربتهم ووعدهم خيرا من السلطان، أيده الله، وبشّرهم بأنه مجتهد في فكاك أسرهم، وإنقاذهم ممّا هم فيه، وأقام معهم من الصباح إلى العصر، ولم ترقأ له ولهم عَبرة، أسفاً عليهم وحسرة، لاسيما عند مشاهدة إخوانهم المسلمين.

وأحضر وقت مفارقته لهم الموكّل بهم، وأوصاه بالرفق بحالهم، والاعتناء بأمورهم وفي مقابلة ذلك وعده بأنه سيذكره عند ملكه ذكرا جميلا، وكانت له حاجة عند وزيره في الوقت، فتحمَّل له بقضائها، فانْبسط وألزم نفسه المبرَّة التَّامة بهم.

وعِنْدَ تشييعه قالوا له : نحن آيسون من قومنا، ولم يبق لنا طمع في مخلوق إلا في ولد سيد المرسلين ﷺ، وإن لم يكن عتقنا على يده فنحن إلى الهلاك أقرب، نسأل الله تعالى حسن الخاتمة. فجدَّد لهم الوعد بأن السلطان سينقذهم مِمَّا هم فيه، فأنِسوا بذلك واطْمأنّوا إليه.

توجّهه للإسكوريال (Escurial)
واجتماعه بالأسرى الذين كانوا بطريقه.

توجَّه الغزّال بعد زيارته لشيقوبية (Segovia) إلى دير الإسكوريال (Escurial) والتقى في طريقه لمَّا كان راجعا منه بجمٍّ غفيرٍ من الأسرى المستعملين في الطريق، ففرح بهم، وأنّس غربتهم، وبشَّرهم بأنَّ جلالة السلطان مُهْتَمٌّ بشأنهم، مستعمل البعض والكل في خلاصهم وانقاذهم من الأسر، ودفع لهم الصلة المولوية التي أنعم بها، أيده الله، ووجد الكثير منهم مُثْقلا بالسَّلاسل في أعناقهم، والقيود في أرجلهم لتكرُّرٍ فرارهم، فكتب في الحال لمن له الأمر متشفِّعاً في وضع الأغلال التي كانت عليهم، وإطلاق سراح رجل منهم عميَت عيناه بالبارود، فأُجيب بإطلاق سراحه، وإزالة السَّلاسل عن الآخرين، وبالغ في إيصاء المتولِّي أمرهم، وبذل مجهوده في إكرامه بالمستطاع ليرفق بهم، فظهرت نتيجة ذلك في الحين، وكان عددهم مائتين وأربعة، وقبل ذلك كانوا ثلاثمائة، ففرّ بعضهم واستُشْهِدَ آخرون.

وَلاَ يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ … إلاَّ الأذلاَّن عَيْرُ الْحَيّ والْوَتِدُ
هذا على الخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ … وَذا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثَى لَهُ أَحَدُ.

وجلُّهم من أهل الجزائر وبعضهم أتراك.

وتبيَّن له عند استعراضهم أن ثلاثة عشر منهم بمستشفى مدريد لِمَا أصابهم من المرض.

ولمَّا وصل إلى مدريد ذهب لعيادتهم، وحمل لَهُمْ ما أنعم به السلطان عليهم، وواساهم، وحَدَّثَهُمْ بما سلاَّهم، وفتح باب الأمل أمامهم، وكلهم كان يعتقد أن الفرج لا ياتيه إلاَّ على يد سلطان المغرب.

وأُخبر بأنَّ الموكَّل بهم في هذا المستشفى أفْرايْلي يحسن إليهم، ويعتني بشؤونهم، أكلاً وشرباً، ونظافة، فشكره على ذلك وأحسن إليه ليزيد في الإحسان إليهم.

رجوع الغزّال إلى مدريد

بعد انتهاء مقابلة الملك، والمذاكرة في ما جاء لأجله مع الوزير، وزيارة مدينة شيقوبية ودير الإسكوريال، رجع الغزال إلى مدريد وأقام بها شهرا كاملا في انتظار ما وُعِدَ به من الكتب العربية الإسلامية التي كانت بالخزائن المدريدية وغيرها إلى أن توصّل بها، وأضاف لها ما جَلَبَهُ من غرناطة ثم وصله طرف آخر منها، فوجّه الجميع لمدينة قادس، وكلها مصاحف قرآنية وكتب حديثية وفقهية، وبكل أسف لم يذكر عددها ولا أسماءها.

الغزّال بقرطاجنّة (Cartagena)
وما باشره من شؤون الأسرى بها.

توجّه الغزّال بعد إتمام مهمته بمدريد إلى مدينة قرطاجنة في طريقه إلى غرناطة. ولمّا أشرف هو ومن معه عليها برز للقائهم جمهور كبير من المسلمين رجالا ونساءً وصبيانا، معلنين بالشهادة والدعاء للجلالة السلطانية، ولهم ضجة وجلبة، وكانوا مسرّحين في حكم الأسر، لا يستطيعون الخروج من البلاد التي هم فيها إلاّ بعد أداء ما أوْجبوه عليهم من العطاء لفقرائهم، ما لم يكن أحد منهم في قيد أسر الملك.

فسكّن روعتهم، ووعدهم وبشّرهم أداء ما يطالبون بأدائه، وحملهم لبلادهم، فأخذت النساء في الزغاريد، والصبيان يرقصون، والرجال لله يشكرون، وللسلطان يدعون، لأنه تعهد بإنقاذهم، وإرجاعهم لأوطانهم.

ولمّا دخل المدينة في وسط جماهير أهلها توجّه لرؤية الأسرى الذين بها صحبة المكلّف بهم، فتلقّوْه بالإعلان بالشهادة والدعاء للسلطان، وأخبرهم بما جاء لأجله ثم أخذ يكتب اسم كل واحد منهم ولقبه، ووقع خلاف في قوة بعض الشيوخ وضعفهم، فطلب إحالتهم على الطبيب فحضر، وبعد فحصهم، كان المسرّحون منهم اثنين وستين شيخا، ومن أهل المغرب أربعين لتسجيل مغربيتهم، وأُخّر المنتسبون للمغرب، ولم تثبت نسبتهم إلى الاستفسار عنهم وبعد ذلك فُرّقت عليهم الأموال المنعم بها عليهم.

ثم وقعت المذاكرة مع حاكم البلد في الأسرى المرهونين في أداء العطاء فأُحضرت رسوم فكاكهم، وتُصفّحت، فوُجدت صحيحة، فأدّت السفارة الواجب عنهم، وأُطلق سراحهم، وكانت بينهم امرأة لها بنتان وأبوهما لا يزال أسيرا، فتمّ فداؤه، وأدّت السفارة عنه الواجب.

ثم أخذ في البحث عن الأسرى المملوكين الذين بيد الأفراد من الناس، ليُعطيهم صلتهم، فكانت من جملتهم بنت من ناحية تلمسان، قد بلغت الحلم يملكها جيّار منعها من الذهاب للسفارة حتى سمع أنّ ذلك إنما هو لأخذ الصلة السلطانية فأذن لها حينئذ.

ولمّا جاءت أخذت تبكي وتتضرّع وتطلب العتق، وذكرت أنهم يريدون بيعها ببلد بعيد، وأنّ ربّتها تدعوها لدينها، وأنّها لا تريد بالإسلام بديلا، فتمّ فداؤها بعد توسط الحاكم لدى مالكها الذي علّق ذلك على مشورة زوجته، فأجابت بعد مشقّة فادحة، فأضيفت للنساء وأجريت النفقة عليها.

كما وقع إنقاذ أسيرين آخرين، أحدهما كان عند تاجر جميل الأخلاق، نزلت السفارة بداره بقرطاجنة، وكان يريد الفداء، ولم تخاطبه السفارة فيه، لأنها كانت نازلة بداره وفي إكرامه.

ولمّا بلغه ذلك قدّمه لها هدية، ولم يقبل عنه تعويضا، وألحّ الغزّال عليه في قبول العوض فأبى، وقال : أُرجئ المكافأة حين أكون ببلادك في المسائل التي تعرض لي بها.

وثانيهما تونسي الأصل، كان أسيرا عند أحد ضباط الجيش، فقدّمه هدية للسفارة بدون عوض فشُكر على ذلك.

ثم جُمع هؤلاء الأسارى كلّهم، وحُملوا في مركب حربي من قرطاجنة إلى قادس وحُمل النساء والأولاد في مركب آخر اكتُري لهم بمائتي ريال وخمسين ريالا، ليتوجهوا صحبة السفارة إلى المغرب.

وتابع السفير سفره لغرناطة، وبعد زيارتها توجّه إلى قالص (قادس) (Cádiz)، فوجد الكتب والأسرى المسرّحين في انتظاره، وكان عددهم مائتين وتسعين أسيراً في إكرام القادسيين، وأبحر الجميع منها صحبته إلى تطوان، كما سيأتي.

رجوع الغزال إلى المغرب

لمّا أنهت سفارة الغزّال مهمتها بإصبانيا حسب ما تقدم بيانه، أخذت طريق الأوبة إلى المغرب، وأبحرت من قادس صحبة الكتب والأسرى الذين معها في سفن خاصّة أُكريت لها، حاملة نتيجة اجتهادها، في مهادنتها وجهادها، وما توصّلت إليه من الإفراج عن ذلك الجمّ الغفير من المسلمين، وأصحبها ملك إصبانيا سفيراً من قِبله إلى جلالة السلطان سيدي

محمد بن عبد الله ليتمَّ معه بقية المذاكرة في المعاهدة السلمية التي تمَّ عقدها، وكان وصولها إلى تطوان بعد أربع وعشرين ساعة، في الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ثمانين ومائة وألف (28 جمادى الأولى 12/1180 أكتوبر 1766).

ولمَّا وصلوا، قدَّم السفير نزول الأسرى إلى البر ليريحهم من التعب ومشقة السفر، رعاية لمن بينهم من الشيوخ والنساء والصبيان والضعاف والزَّمْنى والمرضى. وكانت ساعة نزولهم إلى البر رهيبة جدا، امتزج فيها الفرج بالفرح وذهاب الحرج، وأحدق بهم إخوانهم المسلمون والمهنؤون والمسلِّمون وهم يخشعون ويبكون، والنساء يزغردن، والأطفال يمرحون ويرقصون، وآباؤهم وجوهَهُم في التُّراب يمرِّغون، شكراً للّه تعالى، والكلُّ داعٍ للسلطان بالنصر ومعترف بفضله وخيره الكثير الجزيل.

وكان نزول السفيرين المغربي والإصباني إلى البر في مهرجان عظيم، ما بين إطلاق المدافع من الأبراج والحصون والسفن الراسية بالمرسى، وقرع الطبول وهتاف الجماهير.

ونزل السفير الإصباني في دار من أحسن دور تطوان بناءً وأثاثاً وفُرْشاً.

ونزل الأسارى في المحلات المُعينة لهم، مع الاعتناء بشأنهم، والاهتمام بتنظيفهم، وتنقية ثيابهم، وتجديد كُساهم، والإحسان إليهم بكل ممكن، وخُصِّص النساء بمحل لهن وحدهن، وأُجريت النفقة عليهن وما يتبعها من البرور والإحسان.

وبعد إقامتهم بتطوان شهراً كاملا، توجَّه الجميع في أُبَّهة ونظام إلى العاصمة المراكشية، وافدين على الحضرة السلطانية، يحرسهم الجيش، ويقوم العُمَّال بشؤونهم في الطريق.

وكان دخولهم إليها يوماً مشهودا، وفي مآثر الدولة الخالدة معدودا، تتقدمهم العساكر السلطانية، وأعيان الدولة المحمدية، وسكان الحضرة المراكشية، وأمامهم الأسرى المُطلَق سراحهم رجالا ونساء وصبيانا، يحمل كل واحد منهم فوق رأسه كتابا من الكتب الإسلامية التي تمَّ استرجاعها. ونزل السفير الإصباني بإحدى البساتين الملكية، المسمى بـ «جنان العافية»، وأُفيضَتْ عليه سجال الإكرام والنِّعم الضافية.

وفي اليوم الثاني من وصولهم، استقبلهم جلالة الملك، فرحَّب بهم، وجدَّد إكرامهم والإحسان إليهم، وحمد الله الذي جعل إطلاق سراحهم وإنقاذهم من دار الكفر وردَّهم لدار الإسلام على يده.

وخيّر غير المغاربة في الذهاب إلى بلادهم، أو المقام بالمغرب، فاختار جميعهم المقام بالمغرب.

فأجابهم قائلا : بأنّ من له أهل وقرابة ببلده فلا بأس أن يصل رحمه، ويتعهد أهله، ومن أراد العودة إلينا فمرحبا به، ومن لم يكن له أهل ولا قرابة، ورغب في المقام لدينا، فله ما يسره إنْ شاء الله.

وزوّد الذين تعيّن ذهابهم إلى بلادهم بخير وإكرام كثير، زيادة على الخُلع السنية التي طلع عليهم، وأمر بحمل جميعهم، وكل مدينة يمرّون عليها في طريقهم، يقوم عُمّالها بإكرامهم وضيافتهم، حتى يصلوا إلى بلادهم في أمن وصيانة وعافية وسلامة، رجالا ونساء وصبياناً.

ثمّ استقبل السلطان الباشادور الإصباني، وقدّم له الهدية التي جاء بها إليه من ملكه، وشكره عليها، وقال له : «إنّ ردّ الأسارى والكتب الإسلامية شيء عندنا لا يوازيه شيء آخر».

وبقي في الضيافة السلطانية شهرا كاملا، وانصرف مجبوراً مسروراً بعد أن أتمّ مهمته السلمية على الوجه المطلوب، وأعطاه عشرة من الخيل العِتاق هدية.

واختار الركوب في البحر من مرسى الصّويرة، فساعده السلطان على ذلك، ووجّه معه سفيره الغزّال مرافقاً له حتى يُبحر.

ولمّا وصلوا للصّويرة، وهي حديثة عهد بالوجود، تعجّب منها ومن مبانيها، وحصونها، وأبراجها وبروزها للعيان في أجل معين محدود.

وأقام بها في إكرام واليها منتظرا سفينته التي أقلّته لبلاده نحو الشهرين، ثم أبحر منها آخر ربيع الأول عام واحد وثمانين ومائة وألف (آخر ربيع الأول 1181/أوائل غشت 1767).

وبذلك انتهت سفارة الغزّال على أجمل حال، وأكمل منوال.

المبحث الخامس

سفارة الغزّال إلى الجزائر[27]
لتبادل الأسرى بينها وبين إصبانيا

كان من خبر هذه السفارة أنه بعد رجوعه من سفارته بإصبانيا، ونجاحه فيها، كتب ملك الإصبانيول سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف (1182/1778-1779) كتابا إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله يقول فيه : إنه لم يبق ببلادي أحد من أسرى إيالتكم، ولم يبق عندي إلاّ أسرى أهل الجزائر الذين عندهم أسرانا، وطلب منه أن يتوسّط له عند صاحب الجزائر في المفاداة بينهما، وكان أسرى الإصبانيول يزيدون على أسرى الجزائر بكثير، وطلب أن تكون هذه المفاداة على يديه، أعني، على يَدِ السلطان، رحمه الله : الرئيس بالرئيس، والبلوط بالبلوط، والبكباجي بالبكباجي، والبحري بالبحري، والجندي بالجندي، ومن فضلت عنه فضلة، فالبحري بخمسمائة ريال، والرئيس بألف ريال، فأسعفه السلطان في طلبه، وانتدب للسَّعْي في إنقاذ المسلمين من يد الكفار، ابتغاء مرضاة الله ورجاء ثوابه.

وكان السلطان قد كتب إليه مع الغزّال وصاحبيه في من تحت أيديهم من المسلمين ليفكُّوا بهم أسراهم.

ولمّا كتب السلطان لأهل الجزائر، وعرض عليهم ما طلبه سلطان الإصبان، امتنعوا من الفداء، فكتب إلى باي الجزائر ثانيا فامتنع، ثم أعاد إليه الكتب ثالثا، وحضّهم على فكاك أسرى المسلمين، ووعظهم وخوّفهم عقاب الله، ورغّبهم في ثوابه، فأذعنوا حينئذ وامتثلوا وطلبوا منه أن يبعث إليهم رجلا من خاصّته، يقف على المفاداة بنفسه، ويدفعون إليه أسراهم في يده، ويتسلّم مثل عددهم من إخوانهم.

---

27) «الاستقصا»، ص 101 من ج 4، طبع القاهرة. وص 33-34 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

ولمّا ورد على السلطان كتاب أهل الجزائر بالامتثال، كتب إلى ملك الإصبان يطلب منه أن يبعث بمن عنده من أسرى المسلمين في مركب إلى الجزائر وينتظر هنالك الباشادور الذي سيوجهه من قبله، حتى تكون المفاداة على يده.

وعيّن السلطان لهذه السفارة كاتبه وسفيره أبا العباس الغزّال وصاحبيه عمارة بن موسى الأودي ومحمد بناصر الأودي، وعند وصولهم إلى الجزائر، أرسى مركب الإصبانيول بظاهر مرساها، وأنزل من أسرى المسلمين ألفا وستمائة ونيفا، فأخرج أهل الجزائر من أسرى النصارى مثلهم ألفاً وستمائة ونيفا أيضا، وبقيت عندهم منْ أسرى النصارى فضلة ففداها الإصبنيول بالمال، وانفصلوا، ورجع السفير الغزّال ومن معه إلى حضرة السلطان، وكتب الله أجر ذلك في صحيفته.

تتابع فداء الأسرى مع إصبانيا[28]

لم ينقطع فداء الأسرى ومبادلتهم مع إصبانيا، حتى في زمن حصار السلطان سيدي محمد بن عبد الله لمليلية. وذلك أنه في شهر يناير سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف (يناير 1775/قعدة 1188)، وصلت إلى مرسى طنجة سفينة من سفن شارل الثالث ملك إصبانيا، حاملة سبعة وتسعين أسيرا (97) مغربيا كانوا لايزالون بإصبانيا، قدّمها هدية لسطان المغرب.

وبعد ذلك ببضعة أسابيع، دخلت سفينة إصبانية أخرى لمرسى العرائش، فاستولى ولاة المرسى عليها وعلى من فيها من الركاب والملاحين وغيرهم. وبمجرد ما بلغ الخبر لعلم السلطان سيدي محمد بن عبد الله أمر والي العرائش بإطلاق سراح الركاب والبحارة حالاً، وردٍّ سفينتهم المحجوزة إليهم، وإعطائهم تعويضاً مالياً يومياً منذ دخولهم للمرسى إلى يوم خروجهم منها.

28) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لكايي، ص 26.

أسر أميرة إصبانية بالجزائر وفداؤها
على يد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

قال في «الاستقصا» :[29] «في سنة تسع وتسعين ومائة وألف (1785/1199)، أسر أهل الجزائر نصرانية من قرابة ملك الإصبانيول[29م] كانت متوجهة في مركبها إلى ناپولي (Napoli) لزيارة ابن عمها الذي هو صاحب نابولي.

فلمّا عرف أهل الجزائر محلها من قومها امتنعوا من فِدَائها بكل وجه، فكتب ملك الإصبانيول إلى السلطان، رحمه الله، يسأله أن يشفع له في فدائها بكل ما يطلبون، فأسعفه، وكتب لصاحب الجزائر في شأنها، فاعتذر إليه بأنّ النصرانية في سهم العسكر، ولا يمكنه إكراههم على فدائها. فلمّا ردّ صاحب الجزائر شفاعة السلطان، كتب إلى السلطان عبد الحميد الأول بذلك، فكتب عبد الحميد، رحمه الله، إلى أهل الجزائر يؤنّبهم على ردّ شفاعة السلطان ويقول لهم : إن الواجب أن تُسرِّحوها له بدون مال، وما عسى أن يبلغ ثمن هذه النصرانية ؟ ولو طلب مني سلطان المغرب ألف نصرانية لبعثتها إليه. وحتى الآن نأمركم أن تبعثوا إليه بهذه النصرانية، ولو كانت هي الملكة، ولا تقبضوا فيها فداء. أوما رأيتم ما افتكه ملك المغرب من أسرى الأتراك من كل جنس، حتى لم يبق في أسر الكفار مسلم ؟ وأنتم تردّون شفاعته في نصرانية لا بال لها، فلا تعودوا لمثل هذا، فيكون سبباً لتغيُّر باطننا عليكم، والسلام.

ولمّا ورد عليهم فَرَمَانُ السلطان عبد الحميد الأول، لم يسعهم إلاّ إرسال النصرانية إلى حضرة السلطان، رحمه الله، وكتبوا إليه بالاعتذار، وقالوا إنّما امتنعنا من فدائها خوف بلوغ خبرها إلى ملكنا، فلم نر أن نَفْتَاتَ عليه، وذلك الواجب علينا من طريق الخدمة والطّاعة، فنحبّ من سيدنا أن يقبل عذرنا، ولا يظن بنا خلاف هذا، والسلام.

ولمّا وصلت إلى السلطان، وجّهها إلى ملك الإصبان، فسُرّ باطلاق سراحها سُروراً عظيم

---

29) ص 116 من ج 4، طبع القاهرة.

29م) لم تكن هذه النصرانية أميرة من قرابة ملك إصبانيا، وإنما كانت زوجة حاكم المرسى الكبير، وكان اسمها دونيا ماريا هيدالگو (Doña Maria Hidalgo)، انظر قصتها مفصلة من مجلة هيسپيريس - تامودا (Hésperis-Tamuda)، ج 16، كراسة فريدة، عام 1975، ص 99 والتي تلي تحت عنوان.
"El Cantivero de Cino Espagnoles en Argel - 1780-1782"

المبحث السادس

سفارة علي مارسيل
لتصفية مسائل الأسرى بفرنسا

التعريف بالسفير أبي الحسن علي مارسيل

الأسرة المارسيلية الأندلسية الرباطية أصيلة شهيرة في العلم والرياسة. ومن مشاهيرها وأعيانها السفير، الرئيس، الناظر، الموقِّت بالمسجد الأعظم، أبو الحسن علي مارسيل الرباطي. وكان متوليا عمالة الرباط في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله في حدود سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف (1766/1173)، وهو الذي كلَّفه ببناء الصقالة أو البرج الكبير الذي على ساحل البحر[30].

ويُعد من نُظّار أحباس رباط الفتح في دولة السلطان المذكور ؛ وكان عارفا بالهندسة والتنجيم والتوقيت، قائما بهذه الوظيفة بالمسجد الأعظم بالرباط. وبعد وفاته تداولها أولاده من بعده، وأقرّهم الملوك على ذلك، حسبما هو بظهائرهم الشريفة التي بيدهم[31].

ولمّا كان بهذه المثابة من المعرفة والتقدُّم في الوظائف المخزنية، وجّهه السلطان سيدي محمد بن عبد الله سفيرا لفرنسا، لقبض مال فداء الأسرى، فقام بالمامورية التي أُسندت إليه على الوجه المطلوب منه.

30) «الاستقصا» ص 95 من ج 4، طبع القاهرة، وص 18 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

31) «إتحاف أعلام الناس» لابن زيدان، ص 353 من ج 3.

وكانت وفاته، كما عند أبي عبد الله الضعيف، أول رجب عام ثمانية وثمانين ومائة وألف (1 رجب 7/1188 شتنبر 1774)[32]، رحمه الله تعالى.

موجب السفارة

كانت فرنسا سحبت قناصلها من المغرب، وخصوصا من تطوان ورباط الفتح، منذ سنة ثمان عشرة وسبعمائة وألف (1130/1718)، واستمرَّ الحال على ذلك إلى سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181-1180/1767) في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وصار التجّار يتولّون المذاكرة مع الحكومة المغربية، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وفي أثناء هذه المدّة، كانت قراصين السلطان تتجوّل في البحار، وتهاجم قراصين فرنسا وتطاردها، وتسوقها إلى المراسي المغربية، غنيمة باردة، فكثر الأسرى الفرنسيون بالمغرب، وتضاعف عددهم، وحاول الفرنسيون إيقاف غارات قراصنة سلا ورباط الفتح، وسعوْا في طلب المهادنة، فلم يحصلوا على طائل.

وأخيرا أسر قراصنة العدوتين سنة أربع وستين وسبعمائة وألف (1177/1764) أمام مرسى قادس السفينة الفرنسية المسماة سيرين (Sirène) وساقوها لمرسى العرائش وبادروا إلى تسليحها واستعمالها في قرصنتهم.

فنتج عن ذلك أن جهزت فرنسا أسطولا من أساطيلها الحربية يتركب مما يزيد على اثني عشر قطعة برياسة الأميرال دوشافو (De Chaffault)، وأمرته بالقضاء على القرصنة المغربية قضاء مبرما. فهاجم سلا يوم عيد الأضحى عام ثمانية وسبعين ومائة وألف (1765/1178)، ورماها بالقنابل السدمّرة، وكان الحدث بها عظيما.

ثم توجّه لمرسى العرائش، وحاول النزول بها، فخسر خسارة عظيمة، وانتصر المسلمون عليه انتصارا باهراً، وأسروا من بحارته عددا كثيراً.

وذلك في السابع والعشرين من يونيو سنة خمس وستين وسبعمائة وألف (27 يونيو 8/1765 محرم 1179)

وسيأتي بيان أخبار هذه الوقعة السلاوية العرائشية مفصلة عند الكلام على موقف أوروبا من القرصنة السلاوية الرباطية.

32) ص 40 من جزء 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

ثم أمر السلطان بجمع أولائك الأسرى، والتقاطهم من القبائل التي كانوا مُشرَّدين فيها بعد الهزيمة، وأعطى كل من أتى بأسير منهم مالا وكسوة، فاجتمع له منهم نحو الخمسين، فسيقوا إلى مراكش والصويرة، وبقوا في الأسر إلى أن توسَّط في فدائهم ملك الإصبانيول.

وعقب هذه الهزيمة، عقدت فرنسا مع المغرب هدنة موقتة، بتاريخ عاشر أكتوبر سنة خمس وستين وسبعمائة وألف (10 أكتوبر 24/1765 ربيع الثاني 1179) لمدة عام واحد، ثم جُدِّدت وامتدَّ أجلها إلى فاتح مايه من سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1 مايه 2/1767 حجة 1179) لتمكن المذاكرة أثناءها في عقد صلح نهائي بين الطرفين.

وقد ذكر الأمير أبو محمد عبد السلام بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله في «دُرَّة السلوك» وقعة سلا والعرائش هذه فقال :[33].

«وبعد هذه الوقعة، احتفل طاغية الإصبان والفرنسيس بهدايا لم يُعهد بمثلها مشتملة على جواهر وأصناف من الديباج، وأواني الصين المذهبة، وقِبَب مبطَّنة داخلا وخارجا بالحرير الأحمر والأخضر قد أُحكمت خياطتها بصفائح مذهبة عجيبة الشكل والإتقان، وقدمت رسلهم لمدينة مراكش بهداياهم وكان يوم دخولهم إلى الحضرة يوما مشهودا. فأجابهم السلطان إلى ما طلبوه من الصلح والمهادنة بعدما بذلوا عدة وافرة من الأموال وأصناف اليواقيت والجواهر واللآلئ.»

ولمَّا تمَّ عقد هذه المهادنة، وقبل السلطان وساطة ملك إصبانيا في اطلاق سراح الأسرى، بعث، رحمه الله، خديمه أبا الحسن عليا مارسيل الرباطي سفيرا إلى فرنسا سنة تسع وسبعين ومائة وألف (1766/1179) لتقرير هذه المهادنة، وقبض المال الذي فُدي به أسرى العرائش وشراء بعض الآلات الحربية منها، فبذلت الحكومة الفرنسية المال والآلات الحربية معاً طائعة[34].

وبعد ذلك وجَّهت سفيرها الكونط دو برونيون (Comte de Breugnan) إلى مراكش سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1180/1767)، وهو الذي أتم عقد الصلح والمعاهدة، وفَدى بقية الأسرى الفرنسيين الذين كانوا بالمغرب، وهو ما سنراه في الفصل الآتي.

33) نقلا عن ابن زيدان في «اتحاف أعلام الناس»، ص 265 من ج 3.

34) «الاستقصا»، ص 101 من ج 1، طبع القاهرة.

المبحث السابع

سفارة الكونت دو برونيون (Comte de Breugnan) لدى سيدي محمد بن عبد الله لعقد الصلح وفداء الأسرى[35]

عينت الحكومة الفرنسية الكونت دو برونيون (Comte de Breugnan) سفيرا لها من قبل ملكه لويس الخامس عشر إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله لتقرير الصلح النهائي الذي كان مهّد له مع الوزير مولاي إدريس المنتصر، أحدُ تُجّار آسفي الفرنسيين جان جاك سالفا (Jean-Jacques Salva)، فبارح بريست يوم سابع من أبريل سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (7 أبريل 8/1767 قعدة 1180)، قاصدا مرسى آسفي في دارعة حربية تخفرها دارعتان حربيتان أخريتان، وعرّجت الدوارع الثلاث على مرسى قادس، وحملت منها مائة وخمسة من الصناديق المملوءة بالمال الذي خُصِّص لفداء الأسرى، والإنفاق على هذه السفارة وقدره : مائتان وعشرة آلاف بياستر (210.000)، تُقدَّر قيمتها بنحو مليون وخمسين ألف ليرة (1.050.000) بسكة الوقت.

---

35) المراجع :

1) «دفتر القنصلية الفرنسية» لشينيي، من ص 1 إلى 13.

2) «التاريخ الصغير للمغرب» لكايي، ص 91 وما بعدها.

3) العدد 2 من مجلة «هيسبيريس تامودا» (Hespéris Tamouda)، سنة 1960، تلخيص مقال لكايي عنوانه «غنائم الرئيس عمر»،ص 173 وما بعدها.

4) «الاستقصا»، ص 104 من ج 4، طبع القاهرة. وص 42-43 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

5) «إتحاف أعلام الناس»، لابن زيدان، ص 237 وما بعدها من ج 3.

6) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لكايي، ص 33-34-188 وما بعدها.

وكان وصوله إلى مرسى أسفي، بعد ظهر يوم السادس والعشرين من الشهر المذكور (26 أبريل/27 قعدة)، ولم ينزل إلى البر إلا يوم الرابع من مايو (4 مايه/5 حجة)، وألزم بالانتظار هذه الأيام، لأجل استئذان السلطان وأخذ الأهبة لاستقباله استقبالا يناسب شخصيته.

ورافقه عند نزوله إلى البر عدد من الضبّاط والقنصل الفرنسي لوي شينيي (Louis Chénier) الذي أُسندت إليه القنصلية الفرنسية بالمغرب بمجرد الإمضاء على صك الصُلح والمعاهدة.

وحيَّته أبراج المدينة بطلقاتها المدفعية، وأجابتها الدوارع الفرنسية بمثلها. واستقبله عند نزوله بالبر، باسم السلطان، قائد قبيلة عَبْدَة، عيسى بن المعطوب، والخليفة السلطاني بآسفي، الأمير مولاي عبد الرحمان بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وأعوانهما، وخمس عشرة من الجيش المحمدي في أحسن زيّ وأكمله : ألف من الخيالة وخمسمائة من المُشاة.

وبعد التَّحية ومبادلة عبارات التَّرحيب من الجانبين، واستعراض فِرق الجيش التي كانت حاضرة، تقدّم الموكب ودخل المدينة على هذه الهيئة، بين هُتاف الجماهير وقَرْع الطبول، ونزل بدار التاجر جان جاك سالقا، وهناك زاره الأعيان وقناصل الدول والتُّجار.

وفي أثناء إقامته بآسفي، حدث حادث كاد يُحبط عمله في عقد الصلح الذي جاء لأجله، وهو أنَّ أحد رؤساء البحر، القرصان عمر، بينما كان متجوِّلا في سفينته بالبحر، لقي يوم العشرين من أبريل (20 أبريل 20/1767 قعدة 1180) في بوغاز جبل طارق سفينة فرنسية مشحونة بالزيت والصابون والكبريت وغير ذلك من السلع المتنوعة في طريقها من مرسيليا إلى لاروشيل وروشفور، فأسرها وقادها إلى تطوان، وحجز ما كان فيها من السِّلع.

وبعد ذلك بخمسة أيام، لقي سفينتين فرنسيتين في طريقهما من مرسيليا إلى أمريكا، فأسرهما أيضا، وساقهما إلى مرسى المعمورة (المهدية)، قرب سلا، وأنزل إلى البر ما كان فيهما من السلع والبحّارة، وأُخذت السلع غنيمة، وأُسر البحّارة، ولكنهم عوملوا معاملة حسنة.

وبمجرَّد ما بلغه ذلك، كتب مشتكيا إلى الوزير مولاي إدريس بن المنتصر وطالبا منه تدارك الأمر لِئَلاَّ يكون عائقا عن نجاح الصلح المنشود.

ثم جدّد الشكاية لجلالة السلطان متظلّما ناشدا عدله وإنصافه، وطالبا رفع الحجز عن السفن الثلاثة، وتسريح الأسرى، وردّ السلع التي أُخذت غنيمة، ومذكّرا في الهدنة المعقودة بتاريخ عاشر أكتوبر سنة خمس وستين وسبعمائة وألف (10 أكتوبر 24/1765 ربيع الثاني 1179)، وأنّها لازالت محكمة مستمرة لم ينصرم أجلها، ولذلك يتعيّن تطبيق ما تضمّنته فصولها.

ولمّا بلغ ذلك لعلم جلالة السلطان، أحضر أحد التجّار الفرنسيين الذين كانوا بمراكش وقال له : «إن الرئيس عمر إنّما أسر السفن المذكورة لأنّه لم يجد عند رؤسائها الأوراق الرسمية المطلوبة حتماً في مثل هذه الأحوال، وحيث إنه لم يتحقّق من جنسيتهم فقد أسرهم، وأمره أن يبلّغ ذلك للسفير ويطمّنه بأنّه إذا كان بمراكش فإن الأمور ستُسوّى على أحسن حال وأكمله كما يجب.

ثم وجّه السلطان أحد قواده والرئيس صالح إلى المعمورة وتطوان، وانضمّ إليهم بعض رجال السفارة للبحث في القضية وإصلاحها على الوجه المرضي.

فتوجّهوا وبحثوا فيها ووجدوا السفينة التي كانت بتطوان قد استُعملت، وخرج فيها بعض الرؤساء المغاربة إلى البحر، فردّت من جبل طارق في أقرب وقت، ورُفع عنها وعن السفينتين اللتين كانتا بالمعمورة الحجْرُ، وأُطلق سراح جميع البحّارة، ورُدّت السلع التي كانت غُنمت منها، وأدّت السفارة النفقات التي ترتبت على هذا البحث، وبذلك تمّت هذه القضية، ولم تكن عائقا في عقد الصلح الذي جاء السفير راغباً فيه ولأجله. قالوا : ولكنها كانت سبباً في تعطيل الرئيس عمر عن العمل، وأُعلم السفير بذلك، واستراح باله.

توجه السفير لمراكش وكيفية مقابلته بها.

كانت مبارحة السفير آسفي متوجِّهاً إلى مراكش في الحادي عشر من مايه سنة سبع وستين سبعمائة وألف (11 مايه 12/1767 حجة 1180)، حيث كانت تقيم الجلالة السلطانية، وكان في معيته من أتباعه اثنان وعشرون من رُماة القنابل، وستة وعشرون من بحّارة الدوارع التي جاءت معه، وثمانية من الموسيقيين وطنبوريان، وستة وعشرون من الخدمة، الجميع أربع وثمانون.

ورافقه في طريقه قائد قبيلة عَبْدَة عيسى بن المعطوب مصحوباً بأربعة من قواد الجيش السلطاني، وأربعين من الخيالة دون المشاة، وستة وثمانين جملا، واثنتين وعشرين بغلة لحمل الأثقال والهدايا التي جاء بها معه لجلالة السلطان وكبار رجال دولته.

وقطعوا المسافة في مراحل متعددة طلباً للراحة وعدم التعب لشدة الحر.

وفي الخامس عشر من مايه (15 مايه/16 حجة)، عبرت القافلة الرسمية نهر تانسيفت، ووجّه السفير الإعلام بوصوله للوزير مولاي إدريس بن المنتصر.

وفي الغد خرج لاستقباله على نحو ميل من المدينة في أبهة وحسن نظام، تحيط به فرقة من الجيش المحمدي عددها ألف وخمسمائة من الفرسان الراكبين على الخيول المسومة المختارة في أحسن زي وأكمله.

ولمّا اجتمع به، قدّم له التحية السلطانية الممزوجة بالترحيب، وتمنّى التوفيق والنجاح له في سفارته.

ثم انتظم الموكب ودخلوا لمراكش، ومرّوا في طريقهم على القصور السلطانية وصهريج المنارة، فوجدوا فيه سفينة صغيرة ملكية معدّة للنزهة والفسحة، وبمجرد ما اقتربوا منها، حيّتْهم بتسع طلقات من المدافع التي كانت فيها.

وكان نزول السفير ومن معه تحت الخيام والسرادقات التي نصبت لهم بإحدى البساتين السلطانية القديمة.

وفي الثامن عشر من مايه (18 مايه/19حجة)، زار السفير الوزير مولاي ادريس زيارة رسمية وديّة، وسلّم له رسالة من دوق براسلان (Duc de Praslin) الذي كان متولّياً وزارة البحرية الفرنسية في ذلك العهد، وقدّم له هدية نفيسة ذات قيمة وهي :

- منجانة كبيرة
- وساعة صغيرة ذات سلسلة محلاة بالأحجار الكريمة
- وبندقية مرصّعة بالذهب
- وإبريق من الفضّة مع طبقه.
- ومجموعة أدوات الشّاي من فخار وصنع سيڤر (Sèvres).
- وثمان وعشرون قطعة من نفيس الثياب ومُختار المنسوجات.

في عشية اليوم نفسه، إستقبله السلطان سيدي محمد بن عبد الله الاستقبال الرسمي المشور في أبهة واحتفال كبير. وقدّم له التحية ومن معه من رجال سفارته، مكشوفي الرؤوس، مظهري غاية الخضوع والإجلال، وألقى كلمة التحية بالفرنسية، وترجمها في الحين

أحد التراجمة من اليهود، وأجابه الملك عنها بعبارات شكر وامتنان، وانسحب وترك أمامه الهدية التي جاءه بها من ملكه لويس الخامس عشر، وتشتمل على :

- ريشة توضع على الرأس محلاة بالجواهر والأحجار الكريمة من الدِّيَمَانْط الرفيع.
- وعرش لجلوسه عليه من المخمل الحريري القرمزي المذهب.
- ومنجانة كبيرة دقّاقة السّاعات والأربا ع.
- ومظِلّتين محلاتين بالذهب والفضّة.
- ونظّارتين ومكبِّرتين رفيعتين.
- وميكروسكوبَيْن، أو مِجهريْن.
- وإبريقاً من الفضّة.
- وبندقية مرصّعة بالذهب.
- وكابوسيْن مرصّعيْن بالذهب.
- وأدوات الشّاي من الفضّة وفخّار سيفر.
- وصندوق من السكّر الملكي المنتخب.
- وصندوقيْن من الشّوكُلاطَة.
- وثلاثين قطعة من المنسوجات الرفيعة لجلالة الملكة ربّة الدّار.

وكذلك قدّم لزوجة الوزير مولاي ادريس هدية :

- ساعة مذهّبة.
- وستّ قطع من الثياب والمنسوجات الجميلة المختلفة.

وفي الأيام التي تلت هذه الاستقبالات، تذاكر مع الوزير مولاي إدريس في المعاهدة الصلحية، وقدّم له صكّ مشروعها الذي هُيئ بڤيرساي، فتمّت المصادقة عليه في الثامن والعشرين من مايه سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (28 مايه 1767/آخر حجة 1180)، وتمّ التوقيع في الثلاثين منه (30 ماي/1 محرم) منه.

وقبله بيوم واحد، استقبل السلطان السفير استقبال الوداع، وقدَّم له القنصل الجديد لوي شينيي (Louis Chénier)، فقبله واعتمده، وقدَّم هدية أخرى للوزير مولاي ادريس، فيها بعض أواني فخَّار سيڤر، والشَّاي الرفيع، والحلويات، وكذلك لغيره من رؤساء الجيش الذين رافقوه في طريق سفره.

رجوع السفير من مراكش إلى آسفي وسفره لبلاده.

بارح السفير مراكش بعد إتمام مُهمَّته بها بخمسة أيام راجعاً إلى آسفي على الهيئة التي جاء عليها، فوصلها في سادس يونيو (6 يونيو 8/1767 محرم 1181).

ولمَّا استقرَّ بها، وصله كتاب من الوزير مولاي إدريس يُعْلمه فيه رسمياً بنتيجة البحث الذي أُجري في قضية السفن المحجوزة وأنَّها رُدَّت وما كان فيها من السِّلع، وأُطلق سراح الأسرى.

وأبحر من آسفي في دارعته التي كانت في انتظاره راجعاً إلى بلاده في الثامن عشر يونيو (18 يونيو/20 محرم)، وكان وصوله إلى بريست يوم الحادي والعشرين من يوليوز (21 يوليوز/25 ربيع الأول).

وتوجَّه لباريس، وأدَّى نتيجة سفارته وما أسفرت عنه لمرسله، وهي : فداء مائة وتسعين أسيراً فرنسياً (190) كانوا بالمغرب، بعد أداء واجب فدائهم وهو مائة وواحد وتسعون ألفا وخمسمائة بياستر (191.500)، وتُقدَّر قيمتها بصرف اليوم بتسعمائة وسبعة وخمسين ألفا وخمسمائة ليرة (957.500)، وصكّ عقد الصلح النهائي بين الدولتين.

واتَّصلت المواصلة السياسية والتجارية بين المغرب وفرنسا بعد ذلك إلى أن حدث ما قطعها بعد احتلال الجزائر، وإنْ كان وقع فيها فتور في بعض الأحيان.

قال في «الاستقصا» :

«... في سنة ثمانين ومائة وألف (1767/1180)، انعقدت الشروط بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين جنس الفرنسيس، وهي عشرون شرطا، مضمنها ومرجعها إلى المهادنة والصلح والمخالطة للبيع والشراء، مع التوقير والاحترام من الجانبين. وإذا سافرت

مراكبهم من مراسيهم إلى إيالتنا، فتصحب معها الورقة المسماة بـ«الباسبورط» من عند أمير البحر المرتَّب بكل مرسى من مراسيهم، فيها اسم المركب ورئيسه، وبيان ما اشتمل عليه من الوسق، ومن أين جاء، وإلى أين يذهب، وعليه طابع أمير البحر، وهو طابع الجنس. وإذا سافرت مراكبنا من مراسينا إلى إيالتهم، فتصحب كذلك خطٌّ يد القنصل المرتب بمراسينا من ذلك الجنس، باسم المركب ورئيسه وما اشتمل عليه، مختوماً عليه بطابع الجنس أيضا».

وتعقَّب المؤلف ذلك بقوله : «وكان القياس أن مراكبهم تحمل طابعنا وخطَّنا ليحصل لها التوقير، كما نحمل طابعهم وخطَّهم ليحصل لنا التوقير منهم. ولكن لمَّا لم تجر العادة بترتيب قناصلنا بمراسيهم، اكتُفي بطابعهم من الجانبين، إذ المقصود حاصل بذلك، ولا يلتبس على رؤساء البحر طابع جنس بآخر إذا التقى مركب بمركب، وأخرج كلٌّ ورقته، عُرف من أيٍّ جنس هو وعومل على مقتضى ذلك.»

قلت : «هذا امتياز من جملة الامتيازات التي كان يحرص كلَّ الحرص عليها هؤلاء الأجانب، ويغتصبونها من الدول التي يستضعفونها، مهما وجدوا لذلك سبيلا، ويستغلُّونها في مصالحهم، ويجعلونها مبدأ تدخلهم في كل شيء من شؤون تلك الدولة. وقد شاهدنا ذلك وعلمناه وخبرناه وبلوناه حتى في أمور جزئية، أقل من هذه المسألة البحرية، التي كانت لها في ذلك الوقت أهمية، وما أدراك ماهية.

وقد أدرج النقيب أبو زيد ابن زيدان هذه المعاهدة بنصِّها وفصِّها في «إتحافه» من صحيفة 266 إلى صحيفة 273 من الجزء الثالث، فليرجع إليها من يهمُّه الوقوف عليها.

كما ذكرها أيضا بنصِّها، كنموذج للمعاهدات السياسية صاحب «الأنيس المفيد للطالب المستفيد»، و«جامع الشذور من منظوم ومنثور»، من صحيفة 168 إلى صحيفة 177.

هذا ما يتعلَّق بهذه السفارة وما نتج عنها من المسائل المتعلِّقة بالأسرى والقرصنة.

المبحث الثامن

سفارة الرئيس الطاهر بن عبد الحق فَنِّيش السلاوي
إلى فرنسا في مهمة تتعلق بالأسرى

التعريف بالرئيس الطاهر فَنِّيش

هذا السفير من أعيان الأسرة الفنِّيشية السلاوية القديمة، وسياتي الكلام عليها مفصَّلاً في فصول التعريف بمشاهير رؤساء البحر والقرصنة في عهد الدولة العلوية.

وهو ولد عبد الحق فنيش، القائد السلاوي المستبد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله في عهد خلافته ؛ وكان من الرؤساء المشهورين، والبحّارة البارزين، والطُبجية والرُّمَاة الماهرين، وله زُلفى وحسن مآب بعد النكْبة في عهد السلطان المذكور. ولذلك كان يكلِّفه بعدة قضايا مخزنية، ذات شان وأهمية، وولاّه النظر في المراكب البحرية السلاوية، ورياسة الرماة المدفعية، وحضر فتح الجديدة، وكانت له اليد الطُّولَى في إمطارها بوابل قنابل مدافعه ومهاريسه العتيدة.

وحيث كان بهذه المثابة عنده، إختاره لهذه السفارة، فقام بماموريته فيها على الوجه المطلوب منه.

ولمَّا استقلَّتْ أمريكا سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (1190/1776)، كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله من أول الملوك المعترفين بها.

وبعد مرور نحو عشرة أعوام على استقلالها، لم تكن لها فيها مواصلة مع المغرب، أسرت بعض السفن المغربية القرصانية سفينة أمريكية، سنة أربع وثمانين سبعمائة وألف (1199/1784)، فاضطرَّت أمريكا حينئذ إلى فتح باب المخابرة مع السلطان في عقد مهادنة

وصلح كغيرها من الدول الأخرى وانتذبت لذلك قنصلها العام بباريس طوماس باركلي (Thomas Barclay)، فوفد على السلطان في تاسع عشر يونيو سنة ست وثمانين وسبعمائة وألف (1200/1786)، واتّصل بأولي الأمر من رجال دولته، فقدّم للمخابرة معه قائده الطاهر فنيش، فعقد معه معاهدة سلمية تجارية لمدة خمسين سنة، تضمّنتْ كيفية معاملة الأساطيل الأمريكية والمغربية بعضها بعضا إذا التقت في البحر، أو التجأت إلى مرسى من مراسي الدولتين، وكيفية تسوية مسائل الأسرى بين الطرفين، وإلحاقها بالدول الممتازة، بتاريخ ثامن عشر رمضان عام مائتين وألف (18 رمضان 16/1200 يوليوز 1786)، وأمضاها باسمه نيابة عن السلطان، ورُفع الحجز عن السفينة المأسورة، وأطلق سراح الأسرى[36].

ولمّا ورد على الحضرة السلطانية في هذه السنة سفير السلطان عبد الحميد الأول صحبة السفير المغربي عبد الكريم العوني التطواني الذي كان بتركيا في شأن سلوك وُلاة الأمر بتونس والجزائر مسلك الأدب والاحترام مع سلطان المغرب فيما يكتب لهم به، ونزل بطنجة، أمر السلطان الحاج الطاهر فنيش هذا بمرافقته في طريقه منها إلى رباط الفتح حيث كان يقيم السلطان، وهو الذي تولّى تقديمه إليه في احتفال كبير، فصلّه الزياني في «الترجمانة الكبرى»[37].

ووجّهه مرتين سفيراً إلى تركيا.

– الأولى، صحبة هدية وجّهها إلى عبد الحميد الأول، وهي أربعة آلاف برميل من البارود، وفي كل برميل قنطار.

– والثانية، صحبة هدية أخرى، وهي أربعة مراكب قرصانية وغير ذلك... . ولذلك نوّه به في بعض مجالسه فقال : «لا أُوجّه القراصين الحربية للعثماني إلاّ مع الطاهر فَنِّيش[38].

ووجّهه في سفارة أخرى إلى مالطة لفداء بعض الأسرى مصحوباً بعشرين من الأسرى المسيحيين، فداءً لعشرين من أسرى المسلمين، فقام بما كُلّف به.

ولمّا تُوفي السلطان المولى اليزيد، رحمه الله، بمراكش في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة عام ستة ومائتين وألف (23 جمادى الآخرة 17/1206 فبراير 1792)، ودَعَا أخوه

---

36) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لكايي، ص 41-42.

37) «الترجمانة الكبري» للزياني، ص 84.

38) نفس المصدر، ص 132، و الاستقصا»، ص 117 من ج 4، طبع القاهرة.

المولى مسلمة لنفسه ببلاد الهبط والجبل، وانضمَّ إليه فنانشة سلا، وصاروا من شيعته، - وكان من جملتهم الطاهر فنيش هذا - فوّض إليه المخابرة مع إصبانيا في شأن حدود سبتة، والوسق من المراسي التي كانت إلى نظره، كتطوان وطنجة والعرائش ومسائل أخرى، كما يشهد لذلك كتابه إلى حاكم سبتة الإصباني، المنشور بالعدد الثاني من مجلة هيسبيريس تامودا (Hespéris Tamuda) الصادر سنة 1960 [39].

وبعد اختلال وانحلال أمر المولى مسلمة، واجتماع الكلمة بالمغرب على بيعة أخيه المولى سليمان، رجع إليه، وكان من جملة قواده وأعوانه، ولم يزل يتقلّب في الوظائف الحربية، البرية والبحرية، إلى أن مات مقتولاً في حركة الجيوش السلطانية السليمانية الموجّهة لتأديب بعض القبائل يوم الخميس خامس محرم عام خمسة عشر ومائتين وألف (5 محرم 29/1215 مايو 1800)، رحمه الله تعالى وعفا عنه[40].

مهمته في سفارته إلى فرنسا[41].

في ليلة السابع والعشرين من دجنبر سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف (27 دجنبر 4/1775 قعدة 1189)، غرقت سفينة تجارية فرنسية من سفن مرسى بريست قرب رأس بوكرور المقابل لناحية الساقية الحمراء وتمكّن رئيسها والعشرون من بحارتها الذين كانوا فيها من الوصول إلى الساحل والنجاة بأنفسهم، وفي الحين أسرهم سكان تلك الناحية، وباعوهم لبعضهم مرتين أو ثلاثة كما يباع العبيد.

وفي شهر أبريل من سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (أبريل 1777/ صفر 1190)، بلغ خبرهم لشينيي (Chénier) المكلف بالشؤون الفرنسية بالمغرب، وأنّهم في حالة سيئة بناحية وادي نون، فأرسل حينا إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، كتابا وأعلمه بالحادث، وطلب منه خلاصهم ممّا هم فيه من الأسر.

فوجّه السلطان رُسُله الذين له بهم الثقة الكاملة للسّعْي في خلاصهم. ولمّا وصلوا إلى محل أسرهم، بلغهم أن واحدا من أولائك الأسرى العشرين هلك، والباقون، يمكن تسليمهم، ولكن بعد أداء فدائهم، رعياً لحالة الاضطراب التي كانت بتلك الناحية في ذلك العهد.

---

39) ص 226.

40) ص 104 من تاريخ الضعيف، ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

41) كايي العدد 1 من مجلة «هيسبيريس تامودا» الصادر سنة 1960، من ص 56 إلى ص 58.

فأدّى السلطان ثمن فدائهم، ولم يقبل تعويضاً عنه، وإنّما طلب إطلاق سراح عددهم من الأسرى المسلمين المستعملين في المراكب والسُّفُن بمالطة، وطالت المخابرة بين نواب السلطان والمكلَّف بالشؤون السياسية الفرنسية بالمغرب بلا نتيجة ولا فائدة.

ثم اقتضى نظر السلطان أن يوجِّه سفيرا من قبَله إلي ملك فرنسا لويس السادس عشر ليسلم له أولائك الأسرى بدون واسطة ذلك المكلَّف، وعيَّن لهذه السفارة أحد خُدّامه وقُواده الطاهر فنيش السَّلاوي.

وكان إبحاره من طنجة في الحادي عشر من أكتوبر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (11 أكتوبر8/1777 رمضان 1191) قاصداً فرنسا ومعه الأسرى المذكورون وستة من عتاق الخيل كهدية للملك الفرنسي، ومرَّ في طريقه على جبل طارق، وكان وصوله إلى مرسيليا فاتح نونبر من السنة المذكورة (1نونبر/ 10 شوال).

وبمجرَّد وصوله أعلم كاتب الدولة في البحرية بمهمته التي جاء لأجلها، فاجتمع مجلس الشورى الملكي، واتَّفق على اعتباره مبعوثاً فقط تخفيفاً من الصوائر والنُّفقات عليه كسفير، مع الاعتراف شخصياً بسفارته.

وفارق السفير فنِّيش مرسيليا قاصداً باريس، فكان حلُوله بها صحبة ترجمانه الخاصٍّ ومن في معِيَته من الأشخاص يوم عاشر يناير سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (10 يناير 11/1778 حجة 1191)، ونزل بنزل تورس (Tours). وبعد ستة أيام من وصوله، توجًّه إلى ڤيرْسَايْ وأقام بها نحو الأسبوع.

وفي الثاني والعشرين من يناير (22 يناير/23 حجة)، إستقبله لويس السادس عشر في احتفال كبير، وسلَّم له الرسالة التي جاء بها من السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقدَّم له الهدية، ثمَّ استقبله الأمراء، وزار الوزراء وتعرَّف بهم.

وقد تضمَّنت هذه الرسالة الشكوى بالقنصل شينيي، وأنَّه أساء الأدب في المعاملة الملكية، وخصوصاً فيما يرجع لمسألة هؤلاء الأسرى، وأنَّ الفداء ينبغي أن يكون رأساً برأس، أو تعويضاً بقيمة محدودة، ويُعفى منه المرأة والصَّبي مثلاً، ونصها[42] :

---

42) «إتحاف أعلام الناس» للنقيب ابن زيدان، ص 274 وما بعدها من ج 3.

رسالة سيدي محمد بن عبد الله
إلى لويس السادس عشر.

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله علي العظيم، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى الصراط المستقيم.

(محمد بن عبد الله بن إسماعيل

الله وليُّه ومولاه)

من أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، عبد الله، المتوكل على الله، المعتصم بالله محمد بن عبد الله بن اسماعيل، اللّه وليُّه ومولاه.

إلى عظيم الفرنسيس، لويس السادس عشر من اسمه، السلام على من اتَّبع الهدى.

أمَّا بعد، فاعلمْ أنَّ سُفُنا من سفن الفرنسيس حرّثوا بِأَقْصَى إيالتنا المباركة في الصحراء، وتفرَّق جميع من سلَمَ من الغرق من النصارى في أيدي العرب، وحيث بلغنا ذلك، وجّهنا بعض خُدَّامنا للصحراء لجمع من في أيدي العرب من النصارى الفرنسيس لنوجِّههم إليكم بعد الإنعام عليهم، رَعْياً للمهادنة والصلح الذي بيننا وبينكم. ثمَّ إنَّ قنصوكم الذي بإيالتنا أساء الأدب، وكتب لنا أن نوجِّه له النصارى ويدفع الكاشطي الذي صيَّر عليهم خادمنا المذكور، فساءنا كلامه، لأنَّه لو أحسن الطلب، لأنعمنا بهم عليه، على تقدير أن لو كُنَّا معكم على الكَيرَّة، فأحرى ونحن معكم في الصُّلح والمهادنة، ولأجل ذلك وجَّهناهم لكم من حضرتنا العلية بالله، عددهم عشرون (كذا)، فهم يصلون منَّا لناحيتكم.

وقد وجَّهنا خديمنا القائد الطاهر فنِّيش باشادوراً معه أولائك النصارى، وليتكلَّم في أمر اقتضاه نظرنا السَّديد معكم، ومع جميع قُنْصوات أجناس النصارى الذين بإيالتكم، من المصالحين معنا وغيرهم على يدكم، وهو أنَّ كلَّ أسير أُسر بإيالتنا من النصارى أياً كانوا ففداؤه مسلم رأساً برأس، وإنْ لم يكن عندهم مسلمون فمائة ريال فداؤه لا غير. وكذلك إذا كان المسلمون أسارى عند النصارى، ففداء كل مسلم نَصْرَاني من جنسه إنْ وُجد وإنْ لم يوجد فمائة ريال فداء المسلم أيضا. وسواء في ذلك الغني والفقير والقوي والضعيف، لا فرق بينهم في الفداء، ولا يبقى الأسير في بلاد المسلمين ولا في بلاد النصارى عاما واحدا، والشيخ الهرم الذي بلغ السبعين، والمرأة كيفما كانت لا أسر فيهما، فحيث وُجد الشيخ الهرم والمرأة في سفن المسلمين أو النصارى فيسرَّحان في الحين من غير فداء. وهذا، إن شاء الله، رأي سديد ظهر لَنَا فيه صَلاَحُ الجانبين، أردنا أن يكون عقده على يدكم، وإنْ تمَّ ذلك على الوجه المذكور فوجِّهْ لنا كتابك بإبرام ذلك.

ويصلك كتاب مطبوع بطابعنا الشريف ومُعلَّم بخط يدنا الشريفة، مُضَمَّنُهُ أننا التزمنا جميع ما ذُكر في كتابنا هذا في شأن فكاك الأسرى من الجانبين على الوجه المذكور، إنْ تمَّ يبقى تحت يدك.

ويصلك ستة من الخيل من عتاق خيلنا صلة منّا إليكم، وخديمنا المذكور لا تبطؤوه عندكم، ووجِّهوه إلينا عزماً بعد قضاء الغرض الذي وجَّهناه إليه، ونحن معكم على المهادنة والصلح، وكل ما يقول لكم ثِقوا به فيه.

صدر به الأمر في مُهِلِّ شعبان عام واحد وتسعين ومائة وألف

(1 شعبان 1191/4 شتنبر 1777).

ثم رجع إلى باريس، وجرت مذاكرات مُتَعَدِّدَة بينه وبين موظَّف بمكتب القنصلية بمحضر كاتبه وترجمانه في مسألة كانت تهم فرنسا، وهي :

أنَّ السلطان خاطب لويس السادس عشر بعظيم الفرنسيس مع أنَّه يعتبر نفسه إمبراطور، ويجب أن يخاطب بهذا الوصف، وذكر أنَّ هذا الخطاب جرى به العمل في المكاتب السلطانية إلى ملوك فرنسا، منذ نحو القرن، وسبق التنبيه عليه مرارا، وينبغي الآن أن يُجْعل له حد ينتهي إليه.

وتمَّ الاتِّفاق بينه وبين كاتب الحكومة الفرنسية في البحرية في ثامن عشر يبراير من السنة (18 فبراير 20/1777 محرم 1192) على تحرير بروطوكول، أو اتفاق بأن يكون السلطان سيدي محمد بن عبد الله يُخاطِب لويس السادس عشر، بعظيم المسيحيين، وإمبراطور فرنسا، ويكون لويس السادس عشر يخاطبه بعظيم المسلمين وإمبراطور مراكش والمغرب.

وفي مدة إقامته بفرساي وباريس، وقع الاهتمام بشخصه، وأُقيمت له وعلى شرفه الحفلات والضيافات، واستدعي للحضور في المشاهد التمثيلية بالعاصمة الباريسية، وكانوا يجلسونه في الشرفات الملكية.

وبَارَحَ باريس مولّياً وجهه شَطْرَ بلاده، أواخر شهر يبراير من السنة (يبراير/محرم)، وأبحر من مرسى طولون (Toulon) في السادس عشر من مارس (16 مارس/16 صفر)، وبعد عشرة أيام وصل إلى طنجة، وكانت الهدية التي قدَّمها لويس السادس عشر للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، ولسفيره هذا وأتباعه تقدر قيمتها بمائة وإحدى وسبعين ألف ليرة (171.000)، وهذا القدر يساوي نحو ثمانية وستين مليونا من الفرنك (68.000.000) بصرف سنة تسع وخمسين وتسعمائة وألف (1378/1959).

ثم أدَّى مآل مُهمَّته إلى السلطان وما تنج عنها، وبذلك تمت سفارته.

المبحث التاسع

سفارة أبي عبد الله محمد بن عثمان إلى إصبانيا لفداء الأسرى[43]

التعريف بالسفير محمد بن عثمان.

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي دارا ومنشئا.

كان، رحمه الله، علامة، أديبا، شاعرا، ناثرا، نابغة من نوابغ عصره، ونبيلا من نبلاء مصره، تعاطى في أوائل شبابه الوعظ والارشاد، لمساجد بلده مكناسة الزيتون، في محل والده.

ولمّا لمع نجمه بين أقرانه، وامتاز بالتبريز في ميادين العلم والأدب علي أترابه وخِلاّنه، اختاره السلطان أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الله لسرد الكتب والكتابة بديوانه، ولم يزل يتصدّر في مقامات التصدير، لذكائه وتفوُّقه في الإنشاء والتحبير، مع بلاغة الأسلوب وحسن التعبير، فكان إذا وصف، شخّص الموصوف أجمل تشخيص وصوّره أحسن تصوير، وإذا اهتمّ بأمر جليل أو حقير، فكّر فيه أتمّ تفكير، ودبّره أقوم تدبير، شأن الخبير الناقد البصير.

---

43) المراجع :

- رحلة المترجم المسماة بـ«الاكسير» مع مقدمتها
- «إتحاف أعلام الناس» لابن زيدان، جزآن 3-4.
- «الإعلام» لابن ابراهيم المراكشي، ج 5.
- «الاستقصا» لأبي العباس الناصري، ج 4، طبع القاهرة. وج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.
- «تاريخ الضعيف» الجزآن 2-3 ، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.
- «تاريخ تطوان» لأبي عبد الله محمد داوود التطواني، الأجزاء 5-7-8-9.
- «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله» لكايي، ومراجعات أخرى في عدة مؤلفات أخرى.

ولذلك قدَّمه جلالة السلطان سيدي محمد بن عبد الله للقيام بالسفارة، ثم حلاَّه برتبة الوزارة، فجلّى فيهما ونجح في كِلْتَيْهما، ففاز برضاه وحظوته، وسار معدودا من أعيان رجال دولته، مقرَّبا من أفراد أسرته، ملازما لولده الأمير أبي الحسن المولى علي[44]، وله فيه أشعار رقيقة، وأمداح رائقة.

وأخذ عن السلطان المولى سليمان، وهو معدود من أكابر أشياخه الذين أخذ عنهم، ولازم مجالسه ودروسه القيمة العلمية.

ولمَّا رحل إلى المشرق، أخذ عن جماعة من الأعلام من تونس وبيت المقدس وبلاد الشام، ولقي بالحرمين الشريفين جملة وافرة من الأعيان، الذين كان لهم في ذلك الوقت شهرة وشان وأي شان، وخاطبهم بقصائد ورسائل من شعره ونثره، وأجابوه عنها بما يدلُّ على التنويه والإشادة بذكره.

وقد سجَّل له النقيب أبو زيد عبد الرحمان بن زيدان في «إتحاف أعلام الناس» قصائد ومُقطعات من شعره، وفواصل جمان من نثره، في المدح والنسيب والوصف، تدلُّ على رِقَّة طبعه. وبديع صنعه.

ويؤخذ من القطعة التي وصف بها القسطنطينية أنَّه كان يَقْتَدِي ويحتذي بابن الخطيب في مقاماته البلدانية، المتضمِّنة لمحاسن ومساوي المدن الأندلسية والمغربية.

هذا وقد كانت بينه وبين أبي القاسم الزياني منافسة، لأنه مشارك له في المعاصرة والسفارة وخطة الكتابة والاتصاف بالأدب، حسبما يُعلم ذلك من مراجعة «الترجمانة الكبرى» و«البستان» وغيرهما من مؤلفاته.

ولا غرابة في ذلك، لأنَّه الشأن في المتعاصرين من ذوي الرياسة والعلم والاتحاد في الخطة والأدب. ومع ذلك نوَّه به في «فهرسته» فقال :

ثم محمد بن عثمان الوزيرْ　　　أخذَ عن وفْر ومن دُرّ كثيرْ

والذي يوخذ من تتبُّع أخباره وتنقُّلاته واتِّصاله بالحوادث السياسية التي كانت رائجة في عصره بين الحكومة المغربية والدول الخارجية، كإصبانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وإنكلترا،

44) أرَّخ الضعيف، (ص 65 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا)، وفاته بيوم الاثنين 10 شوال عام 1197 (8 شتنبر 10/1783 شوال 1197)، وقال : «إنه دُفن بمقبرة الشرفاء مع جده مولاي عبد الله بفاس، وهو أكبر أولاد السلطان سيدي محمد بن عبد الله سِنّاً وعقلا ومسْكَنة وفقها وعلما ومروءة. ولاَ جرأة فيه ولا إداية لأحد، رحمه الله».

وتركيا، أنّه كان مكلّفا في وزارته في عهد الدولتين : المحمدية والسُليمانية، بمباشرة الشؤون الخارجية، ومعالجة المشاكل الدولية، وخصوصاً ما يتعلّق منها بالقرصنة والأسرى والحدود، وأنّ القناصل كانوا يتوجّهون إليه، ويتخابرون معه في شؤونهم السياسية، وأغراضهم الشخصية.

ولذلك عيّنه السلطان سيدي محمد بن عبد الله سفيراً بإصبانيا سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف (1779/1193)، فنجح في سفارته، وسفيرا إلى مالطة ونابولي (Napoli) في شأن فداء الأسرى سنة خمس وتسعين ومائة وألف (1780/1195)، كما سنبيّنه في ما سياتي.

ووجّهه إلى تركيا والحجاز سنة مائتين وألف (1786/1200)، إلى غير ذلك من المهمّات التي كانت تُسند إليه داخل المغرب وخارجه.

ولمّا رفع السلطان سيدي محمد بن عبد الله الحصار عن مدينة مليلية سنة ثمان وثمانين ومائة وألف (1775/1188)، وقوفاً مع منطوق صكّ الصلح المنعقد مع إصبانيا عام ثمانين ومائة وألف (1767/1180)، على يد الكاتب السفير أبي العباس أحمد الغزّال، كما تقدم، قدّمه للمخابرة مع إصبانيا في إعادة النظر في ذلك الصلح والوقوف عند حدوده.

أخبار سفارته بإصبانيا وما فداه من الأسرى

قال كايي في كتابه : «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» :[45] في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (1192/1778)، نظراً للتّقارب الحاصل بين إصبانيا والمغرب، وجّه السلطان سيدي محمد بن عبد الله محمد بن عثمان سفيرا إلى إصبانيا، فاتّفق بكل سهولة مع الوزير الكونط دوفلوريدا بلانكا (Le Comte de Florida Blanca) على معاهدة ثلاثين مايه سنة ثمانين وسبعمائة وألف (30 مايه 26/1780 جمادى الأولى 1194)، وأمضياها معاً، وجاء في طليعتها أن المقصود منها مراعاة مصالحهما التجارية ومن هو تابع لهما. وقد تضمّن الفصل الأخير من هذه المعاهدة[46] انضمام ملك صقلية إليها، وهو ولد ملك إصبانيا.

46) ص 38.

47) نفس المصدر، ص 39.

وفعلاً أمضى معه ابن عثمان معاهدة ثامن عشر أكتوبر سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وألف (18 أكتوبر 11/1782 قعدة 1196)، والتزم ما فيها.

وقد كانت المواصلة بين إصبانيا والمغرب، منذ ذلك العهد إلى وفاة السلطان محمد بن عبد الله، حسنة مرضية.

مهمة ابن عثمان في هذه السفارة(46).

قال ابن عثمان في «الإكسير في فكاك الأسير» : بعثني (يعني السلطان سيدي محمد بن عبد الله) أدام الله أيامه، ونصر أعلامه، للبلاد الإصبنيولية وإلى عظيمها، وأصحبني أدام الله سعادته، عشرة آلاف مثقال من سكته، ليأخذ كل أسير حظه من صلته، خلّد الله تعالى هذه الحسنة في صحائف أعماله، وبلّغه من فضله نتيجة آماله، ولآتيه بما تيسّر من أسارى المسلمين. فتوجّهت راجياً من الله تعالى أن يكون لنا خير معين، إنه ولي ذلك، والمانح لِمَا هنالك.

وسمّى رحلته «الإكسير في فكاك الأسير»، ثم قال :

وقد رأيت أن أُقيد ما أبصرته في وجهتي وأوْبتي من المدائن والحواضر، والقرى والمداشر وإنْ لم أكنْ من أهل هذا الميدان، ولا ممَّنْ له فيه جولان. لكنّني رَسَمْتُهُ لمن هو مثلي بالقصور معترفا، ولم يكن مستنكفا، ومستمداً من الله تعالى التوفيق، إلى سواء الطريق.

وهذه الرحلة تُعدُّ وثيقة تاريخية مطابقة للحقائق الوصفية، بالمملكة الإصبانية في عهده، كرحلتي السفيرين قبله : الغسّاني والغزّال.

مبارحة السفير لرباط الفتح.

بارح السفير ابن عثمان رباط الفتح حيث كان يقيم جلالة السلطان إذ ذاك في العشرين من شوال عام ثلاثة وتسعين ومائة وألف (20 شوال 31/1193 أكتوبر 1779)، ووصل إلى

46) أخبار هذه السفارة لخّصناها من رحلة ابن عثمان المسماة : «الإكسير في فكاك الأسير»، وهي أصدق ما يقال في الموضوع.

سبتة في رابع ذي القعدة (4 قعدة/13 نونبر) من السنة، ونزل مع المجاهدين بأشبار، وبعد إجراء العلامة المتّفق عليها بين المجاهدين وحامية سبتة، خرج إليهم ترجمان الحامية، وأخبروه بورود السفير من قِبَلِ السلطان إلى ملك الإصبان فأظهروا فرحا كبيرا بوروده، وحيَّتْه المدينة بطلقات مدافعها.

وبعد طلوع فجر الغد خرجوا لاستقباله مُظهرين زينتهم، وحاملين عدتهم وأسلحتهم، ودخلوا المدينة على تلك الهيئة، وأزقتها وسطوح دورها مشحونة بالرجال والنساء المتفرِّجين، إلى أن وصلوا إلى الدار التي أُعدَّت لنزوله، وهي من أحسن دورهم منسوبة لملكهم، وأعْفوهم من الحِجْر الصحّي (الكرانتينة)، رعياً لمقامهم لذا الجلالة السلطانية.

ثمَّ وصف مدينة سبتة وحصونها وتحصينها وصفا كاشفا، وما بقي فيها من الآثار الاسلامية.

وقال إنَّه وقف بها على رُخامة كانت على قبر الإمام الناصر لدين الله، الحمّودي الإدريسي، فرفعها ونظَّفها، وطلبها من الحاكم فضنَّ عليه بها أوّلاً، ثمَّ وعده ببعْثها له إلى طنجة.

وفي مدة إقامته بسبتة كان يتردَّد عليه الأسارى المسلمون الذين كانوا بها، وعددهم ثلاثة وعشرون، معلنين بنصر الجلالة السلطانية، فكان يأنس بهم ويسلّيهم، وطلبوا منه أن يُكلِّم ملك الإصبان في شأنهم فأجابهم بأنَّ أمير المؤمنين لا يغفل عنهم، وله غرض في إطلاق سراحهم وسراح غيرهم وأنَّه بصدد ذلك، فطابت نفوسهم واطمأنّوا إلى وعده، منتظرين الوفاء به.

مبارحة السفير سبتة وتوجهه إلى إصبانيا.

أقام ابن عثمان بسبتة سبعة وعشرين يوما، وبارحها فاتح ذي الحجة عام ثلاثة وتسعين ومائة وألف (1 ذي الحجة 10/1193 دجنبر 1779)، متوجّهاً إلى قادس في سفينة خاصّة وجهّها له ملك إصبانيا، فوصلها يوم الخامس من الشهر المذكور (5 حجة /15 دجنبر) وتلقّاه عند وصوله مستفهماً عن جنسيته أخ أحَدِ الوزراء الإصبانيين، وكان أسيرا عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فمنَّ عليه وأطلق سراحه بدون فداء.

وفي الغد نزل هو ومن معه إلى البرِّ وتلقّاهم حاكم البلد وموظفوها وأعيانها في احتفال كبير، وأنزلهم في دار خصَّصها لهم من أحسن دور المدينة، وأقيمت لهم بها احتفالات تكريماً لهم.

ثم بارح قادس يوم الثلاثاء ثاني عشر ذي الحجة من السنة المذكورة (12 حجة 1193/ 21 دجنبر 1779)، متوجِّهاً إلى مدريد عاصمة المملكة، مخترقا القرى والمنازل والمدن الصغرى والكبرى كإشبيلية وقرطبة، متتبِّعاً ما فيها من آثار بقايا الحضارة الإسلامية والأسر القديمة العربية، مهتمّاً بتقصّيها، والبحث عنها، وما بقي شاخصاً من معالمها، أو محفوظاً من أسمائها وأوصافها، ومفصحاً عن حالها الذي شاهده عليها، ومشخِّصاً الحالة الاجتماعية، والنظام الداخلي للأسرة الإصبانية وما كانت تمتاز به وقت مروره بها من التقدُّم في الميدان الصناعي والفلاحي، كما فعله السُّفراء الذين تقدَّموا قبله في رحلاتهم، كالغسّاني والغزّال، وربَّما تواطؤوا أو اتَّفقوا في بعض الأوصاف والملاحظات.

وفي كل هذه المدن والقرى، كانت تُقام لهم الضِّيافات والحفلات والمراقص، ويتلقّاهم الوُلاة والسُّكّان بالحفاوة والبشاشة والإكرام.

وصوله إلى مدريد ومقابلته مع الملك.

كان وصوله إلى مدريد عشية الأربعاء رابع المحرم فاتح عام أربعة وتسعين ومائة وألف (4 محرم 12/1194 يناير 1780)، ودخلها في احتفال كبير، اعتباراً لشخصيته وسفارته، ونزل بدار كبيرة قُرْب دار الملك، مفروشة بأنواع الفُرْش الرفيعة، والزرابي المبثوثة، والأسرَّة المُعدَّة لراحتهم مَكْسُوَة بأنواع الدّيباج المُحلّى بالذهب، وغير ذلك من الأواني الفضِّية النفيسة.

وبعد إقامته بمدريد اثني عشر يوما، توجَّه لمقابلة الملك شارل الثالث بقصر الباردو (Pardo) المعدود من منتزهات ملوك إصبانيا، فقابله مقابلة رسمية، وأظهر له غاية الاعتبار والترحيب، فسلَّم له الكتاب السلطاني الذي جاء به معه، فتقبَّله باحترام تام، وترجمه له ترجمانه الخاصّ، وقد تضمَّن تسريح الأسرى بإشارة لطيفة تضمَّنتها الصَّدقة المُوجَّهة إليهم من قِبَلِ جلالته، واختبار أحوالهم، مع أمور أخرى تتعلَّق بهم، فتلقّى ذلك بانقياد، وأخذ في تدبيره.

وأحاله فيما يرجع لمهمَّته على وزيره المختص بذلك ليُجري المخابرة معه، ثم قابل ولي العهد، والأسرة الملكية، وكلهم أظهروا له غاية الأدب والتعظيم والاحترام التّام.

زيارته للأسرى بمدينة شيقوبية (Ségovia)

لمّا طال مُقامه بمدريد، استأذن الملك في زيارة الأسرى الذين جاء لأجلهم، والوقوف على حالهم، وتوزيع ما أتى به من الصّدقة عليهم، فأذن له في ذلك وعيّن له عربة ملكية لركوبه.

وبَارَحَ مدريد يوم الأحد عاشر ربيع الثاني عام أربع وتسعين ومائة وألف (10 ربيع الثاني 15/1194 أبريل 1780) متوجّهاً إلى مدينة شيقوبية، حيث كان يقيم أولائك الأسرى بعيدين عن البحر خشْية فرارهم.

ولمّا حلّ بها، وجدهم معتقلين بالقصبة المسمّاة بالقصر، وجاءه حاكمها المكلّف بهم، واتّفق معه على تعيين وقت زيارتهم، ثمّ توجّه صحبته إليهم فوجدهم بأعلى القصبة، وفتح له بابها، وأخرجهم إليه، فسلّم عليهم وسلّموا عليه، وأعلنوا بالدعاء للجلالة الشريفة، حتّى ارتجّت القصبة من أصواتهم، ثمّ دخل صحبتهم إلى مواضعهم، وقضى معهم زمناً تَطْييباً لخاطرهم، ودفع لكل واحد منهم حظّه من الصّدقة المولوية، فناله خمسة مثاقيل، وبشّرهم بأنّ جلالة السلطان مجتهد في إنقاذهم، وحريص على فدائهم، وأنّه كلّم الملك في شأنهم، وردّ الأمر إلى الجلالة السلطانية، وستتكلّم مع صاحب الجزائر في فدائهم لأنّهم من الجزائر، وعن قريب ستاتيهم البشائر، فسُرّوا بذلك كثيرا، وأوصاهم بالاستعانة بالصّبر والصّلاة والإقبال على الطاعات وانتظار ساعة الفرج.

ولاحظ أنّ الملك الإصباني يُحسن معاملتهم، ولا يكلّفهم بعمل شاق، مع الكفاية في المأكل والملبس، إلاّ أنه مشدد عليهم في الحراسة وعدم الخروج، وأوصى المتولّي أمرهم وأمر القصبة بمزيد الإحسان إليهم، حتّى يجعل الله لهم سبيلا، وذكر له أنّه عمّا قريب سياتي الأمر بإطلاق سراحهم، وأخذ عليه المواثيق بذلك، ثم انصرف عنهم بعد وداعهم، وقد جرت من عينيه العبرات، وتصاعدت من صدره الزفرات.

ولمّا رجع إلى مدريد واستقبله الملك مرة أخرى بأرانخويث (Aranjuez)، وكلّمه في أولائك الأسرى، أجابه بأنّهم جزائريون وعنده كثير منهم وأنّه يحتفظ بهم ليفدي بهم أسراه الذين بالجزائر. ولكنّه اعتناءً به وبجلالة السلطان الذي وجّهه إليه، وإنْ كان خلافاً للعادة، أمر بإطلاق سراح اثنين منهم هدية له مَنّاً بدون فداء، وفي الحين بعث من يأتي بهما إليه، وتعجّب أهل ديوانه من ذلك، وبمجرّد وصولهما سلّمهما إليه، ثمّ أوصاه خيراً بمن بقي منهم في الأسر.

الاتفاق على تجديد المعاهدة الصلحية وتحريرها وإمضائها.

وفي مدة إقامته بمدريد، كلّمه الوزير على لسان ملكه راغباً منه أن يتوسّط له لدى جلالة السلطان في تجديد عقد الصلح والمهادنة التي تقدّم عقدها قبل ذلك بنحو أربع عشرة سنة، يعني على يد السفير الغزّال لأنّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان حاصر مليلية وضيّق عليها، وخرّبها بقنابله، كما تقدّم عند الكلام على سفارة الغزّال. وبسبب ذلك حصل فُتور في المواصلة السياسية بين إصبانيا والمغرب.

فكتب ابن عثمان إلى السلطان معلماً له بما طلبه منه ملك إصبانيا بواسطة وزيره، فأجابه بالقبول، وأمره أن يتّفق معه على الشروط التي يريد تجديد عقد الصلح بمقتضاها، ويصحبها معه لتقع المصادقة عليها.

فأعلم الوزير بذلك وبمجرّد إعلامه قدّم له مشروع الصلح الذي يريده ملك إصبانيا. وجعله شاملا له ولولده ملك نابولي. فتصفّحه وحرّره بزيادة ما رآه صوابا، وحذْف ما لا يجوز شرعا، واتّفقا معاً على نصوصه وفصوله، وأمضياه بتاريخ يوم ثلاثين مايو سنة ثمانين وسبعمائة وألف (30 مايو 26/1780 جمادى الأولى 1194). وصكّ هذا الصلح بامضاء ابن عثمان والوزير الإصباني الكونط دو فلوريدا بْلاَنْكَا مدرج بنصّه في : «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لكايي(47).

وقد صادق السلطان سيدي محمد بن عبد الله على هذا الصلح بكتابه الذي وجهه لملك إصبانيا بتاريخ خامس وعشري دجنبر سنة ثمانين وسبعمائة وألف (25 دجنبر 26/1780 حجة 1194)(48).

استقبال الملك لابن عثمان ووداعه معه.

كان استقبال الملك للسفير ابن عثمان بقصد وداعه في الساعة الحادية عشرة من يوم الجمعة ثامن وعشري جمادى الأولى عام أربعة وتسعين ومائة وألف (28 جمادى الأولى 1194/ 2 يونيو 1780) بأرانخويث، وصَرَّحَ له أثناء مذاكرته معه أنّه يريد أن يكون دائماً على صلح وهدنة مستمرة مع جلالة السلطان هو وولده ملك نابولي، فأجابه ابن عثمان بأنّ السلطان لا يفعل معه إلاّ الخير، واستقبله بعد ذلك ولي العهد، وباقي الأسرة المالكة.

47) ص 233 وما بعدها.

48) ص 237 من «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية».

وفي يوم الأحد متم جمادى الأولى (4 يونيو)، زاره الوزير زيارة خاصَّة وسلَّم له جواب الملك للجلالة السلطانية ومعه صكّ الصلح المتفق عليه، وعدد من كتب المسلمين، وقال له : إنَّ ملكه بلغه أنَّه لمَّا كان بالإسكوريال، واطَّلع على كتب المسلمين المحفوظة بها تشوَّف إليها، وحيث إنَّه لم يمكنه إخراجها منه لأنَّها محبسة عليه، فقد بحث في إيالته عن هذه الكتب حتى عُثر عليها، وها هو يقدِّمها لك هدية، ولوْ أمكنه غير ذلك لبادر إليه، فسُرَّ به سرورا عظيما، ثم ودَّعه وانصرف. ولكن ابن عثمان لم يذكر لنا أسماء هذه الكتب ولا نوعها، كما فعل الغزّال قبله.

توجه ابن عثمان إلى طُليطلة (Tolédo) وقَرْطاجَنَّة (Cartagéna) لرؤية الأسرى والتوسط في إطلاق سراحهم.

في منتصف ليلة الإثنين فاتح جُمادى الآخرة (1 جمادى الآخرة /5 يونيه)، بارح ابن عثمان أرانخويث قاصدا طُليطلة ومنها إلى قرطاجنة لرؤية الأسارى المسلمين الذين بها والتوسُّط في إطلاق سراحهم.

ولمَّا وصل إلى طليطلة زار مسجدها الأثري الإسلامي ووصفه، وذكر أنَّه لمَّا مرَّ في بعض أزقَّة المدينة رأى كنيسة كبيرة علِّق على جدرانها الخارجية سلاسل وأغلال وقيود كثيرة، فسأل عنها، فأخبره حاكم البلد بأنها السلاسل والأغلال والقيود التي كان المسلمون يجعلونها في أعناق وأرجل الأسارى النصارى، لمَّا كانت طليطلة مدينة إسلامية، حافظوا عليها وأبقوْها بهذه الكنيسة تذكارا لِمَا مضى.

الأسرى الجزائريون بقرطاجنة وإطلاق سراحهم.

تابع ابن عثمان رحلته من طليطلة إلى أن وصل مدينة قرطاجنة، فتلقَّاه حاكمها وسكَّانها في احتفال ومهرجان كبير كغيرهم من أهل المدن الإصبانية التي زارها أو مرَّ بها.

وبمجرَّد استقراره واستراحته، كلَّم الحاكم فيما جاء لأجله، وطلب منه رؤية الأسرى الذين إلى نظره.

ومن الغد توجّه لزيارتهم بأوراش الخدمة بالمرسى، وأحضرهم إليه هاتفين بالدعاء لجلالة السلطان، وهم في حالة سيئة من التعاسة والضنّى والتعب والعَنَى، تُدمي القلوب، وتنشقّ لها الجيوب، فأخذته لمنظرهم حسرة، وجرت من عينه عبْرة، وسلاّهم، وأخبرهم بأنّه تكلّم مع ملك إصبانيا في شأنهم، وأنّ جلالة السلطان ساعٍ في إنقاذهم في القريب العاجل، ووزّع عليهم الصلّة المولوية توْسعة عليهم، ومُواساة لهم.

ثم تقدّم الحاكم وميّز ثلاثين أسيرا، وقدّمهم له قائلا : هؤلاء أمر الملك بإطلاق سراحهم بدون فداء، هدية لجلالة السلطان، ونزع عنهم السلاسل والأغلال التي كانت عليهم، وسلّمهم له، ومن ذلك الحين، أصبحوا أحراراً يملكون أمر أنفسهم وحريتهم.

ولمّا رأى حالة الباقين وما هم فيه من الضيْم والضيْق والألم وانقطاع الرّجاء من والي الجزائر وانصراف وِجْهَتِهم وتعلّق آمالهم بجلالة السلطان، وجّه رسالة عاجلة للوزير الإصباني الأعظم، وأخبره بما رأى وشاهد من تعاستهم وشقائهم والتجائهم إلى جلالة السلطان، وأنّه لا يمكنه إهمالهم أو غَضّ الطرف عنهم وعدم سماع شكايتهم، وطلب منه أن يُعَرّف الملك بذلك، ولا يكبر عليه شيء في جانب ما يُكنّه من الإجلال والتعظيم لجلالة السلطان.

وبعد أيام، ورد عليه الجواب بصدور الأمر لحاكم قرطاجنّة بإطلاق سراح كل من أراد إطلاق سراحه منهم، ولولا أنّه عنده أسرى إصبانيين بالجزائر يريد فِدَاءَهُمْ لسرّح له الجميع.

وتنفيذاً لهذه الأوامر، أطلق ابن عثمان سراح اثنين وتسعين أسيراً جزائرياً زيادة على الثلاثين الأولين، فصار جميع المُحرّرين اثنين وعشرين ومائة أسير (122)، تخيّر منهم الصِّبْيان الذين يخشى عليهم من الفتنة في الدين والشيوخ العاجزين، وذوي الأعذار، ومن طال مَكْثه في الأسْرِ أكثر من ثلاثين سنة، وسجّل هذا العمل المبرور في صحائف حسنات جلالة السلطان المنصور، ثم اكترى لهم مركبا ووجّههم إلى سبتة إلى أنْ يلحق بهم.

ثم قال : هذا، وقد كان جلالة السلطان غيْر غافل عن أسرى الجزائر، عاملاً جهده في خلاصهم، حتّى سرّح منهم بسعيه المشكور، وعمله المبرور، زهاء الألفين، في دفعات، تقبّل الله منه ذلك.

وذكر أنّه (أي جلالة السلطان) كان منذ نحو أربع عشرة سنة (يعني منذ سفارة الغزّال) كلّم ملك الإصبان في شأنهم وفدائهم بالأسرى الإصبانيين الذين بالجزائر، ففوّض إليه الأمر في ذلك، وكلّم صاحب الجزائر في شأنهم، وأعلم ملك الإصبان بوساطته، فحمل أسرى المسلمين الذين كانوا عنده في المراكب، ووجّههم للجزائر بقصد الفداء، فَفَدى صاحب

الجزائر الترك أبناء جنسه، وامتنع من فداء العرب، وفدى من بقي عنده من الأسرى الإصبانيين بالمال، وأبْقى الأسرى المسلمين العرب في أسْرِهِمْ.

وهنا تفجَّر قلم ابن عثمان بالنَّكير والتَّشنيع على صاحب الجزائر، مستشهداً بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، الواردة في التَّرغيب في فكاك الأسرى ووضع إِصْرِ الأسر عنهم...

وقد اضْطرَّ إلى الإقامة بقرطاجنَّة عشرين يوماً لمباشرة هذه المسألة المهمَّة حتَّى أتمَّها، وادّخر ثوابها عِنْدَ الله.

مبارحة ابن عثمان لإصبانيا ورجوعه إلى المغرب

بارح ابن عثمان قرطاجنَّة، وتوجَّه إلى غرناطة، فزارها ووقف على الآثار الإسلامية النَّصْرية الباقية فيها، ومنها توجَّه إلى طريفة، فوجد مركبا خاصّاً مُهيئاً له في انتظاره، فأبحر منها إلى سبتة، وَوَصلَها بعد ساعة ونصف، وتلقّاه حاكمها باحتفال واعتناء كبير، ونزل بالدار التي كان نازلا بها أوَّل مرَّة وسلم له حاكم سبتة كتابا من جلالة السلطان يأمره فيه بالإقامة بسبتة وإعلامه بوصوله، فأقام بها وأعلمه. وبعد ذلك وردت عليه رسائل أخرى تتضمَّن قضاء عدة مآرب سلطانية مهمَّة فقضاها، وطال مُقامه بسبتة بسبب ذلك ستة وثلاثين يوما.

وفي أثناء إقامته، سلَّم له حاكم سبتة الرخامة المكتوبة التي كانت على قبر الأمير علي ابن حمّود الادريسي بأمر من سلطانه، لأنَّه كان طلبها منه وأصحبها معه إلى تطوان، ونُصبت في جدار البلاط الأول من صحْن المسجد عن يمين المستقبل. قيل : ولا وجود لها الآن. قلت : لعلَّ الإصبان استرجعوها لمَّا احتلّوا تطوان في حرب عام ستة وسبعين ومائتين وألف (1860/1276). ثم طلب من الحاكم أن يُسلِّم له الثلاثة والعشرين أسيراً مسلماً الذين كانوا بسبتةُ، ووعدهم بالخلاص، وكلَّم ملك الإصبان في شأنهم، فأنعم بهم عليه، فتسلَّمهم منه، وأضافهم إلى الأسرى الذين جاء بهم من إصبانيا، فصار عدد الجميع مائتين وخمسة وثلاثين أسيراً مسرحاً. (235.)

وفي ثالث رمضان من عام أربع وتسعين ومائة وألف (3 رمضان 2/1194 شتنبر 1780)، وَرَدَ عليه الأمر السلطاني بالقُدُومِ لحضرته وإصْحَابِ الأسرى الممنون عليهم بإطلاق سراحهم.

فبارح سبتة في اليوم السادس من رمضان (6 رمضان 5/1194 شتنبر 1780)، في احتفال ومهرجان كبير، والتحق بمعسكر المسلمين المرابط حولها بالمحل المعروف الآن بالفُنيدق، فتلقّوْه باحتفال آخر، أعظم وأكبر. وكان الأسارى يمشون في الأرض مرحا، ويعدون طربا وفرحا، حامدين شاكرين، ووجد الخيول السلطانية التي سترافقه في طريقه في انتظاره.

ثم انتقل إلى تطوان، ودخلها ومن معه من الأسرى دخولا تحدث الناس به دَهْراً، لما تجلّى فيه من الفرح والابتهاج. وأقام بتطوان ستة أيام ثم بارحها يطوي المراحل إلى أن وصل إلى المحلة السلطانية، وهي مخيمة بناحية المجاز بظاهر سلا.

وكان يوم استقبال جلالة السلطان له يوما مشهودا، ومن جملة أعياد الأمة المغربية معدودا، فقابله راكبا على فرسه، تحفُّ به عساكره وجنوده المظفَّرة، وتقدَّم إليه بالأسرى الذين معه حاملين على رؤوسهم الكتب الإسلامية المسترجعة، ومن جملتها المصاحف الكريمة، وارتفعت أصوات الجميع بالدعاء لجلالته، ثم نزل عن فرسه، وسجد شكرا لله تعالى على ما أنعم عليه به من العزّ والنّصر والصّولة وخلاص أولائك المسلمين من الأسر الطويل والعذاب المهين الذي كان محيقاً بهم وملازماً لهم، ووقف معهم، وسألهم عن قبائلهم وعشائرهم، وهَنَّأَهُمْ بجمع شملهم مع غيرهم من المسلمين، وأمرهم بحمد الله وشكره على ذلك، وقال لهم : أنتم في ضيافتنا حتى نوجِّهكم إلى أُناسكم ومساقط رؤوسكم، وصادف ذلك يوم ليلة القدر، السادس والعشرين من رمضان عام أربعة وتسعين ومائة وألف (26 رمضان 25/1942 شتنبر 1780).

وبعد عيد الفطر بيومين، أحضرهم لديْه، واستعرضهم أمامه، ووصل كلَّ فرد منهم بصلة، على قدر حاجته وفاقته، وضعفه وقوته، وباشر ذلك بيده بالعدِّ والحساب، رغبة في الأجر وجزيل الثواب.

ثم أمر السفير ابن عثمان أن يتمِّم سفارته بمرافقتهم إلى فاس، ويعيِّن لهم المراكب الكافية لركوبهم إلى تلمسان، ومنها يلتحق كل واحد منهم ببلده أو قبيلته بالقطر الجزائري.

فتوجَّه معهم ونَفَّذَ الأوامر السلطانية الصّادرة إليه في شأنهم، وقام بجميع شؤونهم، وودَّعهم فرحين بما أنعم الله به عليهم، ثم انقلب راجعاً إلى موجِّهه بعد قضاء مأموريته، وبذلك انتهت سفارته الناجحة، ولله تعالى مزيد الشكر والمنَّة.

المبحث العاشر

جزيرة مالطة كانت عشّاً للقراصنة

تعدُّ جزيرة مالطة بحُكْم موقعها الجغرافي بالبحر الأبيض المتوسط، ما بين صقلية وإفريقية، عشّاً للقراصنة منذ القرون الأولى، سواء قبل أن تغمرها أمواج الفتوح الإسلامية أو بعد ذلك، حتى عبّر عنها بعض الجغرافيين لمَّا تكلَّم عن عمرانها بأنَّ سكانها لصوص البحر (Pirates).

ولمَّا تولّى حكمها فرسان رودس (Rhodes) سنة ثمان عشرة وخمسمائة وألف (924/1518)، واشتهروا باللصوصية البحرية ونهب الأموال، وأسر السفن، واسترقاق الأحرار، والاشْتطاط في فدائهم، بلغ عدد الأسرى المسلمين فيها – في بعض الأوقات – نحو عشرة آلاف أسير.

وكانت بين المالطيين والتونسيين حروب بحرية شديدة في القرن السابع عشر للميلاد (الحادي عشر الهجري)، لأنهم كانوا يشنّون الغارة على السواحل التونسية في كل وقت وحين لقربهم منها، حتّى اضطرّت تونس أنْ تؤدي لهم ولصقلية جزية سنوية، اتقاء لشرِّهم وقرصنتهم[49].

وكانت في ذلك العهد مُكتظَّة بالأسرى المسلمين من إفريقية الشمالية كلها، وتركيا، وغيرها من الممالك الأخرى التي على ضفاف البحر المذكور، لاستفحال القرصنة وتدفُّق سيلها على تلك الممالك كلها، حتى كان ملوكها وأمراؤها يستدْعون الأساطيل المغربية للاستعانة بها، وحماية حماها.

---

51) «الواسطة في أخبار مالطة» لأحمد فارس الشدياق، ص 9-13، طبع القسطنطينية، سنة 1299/1881.

واستـمـرَّ الحـال على ذلك إلى أنْ استـولى عليـهـا نـابُليـون الأول سنـة ثمـان وتسـعـين وسبعمائة وألف (1212/1798-1213)، فوجد فيها عُدّة وسلاحا كثيرا، وأربعة آلاف وخمسمائة أسير فأطلق سراحهم(50).

وبعـد سـقـوطه وانعـقـاد مـؤتمـر ڤـيـيـنـا (Vienne) سـنـة أربع عشـر وثمـانمـائة وألف (1230/1814)، كان من جملة ما دُرس فيه ما طلبه المالطيون من إعطائهم قاعدة بحرية في البحر الأبيض المتوسط، يستأنفون منها أعمال قرصنتهم ضدّ قراصنة الممالك الإسلامية التي على سواحله.(51).

وفي عهد القرصنة السلاوية الرباطية، كانت تعجّ بالأسرى عجّاً، وتموج موْجاً، وكلهم أُسروا أو اختطفوا من المدن والمراسي الساحلية، والقرى والمداشر والقبائل الداخلية بافريقية الشمالية، ولاسيما في عهد استفحال الاحتلال الإصباني البرتقالي، وكانت أسواقها حافلة ببيع الرقيق من الأسرى المسلمين، وهم في حالة يرثى لها ممّا مسّهم من العذاب المُهين، حتى كان الناس يدْعون على من سخطوه بقولهم : «إذهبْ إلى مالطة، تباع فيها ولا تعطى»، أي لا تفدى حسب ما تقدمت الإشارة إليه.

بعث أبي عبد الله الحافي إلى مالطة لإحصاء الأسرى وفدائهم.

التعريف بأبي عبد الله الحافي السلاوي.

لمّا كانت جزيرة مالطة بهذه الحالة التي وصفناها بها في الفصل السابق، فقد اهتمّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله بفداء من كان فيها من الأسارى المسلمين، كما اهتمّ بغيرهم ممّن كان منهم بإصبانيا وفرنسا وغيرهما من دول أوروبّا.

فوجّه إليها كاتبه أبا عبد الله محمد الحافي السلاوي، وهو من أسرة آل الحافي السلاوية التي تقدّم فيها العلم والرياسة ؛ ويقال إن أصلها من الحوافة بقبيلة السراغنة.

50) «المغرب في بداية العصور الحديثة» لصلاح العقّاد، ص 73.

51) نفس المصدر، ص 101.

وقد كان هذا المبعوث تولّى عمالة سلا بعد الفنانشة، كما تولاّها من هذه الأسرة أيضا، في العهد السليماني، القائد عبد اللطيف الحافي.

وأخُ هذا المبعوث هو أبو العباس أحمد بن عاشر بن عبد الرحمان الحافي، العلامة الجليل. وله مؤلفات منها «فهرسة شيوخه وعلماء عصره في القرن الثاني عشر الهجري» (الثامن عشر الميلادي) و«تحفة الزائر في مناقب الشيخ أبي العباس بن عاشر»[52]، وغير ذلك.

وقد انقرضت هذه الأسرة من سلا في عهدنا هذا، وبقي فرد من أفرادها برباط الفتح.

مهمة أبي عبد الله الحافي بمالطة.

كانت مهمة هذا المبعوث، كما عند النقيب أبي زيد ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس»[53] هي إحصاء الأسارى الأتراك الذين كانوا بها وفداؤهم.

ولمّا قَدمها، وباشر عمله بها، بقي محصورا فيها وثيقة ورهْناً في مال بعض المالطيين الذين كانت لهم بعض الدّعاوي بالحضرة السلطانية[54].

وذكر أبو القاسم الزياني في «الترجمانة الكبرى» أن المالطيين أنكروا الفداء، وردّوا المال، وقدره مائتان وأربعة وسبعون ألف ريال دورو (274.000)، فوجّهه السلطان بعد ذلك إلى السلطان عبد الحميد الأول، صحبة الحافي المذكور والقائدين علاّل الدراوي وقدور البَرْنوصي، وأمرهم أن يُبلّغوه بأنّه مال أخرجه لفكاك الأسرى المسلمين، وحيث ردّه الكُفّار، ولم يتيسّر الفداء، لا يرجع إليه، فلْينفقْه في فداء أسرى آخرين، أو في الجهاد، أو فيما يظهر له.[55]

وبعد مُضيٍّ نحو السنة على هذه القضية، عيّن السلطان سفارة خاصّة لهذه الجزيرة المالطية، وهي سفارة كاتبه ووزيره أبي عبد الله ابن عثمان.

52) «اتحاف أشراف الملا»، ص 70-71.
و«الإتحاف الوجيز» لابن علي الدكالي السلاوي، ص 112، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.
53) ص 320 من ج 3.
54) ص 83 .
55) «إتحاف أعلام الناس»،لابن زيدان، ص 300 من ج 3.

المبحث الحادي عشر

سفارة ابن عثمان إلى مالطة لفداء الأسرى.

لمَّا كانت مسألة فداء الأسرى المسلمين بهذه الجزيرة المالطية عويصة جدّاً، إِنْتَدَبَ لها السلطان سيدي محمد بن عبد الله كاتبه ووزيره أبا عبد الله محمد بن عثمان لنجاحه في سفارته بإصبانيا .

وعيَّن معه في هذه السفارة أربعة من أعيان دولته، اثنان منهم من علماء تطوان.

– أولهما : العلامة، المدرس، السيد عبد الكريم بن قرّيش الذي كان متوليا خطة القضاء مدة بتطوان، وهو من تلامذة الشيخ أبي العباس ابن عجيبة ؛ ويُحْكى عنه أنَّه كان شجاعا عارفا بالضرب بالسيف والمدفع.

وبعد انتهاء مُهمَّته بهذه السفارة، توجَّه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فأدركته منيته، وتوفي هنالك سنة سبع وتسعين ومائة وألف (1197-1783)، رحمه الله تعالى.

– وثانيهما : السيد التهامي البنّاني؛ وكان من المدرسين والعُدول المشهورين بتطوان، وقد ترجم له ولرفيقه معاً أبو محمد سكيرج[56].

– وأحد علماء سلا، أبو عبد الله محمد المير السلاوي ، وكان من العلماء المحقِّقين الملازمين للحضرة السلطانية في أكثر الأوقات ؛ ووصفه في «الاستقصا» بالمهارة والمشاركة والخطِّ الحسن، ورافق السلطان سيدي محمد بن عبد الله في رحلته إلى

56) «تاريخ تطوان» لابي عبد الله محمد داوود، ص 97 من ج 7.

الصويرة، وكان من جملة العلماء الذين كان يملي عليهم الحديث النبوي، ويؤلفونه على مقتضى إشارته.

وكانت وفاته، رحمه الله، في ثامن ربيع الثاني عام أربعة عشر ومائتين وألف (8 ربيع الثاني 9/1214 شتنبر 1799)[57].

– والسيد الطيب ابن جلون الفاسي ؛ والظاهر أنه كان من الملحوظين والمحظوظين المُقرَّبين من الحضرة السلطانية.

وفي هذه السفارة ألَّف ابن عثمان رحلته المسماة : «البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسرى مِنْ يد العدو الكافر»، فرغ من تأليفها بعد تلف مبيضتها على يد اللصوص، أوائل جمادى الآخرة عام سبع وتسعين ومائة وألف (جمادى الأخرة 1197/مايه 1782). وهي التي تضمَّنت أخبار هذه السفارة، ونقلها لنا المؤرخ أبو زيد، المولى عبد الرحمان بن زيدان في «تاريخه» من النسخة المحفوظة بخزانته فقال :[58]

وأصحبهم (أي ابن عثمان ومن عُيّن معه) ما ينيف على ستة وثمانين ألف ريال، (86.000) لصرفها في فداء الأسرى، ويُبتدأ بالنساء والصبيان والشيوخ وذوي الأعذار، ثمَّ غيرهم من الرجال، وأمرهم بالمكث هناك حتى ترد عليهم خمسة مراكب جهادية يركب الأسارى في أربعة منها والمركب الكبير تتوجَّه عليه السفارة من ثمَّ إلى نابولي (Napoli)، لعقد الصلح مع مملكتها وفداء الأسارى الذين بها.

فسافروا من حضرته، حَمْراء مراكش، في ثاني ذي الحجة متم سنة خمس وتسعين ومائة وألف (2 ذي الحجة 16/1195 دجنبر 1780)، إلى طنجة فمكثوا بها اثنين وعشرين يوما في انتظار الريح المساعد لركوب البحر.

وفي سابع ربيع النبوي سنة ست وتسعين ومائة وألف (7 ربيع النبوي 20/1196 يبراير 1781)، ركبوا في مركب حربي بعثه ملك الإصبان لإبحار السفارة عليه، لمَّا سمع أنها تريد التوجُّه لقادس لكراء مركب لمالطة وقد وجدوه هناك، فبقي معهم في الانتظار وحيَّاهم بعد الركوب بإطلاق المدافع.

57) «الاستقصا»، ص 139 من ج 4 ، طبع القاهرة. وص 138 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.
58) ص 320 وما بعدها من ج 3.

ثم سار بهم إلى قادس، فتلقّاهم بعد الوصول كبير المراكب الحربية وأخبرهم بأنَّه مأمور بتنفيذ ما يريدون من المراكب لهم، وتوارد عليهم الرؤساء ليلاً للسلام عليهم، ومن الغد عند النزول، أخرجت المراكب مدافعها جواباً لمدافع مركب السفارة، وذهبوا في احتفال بحري للبر، ولمّا وصلوه حيَّتهم أبراج المدينة بمدافعها، ثم توجَّهوا للمحل الذي أُعدَّ لنزولهم، واقتبلوا حاكم المدينة وأعيانها، وكتبوا لملك الإصبان يشكرونه على ما لقوا من رعيته ورجاله، ويخبرونه أنَّهم سيتوجَّهون إلى ولده صاحب نابولي بعد قضاء الغرض من مالطة.

وأرادت السفارة أن تتولَّى الإنفاق على نفسها، فأبى عليها حاكم المدينة.

ثمَّ جاء جواب الملك للسفارة مُرحِّبا، وكتب للحاكم بقضاء جميع مآربها وتحذيره من التقصير، ممَّا جعل الحاكم يعتذر لها عن أن يكون صدر منه شيء ممَّا ذُكر، وقد بلغت نفقاتها مدة ستة وعشرين يوماً قضتها بين ظهرانهم ألفي ريال وأربعين ريالا كبيرا.

وفي خامس ربيع الثاني (5 ربيع الثاني /20 مارس)، ركبوا البحر، ولمَّا صعدوا إلى المركب حيَّتهم المدافع، ومن الغد صار بهم، إلاَّ أنَّ اضطراب البحر اضطرَّهم إلى الرجوع للمرسى، فمكثوا بها ثلاثة أيام ثم سافروا إلى مالطة، فوصلوها بعد معاناة أهوال البحر وشدائده في اثنين وعشرين يوماً من يوم خروجهم الأول من قادس، ومكثوا في المرسى سبعة عشر يوماً في الحِجْر الصِّحِّي، وبعث لهم صاحب الجزيرة يخبرهم بإسقاط ثلاثة أيام من الحِجر عنهم، لأنَّ مدته كانت عشرين يوما، وحُملت أمتعتهم، ونزلوا من المركب وحيَّتهم المدافع، وتُلقّوا في البر بالأكْداش لركوبهم، وفي طريقهم التقوا بصاحب الجزيرة ماراً في طريقه فحيَّوه بالإشارة، وصاروا للمحل الذي أُعدَّ لِنُزُولِهِمْ دون إجراء نفقة عليهم، لأنَّ السفير الحافي كان لا يزال مقيما بالجزيرة، فكأنهم لا يستطيعون الإنفاق على السفارتين. وكان المحلُّ دارا كبيرة فيها نحو السبعين قُبَّة، أحاطت بها طائفة من الجنود لأداء واجب التعظيم.

وبعد ثلاثة أيام، أتاهم وكيل كبير الجزيرة، وأعلمهم بالملاقاة عند العصر. ولمَّا دنى الوقت أتاهم بِكَدَشِ الحاكم موكَّله، فركبوه وتوجَّهوا إليه. ولمَّا دخلوا عليه، وجدوه واقفاً ولباسه لباس الرُّهبان، ونزع ما على رأسه وأبدى لهم البشاشة والانشراح، وأشار إليهم بالجلوس، فجلسوا وجلس، ثم أعاد عليهم السلام، وسألهم عن سفرهم وعن البحر.

ثمَّ أخرج ابن عثمان الكتاب السلطاني، فقبَّله ودفعه إليه، ففضَّه فوجده مكتوباً بالعربية، فأعطاه للتُّرجمان، وطلبوا منه الوقوف معهم في أمر الفداء، فأجابهم في ذلك، وعيَّن وكيله ثمَّ انصرفوا عنه، بعد ُهنيْهة وتركوه واقفا.

ثم شـرعت السـفـارة في فـداء الأسـرى الذين جـاءت من أجلـهم، وفـي أثنـاء ذلك، راجت إشاعة في البلد مُضمنّها أنّ السفارة جاءت لإحداث ثورة، بدليل أنّ الأسارى إذا سُرِّحوا لا يذهبون، بل يُجْمعون، وأنّ الأدب المعهود منهم انقلب إلى غِلْظة، وأنّ السفـارة تنتظر ورود خمسـة مراكب بحرية. وكان قد سبق قبل هذا بمدة أنْ اتُّهِمَ الأسـارى بمحاولة الثورة، فلم يسع حاكم الجزيرة حينئذ إلاّ أنْ أرسل للسفارة يطلب منها أن لا تُبْقي أولائك المسرَّحين في البلاد أكثر من ثلاثة أيام، قطعاً للقيل وتجنُّباً للكلام، وبعث من اكْتَرى لهم المراكب، وبعد ثلاث ركبوا البحر في مركبين : أحدهما سار لبني غازي والآخر لطرابلس، وكان عددهم نحو المائتين وخمسين.

ثم وقع فداء أُسارى آخرين بلغ عددهم ستمائة وثلاثة عشر (613)، وأكترث لهم السفارة المراكب، فحملتهم لطرابلس، وصفاقص، وتونس، بين زغاريد النِّساء ودعوات الرجال والأطفال.

وقد كانت جماعة منهم مستخدمةً في مراكب الجزيرة، فما شعر القوم إلاّ وقد شملهم الفداء، وأرادوا نقضه لِمَا يؤدي إليه من تعطيل مراكبهم، وحصل الشِّجار بينهم وبين الوكلاء على ذلك، ثمّ تدخل كبيرهم في القضية ومضى الفداء، وأُحصي الباقون من الأسارى المسلمين، فكانوا سبعمائة وبضعاً وعشرين، تكلّمت السفارة مع أصحابهم في قدر فدائهم، وبعثت في تقييدهم للسلطان عسى أن يضيفهم إلى إخوانهم، مشيرة عليه ببعث مال الفداء لكبير الجزيرة.

ثم استعدّوا للسَّفر، وعيّن لهم صاحب الجزيرة وقت الوداع، فذهبوا إليه فيه على الهيئة المتقدِّمة، وتلقَّاهم آخراً كما تلقَّاهم أولا، فشكروه على وقوفه معهم في ذلك الفداء، وودّعوه، وكان يبعث إليهم في مدَّة مُقامهم لحضور الحفلات بقصره، ويريهم ما اشتمل عليه.

وفي سابع شعبان من السنة (7 شعبان/18 يوليوز)، توجَّهوا للمرسى في الأكْدَاش مع الأعيان المودِّعين لهم، وركبوا في السفينة التي قدموا عليها قاصدين نابولي.

توجه السفير ابن عثمان إلى نابولي لفداء الأسرى

قال النَّقيب أبو زيد ابن زيدان في «إتحافه» نقلاً عن رحلة هذا السفير المسماة «البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر»(59).

59) ص 323 من ج 3.

لمَّا خرجت السفارة من مالطة قاصدة نابولي وقع لها مثل ما وقع عند الخروج من قادس، فاضطرَّت إلى الرجوع لمالطة، وبقيت هناك ثلاثة أيام تردَّد عليهم فيها كبار المدينة مهنِّئين لهم بالسلامة وطالبين لهم العودة لمحلهم. ثم ساعدهم الريح، وسار المركب إلى نابولي.

ولمَّا وصلها أرسل صاحبها أحد الأعيان عنده للسلام على السفارة وإبلاغها اشتياقه لرؤيتها، وأنَّ الحِجْر الصِّحِّي ساقط عنها، ودعاها للنزول من يومها، ولكنها تأخَّرت للغد وفيه جاءت الزوارق تحمل الأعيان ونواب الملك لإنزال السفارة.

ولمَّا نزلت من مركبها أخرج مدافعه تحية لها، ووجدوا على ساحل المدينة أفواج الخلائق مصطفَّةً، فركبوا في الكَدَش الخاصِّ بهم، وتقدَّمت أمامهم طائفة من الخيل الخاصَّة بالأمير، مُصلْتَة السيوف تفسح لهم الطريق الممتلئة بسكَّان المدينة. وما وصلوا لمحل النزول، حتَّى كَادت الشمس تزول، وكانت هذه الدار قد أُعدَّت لهم قبل وصولهم بنحو ستة أشهر لمَّا سمعوا بقدومهم. ولمَّا وصلوها وجدوا العسكر مصفوفاً ببابها لأداء التعظيم، وتلقَّاهم فيها أحد أرباب الدولة، بَعَثه الأمير لينوب عنه في إعادة سلامه على السفارة والترحيب بها. ثم طاف بها على الدَّار يريها ما احْتَوت عليه.

وقدَّم له ثلاثة أطباق كبار فيها فاكهة وحلويات يحملها ستة من الأسارى المسلمين الذين هناك هدية من الأمير، فتقبَّلوها شاكرين. وأشاروا إلى رغبتهم في إلحاق الحامل بالمحمول، فأُجيبوا لذلك، فكان فاتحة عملهم هنالك.

ثم ترادف للسلام عليهم الأعيان والأكابر، وأرسل لهم الأمير خمسة أكْداش لتكون مركوبهم، وعدَّة من الخيل العتاق المذهبة السُّروج المهداة إليه من الملوك، وبعث لهم طبيبا خاصَّاً لملازمتهم. وبعد ستة أيام استدعاهم الوزير لمقابلته، فذهبوا إليه، وأعطوْه نسخة الكتاب ليترجمها.

ثمَّ أعلمهم الأمير بوقت الاقتبال، قبل زوال الغد. ومن الغد جاءتهم الخيل التي سترافقهم، وجاء بعدها صاحب ملاقاة السفراء مع الملك فأخبرهم بأنَّ الملك مستعدٌّ للملاقاة، وكذلك الملكة زوجته الألمانية الأصل، في الانتظار بعد لقاء زوجها، وذلك وإنْ لمْ يكن عادة، لكنَّها جعلتها فرحاً وسروراً بالسفير ومرسله.

ثم ساروا في جمع حاشد للقصر الملكي، وجعلوا كلَّما دخلوا قُبَّة من قِبَبه، وقف من فيها، ونزع ما على رأسه، إلى أن وصلوا قاعة الاقتبال، فاستأذن المرافق المذكور، ثم

أدخلهم إليها، فوجدوا الملك واقفاً والقاعة مملوءة بالوزراء وأرباب الدولة. فلمّا قابلوه أزال ما على رأسه مسلّماً، فأشاروا إليه باليد ثم دنوْا منه، ففعل كذلك وفعلوا هم كذلك، حتى الثالثة، فلمّا التقوْا أخرج ابن عثمان الكتاب المولوي وقبّله ودفعه إليه، فتلقّاه بِكِلْتَا يديه ثم سأل ابن عثمان عن السلطان، وذكر محبّته فيه ورغبته في مخاطبته وقضاء مآربه، وعقد الصلْح معه، كما فعل أبوه (ملك إصبانيا)، فأجابه ابن عثمان بأنّه ملحوظ ومقدَّم عند السلطان، وعن الصلْح بأنّه لذلك الغرض كان قدومه، كما طلب له ذلك والده، العامَ الأول، لمّا كان عنده بإصبانيا، فأجابه الملك بالكلام مع وزيره، ثمّ خرجوا من حضرته وهو واقف.

ثمّ دُعوا لمقابلة الملكة، فأدخلهم حاجبها عليها فوجدوها واقفة والقبّة مُمْتَلِئَةٌ بنساء الأكابر والأعيان، فسلّمت عليهم بالانحدار حتى كادت تجيء على ركبتيها على عادة نسائهم، فأشاروا عليها باليد، ثم فعلت ذلك ثلاثا مثْلَ زوجها، وفعلوا مثله. فلمّا دنوْا منها رحّبت بهم، وذكرت طول انتظارهم، ووعدت بالوقوف في الأمور الصّعبة مع الملك، فشكروها على ذلك، وخرجوا مسلّمين على الصِّفة المتقدّمة، ثم امتطوْا أكداشهم لمحلهم. فلمّا بلغوه أخذ الأعيان يفدون عليهم مهنِّئين بحسن اللقاء مع الملك.

ولمّا قرأ الملك الكتاب السلطاني، وعلم ما اشتمل عليه من توجيه السفارة إليه بقصد عقد الصلح معه حيث طلب والده ذلك واشترطه في عقد الصلح الذي عقده معه ابن عثمان، ثم فداء أُسارى المسلمين الذين ببلده، وتحت حكمه، أجاب عن ذلك ببعث ثلاثين أسيراً مسرَّحين على سبيل الهدية للسفارة إكراماً لها قائلاً : وأمّا فداء الأُسارى المشار إليهم، فالأسارى الذين في إيالتنا كلهم من تونس والجزائر وطرابلس وغير ذلك من البلاد المشرقية، وليس بيننا وبينهم إلاّ الحرب، وكذلك إخواننا عندهم أُسارى بأيديهم، ولوْ لمْ يكنْ إخواننا الذين عندهم لسرّحنا جميع من عندنا من المسلمين ابتغاء خاطر مولانا أمير المؤمنين ورضاه. وحيث كان إخواننا في الأسر، نُحبّكم أن تسعوْا في فداء الجميع، فشكرته السفارة على ذلك، وكتبت للحضرة السلطانية به.

وأمّا عقد الصلح، فشرعت فيه مع الوزير حسبما تقدّم من تقديم الملك له لذلك، واشترط كلٌّ جانب ما فيه مصلحته، ثم استُنسخت تلك الشروط وأُمضيت.

قلت : وقد تضمّن عقد هذا الصلح المنبثق عن المعاهدة المتقدِّمة المنعقدة مع إصبانيا بتاريخ سادس وعشري جمادى الأولى عام أربعة وتسعين ومائة وألف (26 جمادى الأولى 30/1194 مايو 1780)، خمسة فصول، ترجع كلها إلى احترام الأساطيل المغربية والنابولية بعضها لبعض في البحار، والتجاء كل منها إلى مراسي الدولتين في أمن وأمان، وسلامة واطمئنان، وأمن رعايا ملك نابولي في أنفسهم وسُكْناهم وأموالهم وتجارتهم

بالمغرب، وكذلك رعايا جلالة السلطان إذا كانوا بمملكة ملك نابولي، وأنَّ هذا الصلح مستمر دائم مستقر، محترم ما تضمَّنته فصوله من الطرفين، وهو محرر بتاريخ حادي عشر ذي القعدة عام ستة وتسعين ومائة وألف (11 قعدة 12/1196 أكتوبر 1782)[60].

ثم قال النقيب ابن زيدان في ما نقله من «الرِّحلة» : وتيسَّر للسفارة فداء مائة أسير كانوا أُعدُّوا للبيع، فضمَّتْهم إلى إخوانهم.

واسترجعت ما كان أُخذ من مركب سلطاني كان السلطان بعثه لأمير طرابلس حاملاً القمح بسبب المسْغبة التي كانت في بلاده، فتلقته مراكب نابولية وأخذته. ومع أنَّ ذلك كان في زمن الحرب، فقد تمكَّن ابن عثمان من إقناعهم برد ما وُجد فيه.

وزارت السفارة أثناء إقامتها بنابولي بعض الأبناك، ومأوى الأيتام، ودار الآثار، ونادي الأعيان، بدعوة من أهله، والبركان القاذف للنيران، وآثار مدينة بومبيي (Pompei). ولمَّا رجعت منها لبلدة أخرى، أُنزلت فيها بالدار التي كان نازلاً فيها إمبراطور الألمان لمَّا كان هناك. ورأت في هذه البلدة معامل السلاح والبارود والكاغد.

وكان الملك يستدعيها مراراً لمشاهدة التمثيل بالأوبيرا، كلَّما ذهب، وكذلك استدعاها تكراراً لزيارة الحديقة الصيفية. وذهبت بدعوته لمشاهدة تعويم المراكب في البحر، وأُعِدَّ لابن عثمان مقعدٌ بإزاء مقعد الملك. واستدعاها لزيارة قصره في مقرِّه الخريفي، فرأته يسوق الكَدَشَ بنفسه، ولَعِبَ بمحضرها كرة التِّينس، كما استدعاها لزيارة قصره في مَشْتاه، وغير ذلك.

ولمَّا أنهت أعمالها، أعلمت الملك بعزمها على السفر، وكان إذ ذاك بمشتاه، فأجابها بأنَّه سيأتي لنابولي بقصد وداعها. ولمَّا جاء إليها، أعلمها باللقاء بين العشائين. فوقع ذلك على الوصف المتقدم في لقائه ولقاء الملكة. وبعد ذلك بعث الملك للسفارة جوابه عن الكتاب السلطاني مع هدية من صنائع بلاده وتُحفها، وبعث لها هديتها الخاصَّة بها.

وركبت السِّفارة ومن معها ممَّن فُكَّ من الأسرى البحر رابع المحرم سنة سبع وتسعين ومائة وألف (4 محرم 7/1197 دجنبر 1782)، في مركب رئيسه من جنس الراكواز (Raguse)، تطوَّع به لحمل السفارة حيث تشاء دون عِوَض، فحيَّاها بمدافعه، وصار بها إلى أن أدَّاه

60) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله» لكايي، ص 242.

اضطراب البحر إلى صقلية، فخرجت زوارق أعيانها ونائب حاكمها للسلام على السفير، وعرض النزول عليه للمدينة للاستراحة، فنزلوا من الغد نظراً لازدحام المركب بالأسرى في احتفال مثل ما جرى لهم في غيرها من البلاد التي كان ذهابهم إليها رسميا، وأعدّت لهم داراً خاصةً. ثم طلب منهم حاكم الجزيرة أن يعيّنوا له وقتا للمقابلة، فعيّنوه له وقابلوه كما قابلوا أعيان مدينة باليرمو (Palermo) ونوابها، فكان الجميع يرحّب بهم، ويظهر السرور بمقدمهم. ودُعُوا لمشاهدة التمثيل بدار الأوبيرا. وبعد أن أقاموا ستة وعشرين يوماً عادوا لمركبهم. فلمّا صار بهم ثلاثين ميلا وجد البحر مضطربا، وبقي خمسة أيام، ورجع إلى صقلية مرة أخرى، فتلقّاه أهلها، وأخبروهم أن الدار التي كانوا بها لازالت بصددهم فنزلوا إليها، وكانت الليلة ليلة ميلاد الملك، فاستُدعيت السفارة لحضور الاحتفال الليلي بذلك، كما استُدعيت لنادي الأعيان بالمدينة، وفيه طلب بعضهم من ابن عثمان أن يلعب معه بالشّطْرَنْج، فأجابه بعد إلحاح، وغلبه فيه على مشهد من القوم.

وَزَارَتْ السفارة أثناء مقامها كنيسة سان مارتيل، ودخلت خزانتها، فوجدت فيها عدة كتب إسلامية، كـ«سيرة ابن سيد النّاس»، وبعض كتب الطب، كما زارت غيرها من المعاهد والمدارس.

وبعد إقامتهم بها ثلاثة أشهر وثلاثة أيام في انتظار سكون البحر، ركبوا سفينتهم في سادس عشر ربيع الثاني (16 ربيع الثاني/21 مارس) راجعين إلى المغرب، فوصلوا طنجة بعد اثني عشر يوما، ونزلت السفارة في احتفال بحضور الحاكم ووجوه العسكر للمدينة، كما استقبل الناس الأسارى بسرور وحبور، وأُنزلوا بديار المدينة بقصد الإرفاق في النفقة السلطانية، ووُجِّه الكتاب للحضرة السلطانية بالإعلام بالوصول، وأقاموا بطنجة إلى أن ورد عليهم الجواب الشريف بالتّهْنئة بالسلامة واعداد البهائم لحمل الأُسارى وأمرهم بالقدوم عليه.

قال ابن عثمان : فتوجهنا إليه – أيده الله – وهو بحضرة مكناسة، فَبِتْنا آخر ليلة من السفر بوادي فري قرب المدينة بنحو ساعتين، ومن الغد بعث مولانا – أعزه الله – عساكر الخيل لملاقاتنا ووجوه العسكر والقواد ومن حضر من العُمّال، وبالغ في التّنْويه والفرح بهؤلاء المسلمين، جعل الله ذلك بمنّه من خالص الأعمال، وبلّغه من حسن نيته وصفاء سريرته وطويته جميع الآمال.

ومن هناك والخيل تعلب، وتُخْرج البارود إلى أن دخلنا المدينة. وبعث إلينا سيدنا – أيده الله – أحد خُدّامه بأنْ نُدْخل الأسارى المذكورين إلى ضريح جده المقدس المنعم

المرحوم مولانا اسماعيل برّد الله ضريحه، وأسكنه من الجنان فسيحه، وأحضر الفقهاء والأشراف والطلبة وأعيان البلد، فقرأنا هنالك ما تيسر من القرآن، ودعونا لسيدنا بما نرجو من الله قبوله.

وبعث سيدنا الطعام للأسارى، فأكلوا، وأمرنا بإنزالهم بدور أعدَّها لهم بالمدينة، ثم أمرنا بأن نَسْتريح ونطلع لملاقاته عند العصر.

ولمَّا صلَّينا العصر، توجَّهنا لبابه، ورحْبِ جنابه، وأَصْحَبْنَا إليه الهدية التي أَصْحَبْنَا إليه الطاغية صاحب نابولي، فوجدناه داخل باب السَّواني، ففرح بنا وانشرح لقدومنا ودعا لنا بخير، تقبَّل الله منه.

ثم ناولناه كتاب الطاغية مع عقد الصلح الذي أبرمناه ووقع الاتفاق عليه، وهدية الطاغية التي بعثها إليه، وناولناه أيضا أَزِمّة ما دُفع في الفداء، وخطوط أيدي النصارى المُفدى منهم، مع قيمة المركب الذي غرموه، وقد تقدَّم خبره.

ومن الغد أطلعنا إليه أسرى المسلمين وهو بالدار البيضاء، فسألهم عن قبائلهم وعشائرهم، وعن مدة أسرهم وأطال معهم الكلام جبراً لخاطرهم، وقال لهم : الحمد لله الذي عجَّل سراحكم. ثم هَيَّأ لهم البهائم لحملهم إلى فاس في الحين، وتوجَّهوا من عنده فرحين، وارتفعت بالدعاء له – أيده اللّه – الأصوات، حتى كادت أن تسمع الأموات.

ثم كتب لعامل فاس أن يُحسن للقوم القِرى، ويُفيض عليهم من مطايب ما يُشترى، ويُزيل عنهم دَرَنَ الأسْر، ومذلَّة القهْر والقسْر، ثم يكتري لهم البهائم إلى الجزائر، ومنها يتفرَّقون في البلاد كالمثل السَّائر.

الفصل الثاني

عن محاولات
السلطان سيدي محمد بن عبد الله
عقد المواصلة والمؤازرة مع الدولة العثمانية
وفداء الأسرى الذين كانوا بجزيرة مالطة
والسفارات المبعوثة لهذا الغرض الشريف

المبحث الأول

مبادلات السفارات بين الدولتين المغربية والعثمانية في شأن الأسرى وتقوية الأساطيل القرصانية الجهادية.

علمنا ممّا تقدّم أنّه في هذا العصر الحرج الذي كانت القرصنة فيه تصول وتجول في البحار عموما، وفي البحر الأبيض المتوسط خصوصا، وما لحق الدول الإسلامية التي على شواطئه منها من الضيق والضّنك العظيم، فاستُبيحت مراسيهم، وحوربت أساطيلهم، وأُسر أعيانهم ورؤساؤهم، وحاق بهم من أنواع التغريب والتعذيب والتشريد والاسترقاق والعذاب الأليم الشديد، حسبما تقدم وصفه ببسط وتفصيل وبيان وتحصيل، فاضطرت الدولتان الاسلاميتان المهمّتان اللتان كانتا على شواطئه شرقا وغربا وجنوبا، وهما دولة المغرب الأقصى والدولة العثمانية إلى ربط حبل المواصلة بينهما، صيانة لكيانهما، وحفظاً لمكانتهما. وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله إذ ذاك في عنفوان مجده وعظمة سلطانه، قد عقد المعاهدات المتعددة مع عظماء الدول الأوروبية، وهابته ملوكها، وتزلّف إليه أمراؤها ورؤساؤها ساعين في رضاه، متسابقين إلى تنفيذ ما يطالبهم به مبادرين إلى إنجازه حسبما سبقت الإشارة إليه، وسعى في إطلاق سراح من كان ببلادهم من الأسرى المسلمين عموما، من غير تمييز بين عنصر أو جنس أو دولة، إذ كان لا يشترط إلاّ الإسلام، لأنّه الجامعة الحقيقية الرابطة بين المسلمين في سائر أقطار العالم وإنّما المومنون إخوة حيثما كانوا وحلّوا.

وحيث كانت الدولة العثمانية في ذلك العهد هي الدولة الإسلامية الواسعة الرقعة في الشرق مستولية على الحرمين الشريفين والعراق والشام ومصر وطرابلس وتونس والجزائر المتاخمة للمغرب الأقصى، فقد أكّد روابط المودة والأخوة والمودة الإسلامية الرّاسخة

المتبادلة بالاتحاد معها، وأعانها بقوته المادية والمعنوية، مالاً وعدةً وسلاحاً، كالبارود والمراكب القرصانية، وأمدَّته هي كذلك بما يتقوّى به أسطوله من المدافع والرجال الفنيين. وسعى في إطلاق سراح أسراها الذين كانوا يعدون بالآلاف مفرَّقين في الممالك والأقطار المسيحية.

وبمقتضى ذلك، اختلف السفراء بينه وبين السلطانين المعاصرين له، وهما مصطفى الثالث وعبد الحميد الأول.

وكان القصد من هذه الصِّلة المتأصِّلة المؤسَّسة على إحكام الرابطة الإسلامية بين الشرق والغرب هو التعاضد والتآزر في السلم والحرب، وهو ما سنراه في أخبار السفارات الآتية :

المبحث الثاني

سفارة الحاج الخياط عديّل الفاسي
والسيد الطاهر بناني الرباطي
إلى الدولة العثمانية.

جاء في «الاستقصا»[61] و«إتحاف أعلام الناس»[62] أنّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله وجّه آخر سنة خمس وسبعين ومائة وألف (1762/1175) خديميه الحاج الخيّاط عديل الفاسي والسيد الطاهر بنّاني الرباطي سفيرين إلى السلطان مصطفى الثالث بالقسطنطينية في وفد من أعيان المغرب لربط علائق المودة مع الدولة العثمانية، وقدّم له هدية من نفائس طُرَف المغرب. فأدّى الوفد السفارة، وأحسن الوساطة، ورجع مع وفد عثماني إلى المغرب بهديةٍ اشتملت على مدافع وآلات حربية وأدوات مراكب قرصانية وأنواع من السلاح فسُرَّ السلطان بذلك وردَّ الوفد العثماني مغموراً بكرمه المعهود، رحمه الله تعالى.

---

61) ص 98 من ج 4، طبع القاهرة. وص 24 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

62) ص 162 و 298 من ج 3.

المبحث الثالث

سفارة السيد الطّاهر بن عبد السّلام السّلاوي والسيد الطّاهر بنّاني الرباطي إلى الدولة العثمانية.

هذان السفيران من أعيان المدينتين الشقيقتين المتقابلتين على الضفتين الرقراقيتين سلا ورباط الفتح، وكلاهما اسمه الطّاهر.

فأمّا الأول فهو الطّاهر بن عبد السّلام السّلاوي. كان علاّمة جليلا نبيلا شاعرا أديبا كاتبا مجيدا، معدوداً في أعيان عصره وفُضلاء مصره، ترجمه أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في «الإتحاف الوجيز»[63]، وذكر نُتَفاً من شعره، وأثنى عليه، وكذلك في رجزه «إتحاف أشراف الملا»[64]، فقال :

وَمِنْهُمُ المُحَاضِرُ الأَدِيبُ ... الكَاتِبُ المُبَرِّزُ الأَرِيبُ
مُحَمَّدُ الطَّاهِرُ وَهْوَ ابْنُ عَلِي ... ثُمَّ ابن عبد لِلسَّلامِ مُنْجَلِي
كَانَ بِعَصْرِ المَلِكِ المُعَظَّمِ ... مَنْصُور دَوْلَةِ العَلاءِ الأَفْخَمِ
غَدَاً جَلِيساً كَاتِباً مُوَجَّهَا ... إِلَى مُلُوكِ عَصْرِهِ مُنَزَّهَا
بَرَعَ فِي العِلْمِ وَفِي الآدابِ ... وَفِي الدَّهَاءِ بَادِيَ الإِعْجَابِ

وكانت وفاته بمراكش أواخر سنة عشر ومائتين وألف (1796/1210).

---

63) ص 119، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

64) ص 96، نفس المصدر.

وأمّا الثاني فهو السيد الحاج الطّاهر بنّاني الرباطي. فقد كان من علماء وأدباء رباط الفتح الذين اشتهر ذكرهم، وعلا صيتهم في الدولتين المحمدية والسليمانية. وهو الذي تقدّمت سفارته إلى الدولة العثمانية أيضاً صحبة الحاج الخيّاط عَديلْ، كما مرَّ في الفصل السابق. ترجمه أبو عبد الله محمد بوجندار في «الاغتباط» (65)، فأثنى عليه ونوّه به.

وذكر أنَّ السلطان المولى سليمان اختاره لمرافقة ولده المولى إبراهيم في رحلته الحجازية سنة ست وعشرين ومائتين وألف (1811/1226)، فزار الحرمين الشريفيْن، ودخل الشّام ومصر والعراقيْن، وعرّج على تونس واجتمع بالشيخ الشهير أبي اسحاق إبراهيم الرِّياحي، وحمّله قصيدته اللاَّمية الشهيرة التي مدح بها السلطان المذكور، وهنَّأه بحجٍّ ولده، فَقَدِمَ عليه بفاس قبل وصول الولد مبشِّراً بقدومه، فسُرَّ السلطان بذلك، وقابله بغاية الحفاوة، وأنعم عليه بصلة لها بال، ورتّب له زيادة على ذلك مُرتّبا خاصّاً من أحباس الرباط.

وكانت وفاته في حدود سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف (1820/1235)، رحمه الله تعالى.

وقد كان هذان السفيران من المصطفين الأخيار لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، يكلِّفهما بالمُهمّات، ويسند إليهما السفارات، ورافقاه معاً في رحلته إلى الصّويرة سنة ثمان وتسعين ومائة وألف (1784/1198)، في جملة من رافقه من العلماء والأدباء والكتّاب الأعلام، فكانا يكتبان له وبين يديه ما يريده منهما، لأنهما كانا من جملة كُتّابه المعتبَرين الممتازين في الإنشاء والتّرسيل رحمهم الله (66).

مهمّتهما في هذه السفارة وما نشأ عنها

كانت مهمّتهما في هذه السفارة كالتي قبلها، هو أنَّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله لمّا قرّر عقد المواصلة والمؤازرة مع الدولة العثمانية عيَّنهما سفيريْن عنه إلى السلطان مصطفى الثالث، ليُحْكما هذا العقد، ويبْنيا أركانه على ثقة ومودّة واعتبار متبادل بين الجانبين، وأصحبهما هدية نفيسة تدلُّ على كرمه، وعُلو همّته، فيها خيول عِتاق بسروج مثقلة

65) ص 83 من ج 1، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا، راجع «الاستقصا» فيما يرجع لحج المولى ابراهيم، ص 145من ج 4 طبع القاهرة. وص 155 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

66) «الاستقصا»، ص 114 من ج 4، طبع القاهرة. وص 73 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

بالذهب، مرصّعة باليواقيت والجواهر ونفيس الأحجار الكريمة، وأسياف محلاّة بالذّهب، ومرصّعة بالياقوت المختلف الألوان، وغير ذلك من حلى المغرب، فقبل السلطان العثماني ذلك وابتهج به.

وكَافَأَ عليه بمركب مَوْسُوقٍ من آلة الحرب : مدافع ومهاريس وبارود وإقامة كثيرة للمراكب القرصانية من كلٍّ ما تحتاج إليه(67).

وكان من جملة ما كلّفهما به، وطلب تنفيذه على يد السلطان مصطفى المذكور أنّ المصاحف المُحلاّة بالذهب والأحجار النفيسة التي كانت له محبّسة على الحرم النبوي، وخِيف عليها التّلف والضّياع، ينبغي أنْ يُزال الحلْي الذي عليها ويُعاد تجليدها تجليداً مُتقناً ليقع الانتفاع بها، وقيمة ذلك الحلْي تُفرّق على الأشراف وذوي الحاجة من أطراف الحرام.

فأمر السلطان مصطفى بإبقائها على حالها احتراماً لوقفها، وزيادة المحافظة عليها، وصيَانَتِها ممّا كانت معرّضة له من التّلف. واشترى مصاحف أخرى بعَدَدِها، وحبّسها باسم السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وجعل ثوابها له رحمه الله، وأخبره بما ظهر له من المصلحة في ذلك تأدُّباً مع الرّسول ﷺ، ومحافظة على آثار الأسلاف المقدّسين، وفي ذلك يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في «إتحاف أشراف الملا»(68) :

سَافَرَ عَنْهُ لِبِلاَدِ التُّرْكِ ... فِي عَصْرِ مُصْطَفَى الْجَمِيلِ النُّسْكِ
وَحَمَلَ الْهَدِيَّةَ الْعَظِيمَةْ ... وَلَمْ تَزَلْ مَعْرُوفَةً فَخِيمَةْ
مَا بَيْنَ أَفْرَاسٍ حُلِيٍّ وَتُحَفْ ... وَنُخَبٍ جَلَّتْ وَفَاقَتِ الطُّرَفْ
وَكَانَ مِنْ أَهَمِّ مَا لَهُ قَصَدْ ... جَلْبَ الْمَدافِعِ واحْكَام الْعُدَدْ
بِمَا بِهِ مَصْلَحَةُ الأُسْطُولِ ... وَالعَوْدُ بِالْخَيْرِ وَبِالْمَأْمُولِ
وَأَنْ يُزَالَ الْحَلْيُ عَنْ مَصَاحِفَا ... كَانَ لِذِي الْحَرَامِ وَقْفاً شَرَفَا
لَمَّا تَعَذَّرَ انْتِفَاعُ الوَاقِفِ ... بِهَا وَخِيفَ مِنْ مَآلِ التَّلَفِ
وَأَنْ يُعَادَ جِلْدُهَا جَدِيداً ... وَيَحْصُلُ النَّفْعُ وَلاَ مَزِيدَا

---

67) نفس المصدر والجزء، ص 101. وص 35 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

68) ص 97، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وَقِيمَةُ الْحَلْيِ عَلَى الأَشْرَافِ   تُفْرقُ مَعْ مَحَاوِجِ الأَطْرافِ
فَأَعْمَلَ النَّظَرَ مُصْطَفَى وَحلْ   بِتَرْكِهَا بِحَالِهَا وَقْفاً كَمُلْ
ثُمَّ اشْتَرَى مَصَاحِفاً بِعَدِّهَا   وَوُقِفَتْ يُتْلَى بِهَا لِنَفْعِهَا
وَجَعَلَ الثَّوابَ لِلَّذِي وَقَفْ   أَو لَهَا فَأَمِنَتْ مِنَ التَّلَفْ
وخَاطَبَ الْمَوْلَى بِهَذِي الْمَصْلَحَةْ   وأَنَّهَا أَعْلَى الآرَاءِ النَّاجِحَةْ
تَأَدُّباً مَعَ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى   وَحِفْظَ آثَارِ الْجُدُودِ الشُّرَفَا

المبحث الرابع

سفارة الرئيس عبد الكريم راغون التطواني إلى الدولة العثمانية

لمَّا رجع السفيران : الطَّاهر بن عبد السّلام السّلاوي والطّاهر بنّاني الرباطي من إصطنبول ناجحين في سفارتهما، ومعهما ما كافأ به السلطان مصطفى الثالث عن الهدية الملكية، عيَّن السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة ثمانين ومائة وألف (1180/1766-1767)، خديمه الرئيس الحاج عبد الكريم راغون، وهو من أعيان تطوان ووُجهائها، سفيراً إلى السلطان مصطفى المذكور، وأصحبه كتاباً يتضمَّن التَّعزية في ما أصاب الأسطول العثماني من الروس.

وكتب له رسالة إلى رئيس وزارة الدولة يستوصيه به خيراً فيما يحتاج إليه ونصُّها[69]:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

(ثم الطابع، ونقش وسطه)

محمد بن عبد الله بن اسماعيل

الله وليُّه ومولاه.

(وبدائرته)

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسولِ اللّه نُصْرَتُهُ إنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي أَجَامِهَا تَجِمِ

69) ص 268 من ق 2 من مجلد 2 من «تاريخ تطوان» للأستاذ محمد داوود التطواني.

حَيًّا الله بأزكى تحياته، وعمَّ بهواطل رحماته، وأغمر بنوامي بركاته، مقام صدر الدولة العثمانية، وأمينها وناصحها، وإنسان عينها، ومعينها، السيد الأسمى، الأمجد، الأنجد، الأحمى، السيد محمد أفندي.

أسعد الله زمانه، ووالى كرامته وأعانه، سلام عليه ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فاعلمْ أننا جعلناك وَكِيلَنَا ونائبا عنّا في جميع ما يخطر هناك من مسائلنا، فكن عند الظنِّ بك في جميع ذلك.

وها نحن وجَّهنا خديمنا الحاج عبد الكريم راغون لتلكم الناحية، فالمؤكَّد به عليك أنْ تقف معه في جميع ما احتاجك إليه وقوف الكرام من غير تقصير إلى أن تُوجِّهه لحضرتنا على أحسن حال.

ويصلك صحبته أمتان، فاقبل ذلك منَّا على وجه الإكرام والتبرُّك، ونحن على عهدك ومحبتك، والله يرعاك بمنِّه، والسلام.

في ثامن ربيع النبوي عام ثمانين ومائة وألف (8 ربيع النبوي 1180/غشت 1766).

وزوَّده بهدية نفيسة في مقابلة هديته المتقدِّمة.

وفي السَّنة التي بعدها، رجع هذا السفير من سفارته ومعه هدية عظيمة أعظم من الأولى، وهي مركب مَوْسُوقٌ بالمدافع والمهاريس النحاسية وإقامتها، وإقامة المراكب القرصانية من صَوارٍ ومخاطيف وقلوع وقِمَن وحبال وبراميل، وغير ذلك من آلات البحر ؛ وفيها ثلاثون من مهرة المعلِّمين الذين لهم المعرفة بإفراغ المَدافِع والمهاريس والكور والبُنْبِ، وبصناعة المراكب القرصانية ؛ وفيهم معلم مجيد في الرَّمْي بالمهراس إلى الغاية، فنزلوا بمرسى العرائش.

ومنها توجَّهوا إلى فاس، وهناك اجتمعوا بالسلطان، وفاوضهم في إحياء دار الصِّناعة بسلا، فرأى أمرها لا يتمُّ في عشر سنين فأكثر، فأعرض عن ذلك حسب ما تقدَّم الكلام عليه في البحث السابق الخاص بدار الصناعة السلاوية وَمَآلِهَا[70].

ولمَّا توفي السلطان مصطفى الثالث سنة سبع وثمانين ومائة وألف (1774/1187)، وبُويِعَ لأخيه السلطان عبد الحميد الأول، وجَّه له السلطان سيدي محمد بن عبد الله رسولا خاصاً بكتاب التهنئة له بالملك، وتجديد المودة والاتِّصال، وهدية فيها طُرف ثمينة من طُرَفِ المغرب، وصحبتها أربعة مراكب من المراكب المغربية، صحبة الرئيس الطاهر فنِّيش السلاوي.

---

70) «الاستقصا»، ص 104 من ج 4، طبع القاهرة. وص 44 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

المبحث الخامس

سفارة الطّاهر بن عبد السّلام السّلاوي الثانية إلى الدولة العثمانية.

لمّا تفاحش أمر الأسارى الأتراك بالدُّول الأوروبية كمالطة وغيرها، حتّى بلغ نحو العشرين ألفا (20.000)، تأثّر السلطان سيدي محمد بن عبد الله من ذلك، وكان رحمه الله سبّاقاً كما قلنا لفدائهم، عاملا غاية مجهوده في إطلاق سراحهم، وجّه سفيره السابق إلى مصطفى الثالث المتوفى، السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي، سفيراً مرة ثانية إلى الدولة العثمانية وسلطانها محلٍّ أخيه السلطان عبد الحميد الأول، مصحوباً بمائتي ألف ريال وثلاثمائة، ليفكّ بها الأسارى المسلمين المعذّبين بمالطة، وكان عددهم نحو العشرين ألفا، فقبلها منه شاكرا، ووجّه أربع سفن إلى مالطة وتمّت المخابرة مع حُكّامها في فداء الأسرى الأتراك الذين كانوا بها بذلك المال، وكتب الله أجره لجلالته، رحمه اللّه، حسب ما ذكر ذلك المؤرخ جودت التركي في تاريخ له.

وفي أثناء إقامة هذا السفير بإصطنبول، ذاكره الوزير الصّدر في إمكان عقد قرض مالي من المغرب، فأجابه بأنّ ذلك ممكن، وأنّ السلطان يقبله ويساعد عليه رغبة في إعانة دولة إسلامية مدافعة عن الدّين وحامية لحماه.

وبعد القيام بهذه السّفارة، توجّه إلى الحرمين الشريفين، فحجّ وأدّى الفريضة، وزار المقام الشريف، وتبرّك بالمعاهد الإسلامية، وقيّد رحلة في هذه الوجهة المباركة، ورجع سالما غانما.

وفي ذلك يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه : «إتحاف أشراف الملا»[73].

71) ص 97-98، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

ثُمَّتَ عَادَ ثَانِياً سَفِيرَا　　في عَهْدِ نَجْلِ[72] مُصْطَفَى ظَهِيرَا
لأَجْلِ أَنْ يَفْتَدِيَ الأَسَارَى　　مِنْ كُلِّ أَقْطَارٍ لَّدَى النَّصَارَى
بِمِائَتَيْ أَلْفٍ مِنَ الرِّيَالِ　　مَعَ ثَلاَثِمَائَةٍ مِنْ مَالِ
وَشَاءَ مِنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ أَنْ يَرَى　　بِرَأْيِهِ في فَكِّهَا مُحَرَّرَا
فَوَجَّهَ التُّرْكِي بِسُفْنٍ أَرْبَعِ　　لِمَالَطَةْ لأَجْلِ فَصْلِ الْمَنْزَعِ
فَتَمَّ الافْتِدا بِذَاكَ الْمَالِ　　وَعَظُمَ الأَجْرُ بِكُلِّ حَالِ
أَنافَتِ الأَسْرَى عَلَى الْعِشْرِينَا　　مِنَ الأُلُوفِ عَدَداً مُبِينَا
ذَكَرَهُ مُؤَرِّخٌ تُرْكِيٌّ　　جَوْدَتُ عُثْمَانِي وَذا حَرِيٌّ
وَخَاطَبَ الصَّدْرُ السَّفِيرَ هَلْ يَرَى　　أَمِيرُكَ الْقَرْضَ لِنَفْعٍ غَزُرَا
فَقَالَ يُمْكِنُ لَهُ مَا تَرْتَضِي　　وَلَيْسَ يَعْتَاصُ كَهَذَا الْغَرضِ
وَكَانَ مِنْ أَمْرِ غَزِيرِ السَّلَفِ　　مَا جَلَّ ذِكْرُهُ لِعَهْدِ الْخَلَفِ
وَكَمْ لِهَذَا الشَّيْخِ مِنْ سِفَارَةْ　　عَادَتْ بِرِبْحِ الْقُطْرِ وَالْعِمَارَةْ
حَجَّ وَزارَ وَرَأَى الْمَعَالِمَا　　وَقَيَّدَ الرِّحْلَةَ فِيمَا أُبْهِمَا
وَنَظَمَ الشِّعْرَ الْجَلِيلَ وَكَتَبْ　　مِنَ الرَّسَائِلِ جَلِيلاً يُنْتَخَبْ
وَكَانَ ذَا خَطٍّ جَمِيلٍ يُعْرَفُ　　وَمِنْ صُدُورِ عَصْرِهِ مُعَرَّفُ
لَهُ خِزَانَةٌ تُبِيدُ عَنْ طُرَفْ　　وَعَيْبَةٌ حَوَتْ كَمَالاً وَتُحَفْ
وَمَاتَ فِي مُرَّاكُشٍ يَقِينَاً　　آخِرَ عَقْدٍ ثَانِيَ الْمِئِينَا
بُعَيْدَ أَلْفٍ وَبِهَا أَبْقَى النُّخَبْ　　وَلَمْ يَبِنْ بَعْدَ الْوَفَاةِ مَا كَتَبْ

وقد تقدّم ذكر وفاته عند التّعريف به في السفارة الأولى.

---

72) بل أخوه.

المبحث السادس

سفارة القائدين علاّل الدراوي وقدّور البرنوصي ومُحمَّد الحافي إلى الدولة العثمانية بالأموال لفداء الأسرى[73].

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله سعى في إطلاق سراح الأسرى الأتراك الذين كانوا بمالطة، وكلَّف بذلك كاتبه أبا عبد الله مُحمَّد الحافي السلاوي، فلم يتمَّ فداؤهم حسبما تقدَّم في أخبار بعث الحافي المَذْكُور إلى مالطة، وأنكر أهل مالطة الفداء، وردُّوا المال. فوجَّهه السلطان، رحمه الله، صحبة القائدين علاَّل الدراوي ومُحمَّد البرنوصي، والحافي المذكور إلى السلطان عبد الحميد الأول، وقدره مائتي ألف ريال وأربعة وسبعون ألف ريال دورو (274.000)، وأعلمه بأنَّ هذا المال أخرجه لفكاك الأسرى المسلمين، وحيث ردَّه الكفَّار لا يرجع إليه، وليُنْفقه في فداء الأسرى أو في الجهاد أو في ما يظهر له، كما تقدم مبسوطا.

ووجَّه مع هذه السفارة كتاباً خاصاً لعبد الحميد، ولعلَّه المقصود من توجيهها، بَسَطَ له فيه حال أهل الجزائر معه، وما هم عليه من الجوْر والظلم لضعفاء العرب الذين كانت وفودهم تلوذ به، وتشْكوا إليه ما يقاسونه منهم، وكان يكتب إليهم ويحضُّهم على العدل وينهاهم عن الظُّلم، فلا يسمعون له كلاما، ويقابلون من ياتيهم بمكاتبه بالعقوبة الفادحة.

ولمَّا أعياه أمرهم، كتب بهم إلى سلطانهم مع هذه السِّفارة.

---

73) «إتحاف أعلام الناس» لابن زيدان، ص 300-301، من ج 3.

وقد فَصَّلَ هذه الحوادث وما نشأ عنها أبو القاسم الصَّياني في «الترجمانة الكبرى»[74]، وزاد أنَّ أولائك السُّفراء تصرَّفوا في المال المخصَّص لفكاك الأسرى، وأخذوا منه أربعة عشر ألف ريال (14.000)، قدَّموها كهدية لرجال الدولة، على العادة في ذلك، وطالبهم وزير البحر بها، فأجابوه بجواب خارج عن الصَّواب، فأزعجهم عن إصطنبول، فتوجَّهوا إلى المشرق، ولمْ يعودوا للمغرب خوفاً من سطوة السلطان.

74) ص 83 والتي بعدها.

المبحث السابع

سفارة عبد الكريم العوني التطواني
إلى الدولة العثمانية.

ذكر أبو عبد الله مُحمَّد داوود في «تاريخ تطوان»[75] أنَّه لم يقفْ على ترجمة هذا السفير.

وقد كانت هذه السفارة سنة تسع وتسعين ومائة وألف (1785/1199).

والباعثُ عليها تعزيز السفارة التي قبلها فيما يرجع لمسألة أهل الجزائر.

ووجَّه السلطان مع هذا السفير هدية للسلطان عبد الحميد تشتمل على اثني عشر ألف قنطار من ملح البارود في أربعة مراكب، ورسالة أخرى خاصَّة بأهل الجزائر وضررهم بالمسلمين.

ولمَّا وصل الى إصطنبول، وأدَّى الرسالة، كتبت الدولة العثمانية إلى حَاكِمِي الجزائر وتونس تأمرهم بالتأدُّب مع سلطان المغرب، كما يتأدَّبون مع سلطانهم.

ووجَّهت مع العوني أحد كتَّابها إسماعيل أفندي سفيراً من قِبَلِ عبد الحميد الأول إلى السلطان مصحوباً بهدية ورسالة جواباً عن الرسالة التي وجَّهها إليه.

ولمّا وصل إلى طنجة، استقبله الرئيس القائد الطاهر فنِّيش، ورافقه إلى رباط الفتح حيث يقيم السلطان، واستقبله يوم الجمعة بعد عيد الفطر في مشهد حفيل بجامع السُّنَّة، وكانت الرسالة التي جاء بها تتضمّن الاعتذار عن أهل تونس والجزائر، والاستيصاء بهم خيرا فقط.

وسياتي ما نشأ عن مجيء هذا السفير من سوء الفهم والتَّفاهم، وما تسبَّب عنه من سفارتيْ ابن عثمان والصَّياني إلى إصطنبول.

المبحث الثامن

سفارة أبي عبد الله بن عثمان
إلى تركيا والحجاز.

ذكر أبو القاسم الصياني في «الترجمانة الكبرى»[76] الأسباب الموجبة لهذه السفارة، ومن جملتها أن السفير التركي الذي جاء مرافقا للسفير عبد الكريم العوني صدرت منه تصريحات أثناء سفره – خطأ – تُوهِمُ أنَّ الأوامر التي جاء بها لأهل تونس والجزائر تتضمَّن أن يكونوا عند أمر سلطان المغرب، يعني ينضمُّون إليه، وبلغ ذلك السلطان، فاعتمده.

ولمَّا استقبل السفير في الاحتفال الخاص المتقدِّم ذكْره واطَّلع على جواب السلطان عبد الحميد الأول، المتضمِّن الاعتذار عن حُكَّام تونس والجزائر لا غير، وأنَّهم سيلزمون الأدب معه فقط، أعرض عنه وصرفه إلى تطوان، وأمره بالبقاء فيها حتَّى يُعيِّن له المركب الذي يرجع فيه لبلاده، ولا يعرِّج لا على تونس ولا على الجزائر.

ثمَّ عيَّن للسفر معه كاتبه أبا عبد الله مُحمَّد بن عثمان، وقال له : إذا بلغت إلى إصطنبول، فعرِّفهم بأنَّ هذا الرسول كذَّاب، ولا يصلح للسِّفارة بين الملوك.

فتوجَّه ابن عثمان إلى تطوان بالمكاتب السلطانية، وبعد أيام عيَّن له لمرافقته السيد مُحمد الموزيرق المراكشي[77] بمكاتب أخرى، فالتحق به، ثم أصدر أوامره بأن ينضمَّ إليهم

76) «الترجمانة الكبرى» للصياني، ص 84 وما بعدها.

77) كذا عند ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس»، ص 301 وص 338 من ج 3، والذي في «الترجمانة الكبرى»، ص 86، و«الاستقصا» ص 115 من ج 4، طبع القاهرة، وص 76، ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. أنه عمر، لا محمد.

صهره وابن عمه مولاي عبد المالك بن ادريس، وشيخ ركب الحج الحاج عبد الكريم بن يحيى، فاجتمعوا كلهم بتطوان، وأصحبهم هدية كبيرة للأشراف بالحرميْن الشريفيْن وغيرهم، قدرها ثلاثمائة ألف ريال وستون ألف ريالا (360.000)، وأربعون ألفا من الضبلون والمونيضة والبندقي ما بين ذهب وفضةً على عادته في كل سنة (40.000)، في حقاقٍ كل حُقٍّ مكتوب عليه اسم صاحبه، وأوصاهم بأنْ يتوجَّهوا إلى الحجاز صحبة الركب وأمين الصرَّة.

ولمَّا اجتمعوا بتطوان، كتبوا للسلطان طالبين منه أن لا يوجِّه معهم السفير التركي، لأنَّه يفسد عليهم عملهم بما يسمعونه منه من السبِّ والطَّعْن في الدولة، فأخَّره عن السفر معه وأمره بالانتظار.

وقال أبو عبد الله الضعيف في «تاريخه» :[78] في عام مائتين وألف (1786/1200)، وجَّه السلطان صاحبَه ابن عثمان سفيراً إلى العثمانية، ووجَّه له معه هدية عظيمة فيها سروج من الذهب وأكْداش وغير ذلك. اهـ.

وأبحروا من طنجة ثاني رجب عام مائتين وألف (2 رجب 1/1200 مايه 1786).

وكان وصولهم إلى إصطنبول رابع شوال من السنة (4 شوال/31 يوليوز)، ونزلوا بدار هُيِّئت لهم، وقابلهم الوزير أوّلاً والسلطان ثانياً، في احتفالٍ ومراسم خُصِّصت لهم. وحيث وجدوا ركب الحجّاج وأمين الصرَّة سافروا، فقد اضطرُّوا إلى الإقامة هناك في انتظار الموسم المقبل.

وفي الثاني والعشرين من رجب عام واحد ومائتين وألف (22 رجب 10/1201 أبريل 1787) استقبلهم الوزير والسلطان عبد الحميد الأول مرة ثانية، وخَلَع عليهم الخِلع السلطانية، وهيَّأ لهم الخيام والبهائم لحمل أثقالهم، وسافروا صحبة الرُّكب وأمير الصرَّة، واخترقوا بلاد الأناضول والشّام، ودخلوا دمشق، ثم تَوَجَّهُوا للحرمين الشريفين.

وبعد أداء فريضة الحج والزيارة، وإبلاغ الأمانة إلى أهلها، حسب المستطاع، رجعوا مع الركب أيضاً إلى الشّام، وذهبوا لبيت المقدس، وفازوا بزيارته والصَّلاة فيه، واجتمع ابن عثمان أثناء هذه الرحلة الميْمونة بجماعة من الأعلام، فأخذ عنهم، وكانت بينه وبينهم مراسلات ومخاطبات، ورجعوا إلى عكّا، ومنها أبحروا إلى المغرب أواسط ربيع الأول عام اثنين ومائتين وألف (أواسط ربيع الأول 1202 / أواخر يناير 1788)، وعرَّجوا في طريقهم على قُبْرص وتونس والجزائر، ومنها سلكوا طريق البرِّ إلى المغرب.

---

78) ص 81 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وكان دخولهم إلى فاس آخر شعبان عام اثنين ومائتين وألف (29 شعبان 4/1202 يونيو 1788). ثمّ التحقوا بالسلطان وهو بمخيمه بوادي العطْشان بين فاس ومكناسة.

قال ابن عثمان : فتبرّكنا بحضرته، والتمتّع برؤيته وختمنا أعمالنا بمشاهدة طَلْعَته ولله الحمد، وتعاطينا معه - أكرمه الله وأعزه - أخبار الحرميْن الشريفيْن والمشرق والشّام والقُسْطنطينية وغير ذلك من البلدان التي رأيناها، ومررْنا بها. اهـ.

وفي هذه الوجْهة، قيّد ابن عثمان رحلته الثالثة المسمّاة : «إحراز المُعلّى والرقيب في حج بيت الله وزيارة القُدس الشريف والتبرُّك بالحبيب» ومنها اقتبس النقيب أبو زيد ابن زيدان ما أدرجه في «إتحافه».

ونحن إنّما أدرجنا أخبار هذه السفارة هنا لأنّها صلة وصْل بين سفارتي العَوْني والصياني إلى تُرْكيا فيما يرجع إلى توثيق روابط الاتصال بينها وبين المغرب، وخصوصاً فيما يرجع للشؤون البحْرية، والتعاون على تقوية الأساطيل القرصانية، واطلاق سراح الأسرى المستعملين والمعذّبين بالأوْراش والمعامل الأوروبية.

ابن عثمان يصاحب الأسرى المُسرّحين إلى تلمسان.

ذكر ابن عثمان في آخر رحلته أنّ السلطان استقدمه لمخيّمه بقبيلة الحياينة، فقدم عليه، ووجد عنده جمعاً من الأسارى المسلمين وجّههم إليه ملك الإصبان هدية وإكراماً له، لأنّه لمّا تمّ الصلح بينه وبين أهل الجزائر، ووقع فداء الأسرى بينهما من الجانبيْن، على ما تقتضيه قوانين هذا الصلح المبرم، امتنع أمير الجزائر من إعطاء المال في هؤلاء الأسرى، كما فعل النصارى في أبناء جلدتهم وملّتهم، ولم يقبْل فداءهم بالنصارى، وإنّما قبض المال في أسرى الإصبنيول الذين عنده، ولم يَرِدْ بهم بدلاً بأسير مسلم، وأهمل هؤلاء المسلمين، وأبقاهم بأيدي الكافرين.

ولمّا بلغ ذلك لملك الإصبان، اغتاظ، وأعطاه ما أراد من المال في النصارى الذين على دينه، وجمع أسرى المسلمين، وبعثهم هدية مجّاناً للسلطان سيدي محمد بن عبد الله لِمَا يعلمه من حرصه على إنقاذ المسلمين، وأنّ هدية الأسارى عنده لا يعادلها شيء من هدايا الدنيا.

وقد كان عند الإصبان من أسرى المسلمين آلاف. فأنقذهم جميعاً لأنَّه منذ ولاّه الله أمر المسلمين وهو مُهْتَمٌّ بهم، وفي كل حين يسعى في إطلاق سراح طائفة منهم، إلى أنْ كان آخر من بقي من المسلمين بأيديهم هذه الجماعة.

وكلَّف السلطان ابن عثمان بإيصالهم إلى بلادهم، والنَّظر في ركوبهم وأكلهم وشربهم، فقام بذلك، وأوْصلهم إلى تلمسان وسلَّمهم لعاملها، وفرّق عليهم الصلّة التي نفّذ السلطان لهم، فنال كل واحد منهم عشرة مثاقيل.

المبحث التاسع

سفارة أبي القاسم الصيّاني إلى الدولة العثمانية[79]

التعريف بأبي القاسم الصيّاني

هو أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الصّياني - بالصّاد المشمّة زاياً كلفظ صراط في قراءة حمزة[80] - الكاتب الشهير، الرحّالة السفير، أحد مؤرخي الدولة الشريفة العلوية.

أفنى عمره الطّويل في خدمة عظماء ملوكها الذين عاصرهم : المولى محمد بن عبد الله، والمولى سليمان، والمولى عبد الرحمان ؛ وترجمته معروفة، ضمّنها في مؤلفاته، وخصوصاً «الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّاً وبحراً».

ولد بفاس سنة سبع وأربعين ومائة وألف (1734/1147)، ونشأ بها، وفيها كانت وفاته سنة تسع وأربعين ومائتين وألف (1833/1249)، وقبره معروف بالزّاوية النّاصرية بطالعتها، رحمه الله تعالى.

---

79) هذا الفصل ملخص من «الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا» للصياني نفسه، و«إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس»، للنقيب ابن زيدان.

80) «الاستقصا» ص 108 من ج 4، طبع القاهرة، وص 54 و 55 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

أسباب هذه السفارة وما راج فيها من السلف.

كان السبب الموجب لهذه السفارة هو أنَّه لمَّا كتب ابن عثمان ومن معه من تطوان إلى السلطان يطلبون منه أنْ لا يوجِّه معهم السفير التركي إسماعيل أفندي الذي صدرت منه التصريحات الراجعة إلى تونس والجزائر، لأنَّه ربَّما تُفسد عليهم عملهم بما يسمعون منه من الطَّعْن في الدولة، وأخَّره وأمره بالانتظار، كما تقدَّم في الفصل السابق قبل هذا، عيَّن أبا القاسم الصَّياني سفيراً إلى عبد الحميد الأول، زيادة على السفير ابن عثمان الذي تقدَّمه، ووجَّه له معه رسالة وهدية وأربعة آلاف قنطار (4.000) من النحاس كان طلبها منه، وكلَّفه بشراء بعض الكتب الحديثية النفيسة النادرة، وأصحبه السفير التركي الذي كان محصوراً بتطوان.

وذكر الصَّياني في «الترجمانة» أنَّه صدرت منه أثناء السفر أمور تدلُّ على حمقه من سبِّ المغرب ودولته، فأخذ بلحيته، وكاد يبطش به، لولا تدخُّل رئيس السفينة وأعوانه واستعطافه، فغضَّ الطرف عنه... اهـ.

سفر السِّفارة وما كان من أمرها

أبحرت هذه السِّفارة من مرسى الصَّويرة، وعرَّجت في طريقها على مالقة والجزائر وتونس، ومَنَعَ الصَّياني السفير التركي من الاتِّصال برجال الحكم بهما.

ومن تونس قصدت السَّواحل التركية، بعدما صادفت أهْوَالاً وزوابع في البحر، وصلت إلى إسطنبول، وتلقَّاها ابن عثمان ومن معه من رجال سفارته، وخصَّصت الحكومة التركية لأبي القاسم الصَّياني داراً جميلة لنزوله، وقابلته بمزيد الحفاوة ومظاهر الكرامة والاعتبار التَّام.

وزار مشاهد العاصمة ومعاملها الحربية، وخصوصاً البحرية القرصانية، ودار ضَرْبِ السكَّة، ومصانع الكاغد، والمعاهد الدينية، كالأضرحة والمساجد وخزائن الكتب، ولاحظ أنَّ الكتَّاب والنُّسّاخ يشتغلون فيها بدون انقطاع ولا فتور.

واعتنى بالبحث عن الكتب النَّفيسة والمخطوطات النَّادرة التي كلَّفه بها جلالة السلطان، وأمره باقتنائها، وهي :

- «مسند الإمام أبي حنيفة».

- «مسند الإمام الشّافعي».

- «مسند الإمام أحمد».

- «الطّريقة المحمّدية المختصرة في الإحياء».

وأهدى له الوزير :

- «إختصار المذاهب الأربعة» في سفر.

- «تأليف الدُّرر» المتداول عندهم في الفقه الحنفي، كـ«خليل» عند المالكية، وشرحه المسمّى : بـ «الغرر على الدُّرر»، وغير ذلك.

وفي أثناء إقامته واعتنائه بالبحث عن الكتب وجمعها، اصْطدم مع السفير ابن عثمان في إحدى المجالس الخاصّة عند بعض رجال الدولة، لمّا اختصر كتاباً له يسمى «كتاب الرّوم»، وكان بينهما جدال يدلُّ على المنافسة التي تكون غالباً بين ذوي الأقلام، وخصوصاً إذا كانت تجمعهم رابطة الأدب والرياسة. وقد سجّل الصّياني ذلك في «ترجمانته» بتفصيل.

استقبال الوزير والسلطان للصّياني ومسألة السلف

لمّا استقرّ الصّياني بإصطنبول، واستراح من تعب السّفر، واستأنس برجالها وذوي الأمر فيها، استقبله رئيس الوزراء يوسف باشا استقبالاً رسميا، ورئيس ديوان الكُتّاب، وغيرهما من رجال الدولة.

وبعد ذلك، قابله السلطان عبد الحميد الأول مقابلة خاصّة في وقت خصّصه له امتاز به عن غيره من السفراء الذين كانوا لا يقابلونه إلاّ في أوقات معلومة مُعَيَّنة.

وكان من جملة ما راج من المذاكرة في هذه الاستقبالات استفحال حرب الرُّوسْيَا للدولة العلية، وما تتطلّبه من النّفقات الباهضة، وهل يُمْكن للسلطان سيدي محمد بن عبد الله أنْ يعينها بسلف تُنْفقه في هذه الحروب الجهادية.

فأجاب فوراً بأنَّ سلطانه يعطي المال من عنده عطاءً لا سلفاً ليُنفق في الجهاد ونُصرة الإسلام.

وبعدما أقام الصَّياني بإصطنبول مائة يوم وعزم على الرجوع للمغرب، عيَّنت الحكومة التركية سفيراً من قِبَلِهَا يتوجَّه معه إلى المغرب وهو أحد الكُتَّاب العارفين بالعربية.

قال الصَّياني : «وعُرض عليَّ فقبلته وأثنيتُ عليه». ولكنَّه صدرت منه في الطريق أمور تدلُّ على حُمْقه ومحاولته الاستبداد عليه. وأصحبه عبد الحميد هدية وكتابا للسلطان سيدي محمد ابن عبد الله بطلب السلف.

وبارح الصَّياني إصطنبول في مركب خاص، اكتراه ليوصله إلى طنجة، فوصلها بعدما لقي عوائق في الطريق اضطرَّته إلى استبداله بمركب آخر.

وبمجرَّد وصوله، قصد الحضرة السلطانية، واجتمع بجلالة السلطان، وقصَّ عليه ما راج في سفارته من أوله إلى آخره، وما قال وقيل له، فاستحسن أجوبته.

ثم قدَّم له السفير التركي الذي جاء معه والهدية والرسالة الحميدية، وجاء فيها من جملة فصولها في الثناء عليه :

وبعد، فإنَّه وصلنا من مقامك الأسمى عشرون سفيرا، وأحسنهم عَقلاً ونُبلاً وسياسة وأدباً فلان (يعني أبا القاسم الصياني). إنه أدَّى لنا رسالتك وهديتك بأدب، وانفصل عنَّا بأدب، فمثله من يكون سفيراً بيْن الملوك، وإنْ اقتضى نظرك توجيه سفير من طرفك، فليكن هو، فإنَّ ظاهره وباطنه سواء.

ثم ذكر أنَّ الوزير يوسف باشا كتب للسلطان كتابا آخر وزاد فيه :

وسُررْنا بقدوم فلان (يعني الصَّياني)، فإنَّه من أكمل ذوي المحبَّة في الدولتين، ومثله عزيز الوجود.

ثم قال الصَّياني : ولما قُرئت المكاتب على السلطان سُرَّ بها سرورا عظيما، ودعى لنا بخير وأثنى خيرا.

ولمَّا خرج للمشور، أمر بقراءة تلك المكاتب في الملأ وقال : هكذا نحبُّ أصحابي. جزاك الله خيرا، وإنِّي لا أوجِّه الهدايا للعثماني إلاَّ معك، ولا أوجِّه المراكب إلا مع الطَّاهر فنِّيش لحضوره في المشْور جبراً لخاطره.

السلف

بعد المذاكرة في مسألة السَّلَف، والاستشارة مع الصّياني في العدد، قال له : لا أقلَّ من مليونيْن بحسب سِكّتكم، وقيمتها بالسكّة المغربية ستمائة ألف ريال وخمسون ألفا من الدُّورو (650.000).

فأمر، رحمه الله، في الحين بالعدد المذكور أن يُسبك سبائك من الذهب، وجعلها في أربعة صناديق، وختم عليها، ووجَّهها لملك إصبانيا يوجِّهها لملك فرنسا ليبلِّغها ليد السلطان عبد الحميد الأول بإصطنبول.

فجاء الجواب بوصولها في ستِّين يوما، والسفير التركي لازال مُقيماً عنده، والتحق به سفير آخر جاء لهذا الغرض.

ولمَّا جاء الجواب ببلوغ المال أطلعهما عليه، فتعجَّبا من عُلوِّ همَّته ومسارعته لأفعال البِرّ.

وحينئذ كتب لَهُمَا الجواب وأكرمهما إِكْرَاماً كبيرا يفوق إكرامهم لمن ياتيهم من المغرب من خُدّامه، ووجَّههم لحال سبيلهم.

وكان مراده، رحمه الله، من توجيه هذا المال على يد ملكي إصبانيا وفرنسا إظهار عُلو هِمَّته، وسمو قدره ومكانته، وفخره عليهم بغناه وثروته، رحمه الله تعالى.

تلخيص ما أعان به
السلطان سيدي محمد بن عبد الله
الدولة العثمانية من الأموال والأعْتِدة الحربية.

لخَّص أبو القاسم الصياني في «تُرجمانته»، بعد ذكر هذه الإعانة، ما وجَّهه السلطان سيدي محمد بن عبد الله من الأموال والعتاد والعدة الجهادية للدولة العثمانية على التوالي فقال :

- وجَّه السلطان سيدي محمد بن عبد الله للدولة العثمانية في المرة الأولى، مع القائد مبارك بن حمّاد والأمين الحاج عبد الله الشُرفي ستمائة ألف ريال (600.000)، ركبوا بها من مرسى طنجة.

وبعد أيام :

– وجّه لها على يد ملك إصبانيا مائتين واثنين وسبعين ألف ريال دورو (272.000)، كان أعَدَّها لفكاك الأسرى المسلمين بمالطة، فلم يقبلوها وردوها، وندموا على بيع الأسرى، فوجهها للحكومة العثمانية. وقال لها : هذا المال كُنَّا أخرجناه في سبيل الله بقصد فكاك أسراكم وحيث جحد الكفّار البيع لا يرجع إلينا، واصرفوه في الجهاد.

– ثمَّ وجه لها بعد هذا مائة وخمسين ألف ريال (150.000)، وقال للسلطان عبد الحميد الأول : اصرفها بنظرك. إمَّا في الحرمين أو في الجهاد.

– ثمَّ وجَّه لها أربعة آلاف (4.000) برميل من البارود في كل برميل قنطار مع الطَّاهر فنِّيش.

– ثمَّ وجَّه لها اثني عشر ألف (12.000) قنطار من ملح البارود كان طلبها السلطان منه في أربعة مراكب، كل مركب فيه ثلاثة آلاف، مع العوني مركب، ومع عبد العزيز الصنهاجي مركب، ومع الزّوين مركب.

– ثُمَّ وجه لها أربعة مراكب من قراصينه مع العبّاس مورينو الرباطي برؤسائها.

– ووجَّه لها مع الصياني نفسه أربعة آلاف (4.000) قنطار من النحاس كانت طلبتها منه.

– وعلى إثرها وجَّه لها أربعة مراكب قُرْصانية أخرى مع الطاهر فنِّيش السلاوي في السفرة الثانية.

– وبعدها، الستمائة وخمسون ألف ريال (650.000) المتقدمة الذكر.

– وكان وجَّه مع غير هؤلاء قبل هذا خيلاً بسُروج مذهبة منبَّتة بالياقوت والزُّمرد، وأسلحة من أسلحته، من الذهب المنبَّتة بالياقوت والزمرد، كل ذلك قصد به وجه اللّه وثوابه العظيم.

هذا وقد تعرَّض الأستاذ رفيق بك العظم في «رسالة الجامعة الإسلامية»[81]، لهذه المواصلة التي كانت بين الدولتين المغربية والتركية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله والسلطانيْن مصطفى الثالث وعبد الحميد الأول، ولم يحقِّق الكلام في الموضوع، وذكر اسم سفير مغربي مُحمَّد بن العربي ولا نعرفه.

81) ص 75-76، طبع المنار سنة 1344.

والواقع حسب ما تقدَّم تفصيله، هو أنَّ السفارات تعدَّدت بين الدولتين الإسلاميتين في أوقات مختلفة، وأسباب مُتعدِّدة، منها فداء الأسرى والإعانة على الجهاد، وطلب السَّلف لمواصلة الحرب مع الرُّوسيا، وغير ذلك من الموجبات والأسباب، كما هو مبسوط ومعررف عند المؤرخين المغاربة الذين اعتنوْا بحفظه وتدوينه.

كما أنَّ الدولة العثمانية كانت تكافئ على هدايا السلطان سيدي محمد بن عبد الله بهداياها المتوالية من تُحَف وطُرَف ومدافع وآلات حربية ورجال فنّيين اشتغلوا في الجيش واستعملوا في القرصنة المغربية، وتدريب المغاربة من السَّلاويين والرِّباطيين على الرماية، وأظهروا خبرة وتفوُّقا كبيرا، وحصل النَّفع بهم، وقد تقدَّمت الإشارة إلى ذلك كله في محلِّه.

وكلُّ ذلك من التعاون على البرِّ والتقْوى، والاعتماد على الجانب الأقوى، والمسلمون حيث ما كانوا إخوة، يشدُّ بعضهم إزر بعض إذا اتَّحدوا ؛ وإذا اختلفوا انحلَّت عُراهم، وضَعُفت عزائمهم واختلَّ نظامهم، وطغى عليهم عدوهم، ألهمهم الله التمسُّك بحبل الاتِّحاد والاتِّصال، وعدم التَّقاطع والتَّدابر والانفصال، وهو سبحانه المتصرِّف الفعَّال، الكبير المتعال.

المبحث العاشر

سفارة القائد مُحمّد الزّوين
إلى السلطان عبد الحميد الأول مصحوبا بالأسرى الأتراك

قال النقيب أبو زيد ابن زيدان في تاريخ مكناس[82] :

في سنة ثلاث ومائتين وألف (1789/1203)، أرسل السلطان سيدي محمد بن عبد الله القائد محمد الزّوين، ولد القائد عبد الله الرّحْماني، وأخَا زَوْجِه السيدة البتول الرحمانية، سفيراً إلى السلطان عبد الحميد الأول، ومصحوباً بالأسرى الّذين أُنقذوا ممّا كانوا فيه، وهدية من جملتها ثلاثون وصيفاً من الأرِقّاء، وفرسان من الصّافنات الجِياد، وسرجان مزركشان بالذهب، مُرَصّعانِ بأنفس الجواهر، وسفن أربع، عدة رجالها نحو أربعمائة رجل، بين رؤساء وبحرية وطبجية.

وكان رؤساء تلك السفن التي ذهبوا بها :

- الرئيس علي الصّابُونْجِي السلاوي[83]
- الرئيس قدُّور شايَبْ عينو الرباطي
- الرئيس عبد اللّه العسْري السلاوي
- والرئيس مُحمَّد العُنْقي الرباطي، التركي الأصل[84]

---

82) ص 306 من ج 3.

83) مازالت بقايا هذه الأسر المنسوب إليها هؤلاء الرؤساء موجودة معروفة بسلا ورباط الفتح.

84) لعلّه هو الذي يُنسب له درب العُنْقي برباط الفتح.

حسبما وُجدت أسماؤهم بخط كاتب الديوان الجهادي بسلا في ذلك العهد، سيدي عبد القادر الجُعيدي.

ونصّ الكتاب الذي توجّه به السفير المذكور :[85]

المقام المتوّج بتاج العز والعناية والسيادة، والمحلّى بحلية الفضل والمجادة، البالغ في أفعال الخير حدّ النهاية، والكوكب الطالع في برج اليُمْنِ والسعادة، معدن السّادات الأخيار، الأجلاء المجاهدين لأعداء الله الكفّار، من جعلهم الله حماة الإسلام، وأنام سبحانه في ظلِّهم جميع الأنام، سلطان البرّيْن، وخاقان البحريْن، وخديم الحرميْن الشريفيْن، السلطان بن السلطان، عبد الحميد خان، بن أحمد خان، جعل اللّه أيامهم السعيدة محمودة، ومآثرهم الكريمة شهيرة مشهودة.

سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وتحياته ورضوانه.

أمّا بعد، فيصل حضرة أخينا المنصور بالله، صحبة خديمنا القائد مُحمّد بن عبد الله، خمسمائة أسير وستة وثلاثون أسيرا (536)، منّ الله تبارك وتعالى عليهم وأنقذهم من الأسر، والحمد لله الذي منّ علينا بإنقاذ إخواننا المسلمين من يد الكفرة.

كما يصل حضرة أخينا العلية باللّه أربعة مراكب من مراكبنا الجهادية هدية منا إليك. ونطلب الله النّصر والتّمكين، والفتح المبين، لنا ولكم ولسائر المسلمين، وأن تكون عساكر المسلمين أعزة منصورة، وأعداء الله الكفرة أذلّة مقهورة. والسلام.

في أوائل شعبان عام ثلاثة ومائتين وألف

(أوائل شعبان 1203/أواخر أبريل 1789)

---

85) «العز والصولة في معالم نُظُم الدولة» للنقيب أبي زيد ابن زيدان، ص 287 من ج 1، المطبعة الملكية، عام 1380.

الفصل الثالث

عن السفارتين المبعوثتين
إلى النامسا والطوسكان واصبانيا
لتسوية مسائل الأسرى،
وعقد صلح دائم وغير ذلك

المبحث الأول

سفارة عامل طنجة مُحمّد بن عبد الملك
إلى ڤيينا لتسوية مسائل الأسرى
وعقد صلح دائم.

طنجة وآل علي بن عبد الله الريفي.

كانت ولاية طنجة، منذ فتحها المولى إسماعيل، واسترجعها من يد الإنجليز، في آل علي ابن عبد الله الريفي زمناً طويلا، تعاقب عليها جماعة منهم، وتوارثوها خلفاً عن سلف، كأنَّها إقطاع لهم، إلى أن انْتُزِعَتْ منهم، لمَّا عُزل وامتُحن الباشا عبد الملك بن أحمد بن علي بن عبد الله، وخلفه عليها قائد من الجيش المغربي سنة تسع وسبعين ومائة وألف (1179/1766)، في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله.

وبعد ذلك بمُدَّة يسيرة تولَّى عليها عامل آخر من أسرة ريفية أيضاً من نسب الأسرة الأولى، وفرع من فروع شجرتها، وهو الباشا مُحمَّد بن عبد الملك، السفير المترجَم له، من أحفاد القائد أحمد بن حدّو الريفي الفحصي الشهير.

وقد كان قبل ذلك ولياً على المهدية، ولم يلبث بها إلاَّ قليلا حتَّى استرجعه السلطان سيدي محمد بن عبد الله منها إلى طنجة بصفته عاملاً عليها.

ثُمّ أخَّره عنها، واستعمله في وظيفة أخرى، وبعد مدة يسيرة ردَّه إليها ثانية، وأضاف له الفحص كله، وذلك في حدود سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف (1192/1778). ومن هذا التاريخ، تعاقب عليها أولاده وأحفاده من بعده كولده عبد الملك، المعروف بملّوك سنة ثمان وتسعين ومائة وألف (1198/1784).

وأحمد بن عبد الملك في حدود سنة ست ومائتين وألف (1792/1206).

وعبد الله بن عبد الملك، المعروف بعبّو، في حدود سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف (1797/1212).

وهكذا تداول الريفيون وآل عبد الصادق ولاية طنجة دهراً طويلا[86].

وقد كان مُحمد بن عبد الملك من القوّاد والعُمّال البارزين الممتازين في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله يُقدمه في مهمات، ويُسند إليه السفارات، فيُجلّي فيها.

بعثه إلى الطوسكان (La Toscane) لفداء الأسرى.

ومن ذلك أنه بعثه إلى الطوسكان، دوقية بإيطاليا الوسطى لتصفية مسائل الأسرى، فنجح في مأموريته.

قال جاك كايي في «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» :[87]

في شهر مايو سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (مايو 1778/ ربيع الثاني 1192)، وردت على مرسى طنجة دارعتان روسيتان من مدينة ليڤورن (Livourne) الإيطالية الطوسكانية، ومعهما المبعوث السلطاني، القائد محمد بن عبد الملك صحبة الأسرى المغاربة المُحرّرين الذين قدّمهم دوق طوسكان هدية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، وهدايا أخرى نفيسة.

وعَجِبَ السلطان من كرم هذا الدوق مع أن المعاهدة التي كانت عُقدت معه قبل ذلك بثلاثة أشهر، تنصُّ على أنّ فداء الأسرى بين الطرفين يكون بالشراء أو العوض.

وقد تقدّمت الإشارة إلى هذه القضية في فصل معاهدات سيدي محمد بن عبد الله وما بَذَلَهُ من الجهود في فداء الأسرى.

---

86) «مدن وقبائل المغرب، طنجة وإقليمها»، ص 38 وما بعدها.
"Villes et Tribus du Maroc, Tanger et sa Région"

87) ص 97.

سفارته إلى ڤيينا (Vienne) للاتِّفاق على السلم المستمر وتحرير الأسرى من الجانبين.

أمَّا سفارته إلى ڤيينا فقد جاء من نبئها في كتاب : «سفارة نمساوية بالمغرب سنة 1805 (1220) لجاك كايي [88]، و«معاهدة سيدي محمد بن عبد الله» لنفس المؤلف، ما حاصله :[89]

إنَّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان وجَّه عامل طنجة محمد بن عبد الملك سفيراً إلى ڤيينا سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وألف (1197/1783).

وكان وصوله إليها يوم العشرين من أبريل (20 أبريل/17 جمادى الأولى) من السنة، ومعه جماعة من الأتباع والخدم، فتلقّاه مستشار الدولة ونائبه، وبعد ذلك ببضعة أيام، استقبله الامبراطور جوزيف الثاني استقبالاً رائعاً في موكب حفيل حُشر الناس لرؤيته في الطرق التي مرَّ منها، يتقدَّمه تسعة من خيالة الجيش الامبراطوري، وأربعون من المشاة رماة القنابل (Les grenadiers)، وبعدهم رئيس الإسطبل السلطاني الذي جاء مع السفير يقود ثمانية من عتاق الخيل المسوَّمة المغربية، هدية من سلطان المغرب إلى الإمبراطور، وعلى الأول منها سرج مذهب مرصَّع بالأحجار الكريمة، وعلى الثاني سرج محلًّى بالذهب والفضَّة، وعلى باقيها سروج رفيعة مكْسُوَة بأغطية حريرية، ثم عربة الإمبراطور يقودها ستة من جياد الخيل، ويكتنفها خادمان في هيأة خاصَّة، وبداخلها السفير المغربي محمد بن عبد الملك المذكور، متجمِّلاً بزيٍّ الحفلات الرسمية ومعه رفيق له في السفارة، وتُرجمانه الخاصّ، وكاتب البلاط الإمبراطوري.

ومن وراء العربة أربعة من خيالة الجيش المغربي يختالون في مشيتهم بخيولهم، وخلفهم أربع عربات أخرى يركبها باقي رجال السفارة.

ويكتنف الموكب، زيادة على هذا، فرقة عسكرية تتركَّب من ثمانين من مشاة الجيش الإمبراطوري.

ولمَّا قابل الإمبراطور السفير سلَّم له الرسالة السلطانية المتضمِّنة اعتماده ورغبته في عقد مهادنة وسلم مستقر مستمر.

---

88) ص 11، و ص 115.

89) ص 216.

فأجابه بأنه شديد الرغبة والتشوُّف إلى عقد هذه المهادنة لِمَا فيها من مصلحة الجانبين برّاً وبحرا، وعيَّن من طرفه من سيتذاكر في إنجازها وتحرير موادِّها وفصولها.

فاتَّفق الطرفان على مشروع معاهدة سابع عشر أبريل سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وألف (17 أبريل 14/1783 جمادى الأولى 1197).

وبعد ذلك بثلاثة أشهر، وجَّه الامبراطور أحد كُتَّاب بلاطه إلى المغرب لإنجاز المصادقة عليها، فوصل إلى طنجة في ثاني عشر غشت (12 غشت/13 رمضان) من السنة.

وفي الرابع والعشرين من يونيو سنة أربع وثمانين وسبعمائة وألف (24 يونيو 5/1784 شعبان 1198)، صادقت الدولة المغربية على المعاهدة المذكورة، وأصبحت نافذة المفعول.

وفي رابع يوليوز (4 يوليوز/15 شعبان) من السنة، أبحر من طنجة راجعاً إلى بلاده بعدما أتمَّ ماموريته.

– وقد تضمَّن الفصل الثاني من هذه المعاهدة أنَّه إذا التقى في البحر قرصان مغربي مع قرصان نمساوي، فيكفيه أن يُوجِّه ملاَّحيْن من طرفه للوقوف على باسبورط القرصان النمساوي.

– وتضمَّن الفصل الثالث أنَّه يكفي الاطلاع على الأوراق الرسمية من أعلى السفينة دون الطلوع إليها، خوفاً من الحجر الصحي (الكرانتينة).

– وتضمَّن الفصل السادس إلغاء الأسر بين الطرفين، وأنَّ كل شخص من رعية سلطان المغرب وإمبراطور النامْسا، لا يُعتبر أسيراً في مملكة أحدهما.

وإنْ عثر عليه أحد الطرفين في سفينة معادية لهما أو لأحدهما من السفن الأجنبية في البحر، فإنَّه لا يُعتقل، ولا تُطبَّق عليه أحكام الأسرى ولا تُحجز سلعه التي تكون معه، وذلك بعد التحقُّق من جنسيته ونسبته لإحدى الدولتين المتعاهدتين.

– وباقي الفصول تتضمَّن حسن المعاملة، والأمن في التجارة، وكيفية معاملة التجّار.

وقد جُدِّدت هذه المعاهدة مرتين بتعديل خفيف في بعض فصولها :

– الأولى في العهد السليماني بتاريخ رابع يليوز سنة خمس وثمانمائة وألف (4 يوليوز 6/1805 ربيع الأول 1220).

- والثانية في العهد العبد الرَّحْماني بتاريخ تاسع عشر مارس سنة ثلاثين وثمانمائة وألف (19 مارس 24/1830 رمضان 1245) بسبب الحوادث الحربية القرصانية التي حَدَثَتْ بين الدولتين حسبما سيأتي بيانه في محله بعد هذا، إن شاء الله.

نظرة عامّة على سياسة سيدي محمد بن عبد الله الخارجية ومآلها.

علمنا مِمَّا تقدم في الفصول السابقة، وأخبار السفارات المتلاحقة المتناسقة، في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ما كانت عليه حالة الأسرى المُفرَّقين والمُعذَّبين بالدول الأوروبية، وما بذله، رحمه الله، من الأموال الباهضة، والجهود العظيمة في إنقاذهم، وردِّهم عاجلاً إلى أوطانهم وعُشِّهم وبلادهم وأولادهم، وعوائدهم وأخلاقهم ودينهم، من غير اعتبار لجنسية أو عنصرية أو دولة شرقية أو غربية، إذ كان لا يعتبر إلاَّ الجامعة الإسلامية، والرابطة الدينية ؛ وعلمنا أيضا كُنْهَ سياسته الخارجية، المبنية على عقد العهود السلمية، مع سائر الدول الأجنبية، ما عدا الدولة الروسية لمحاربتها للدولة التركية، والاستفادة منها بما يعود بالنفع المحقَّق على مملكته ورعيته، سواء من الناحية التجارية أو الفنية.

وأنَّه كان يعمل كل ما في وسعه وطاقته للاتِّحاد مع الدول الإسلامية، سواء المُتَّصلة به، كالجزائر وتونس، أو المنفصلة عنه كالدولة العثمانية والدول التابعة لها من الممالك الشرقية، وأنَّ ذلك عاد بالنفع المحقَّق على الطرفيْن، وحمدت عُقْباه من الجانبين، وأحدث دوياً تردَّد صداه في أقطار المِلَّتيْن، الإسلامية والمسيحية، واستمرَّ ذلك منذ تبوَّأ عرش الخلافة العلوية، بعد وفاة والده، رحمه الله، سنة إحدى وسبعين ومائة وألف (1757/1171)، إلى أنْ انتقل من هذه الدار الفانية، إلى الدار الباقية، سنة أربع ومائتين وألف (1789/1204).

وسنرى فيما يلي ما آلت إليه بعد وفاته حالة السياسة الخارجية في المغرب في عهد الدولتيْن اليزيدية والسليمانية، وما بعدهما، وما نشأ عن ذلك من الحروب مع بعض الدول الأجنبية وخصوصاً الموالية للمغرب كإصبانيا والمستولية على بعض ثغوره ومراسيه كسبتة ومليلية، وما نتج عن ذلك من استفحال القرصنة الأوروبية بالسواحل المغربية، وأنَّها استأنفت هجومها على سفن الدولة حيثما وجدتها تغنمها، وتستولي على ما فيها، وكثر الأسْر براً وبحراً، وبذلك عادت هَيْفُ إلى أديانها.

المبحث الثاني

سفارة ابن عثمان في العهد اليزيدي
إلى سبتة وإصبانيا
لتسوية مسائل الأسرى وغير ذلك.

لمّا تُوفي السلطان سيدي محمد بن عبد الله في التاريخ المتقدِّم، وبُويع ولده السلطان المولى اليزيد، انضمّ إليه وزراء والده، وأعيان دولته، وكان ابن عثمان في جملتهم، فاستعمله فيما كان يستعمله فيه والده من مباشرة الشؤون الخارجية، والاتِّصال بالدول الأجنبية.

وقد كانت مسألة مدينة سبتة من أهمّ المسائل الشاغلة بال الدولة المغربية في ذلك العهد، وتظاهرت إصبانيا بالرَّغبة في البقاء على ما كانت عليه من الصلح والمهادنة مع المغرب، ووعدها السلطان الجديد المولى اليزيد بإعادة النظر في ذلك الصلح وأحكامه وفصوله، ولكنَّه علّق وعده على مجيء سفير إصباني إليه والمذاكرة معه فيه وفي المسائل المتعلِّقة به. وطالت المدَّة ولم يَأْتِ السفير المطلوب وراجت بين المولى اليزيد والقنصل الإصباني بطنجة وحاكم سبتة رسائل ورُسُل بلا فائدة ولا نتيجة، وتبيَّن له أنَّها إنَّما كانت تُسِرّ حسواً في ارتغاء، لا غيْر.

ثم توالت الأيام، ولم يظهر أثر للسَّفير المنتظر، وبَدَا في أُفق السياسة الإصبانية نحو المغرب سحب المُراوغة والخداع وتربُّص الدوائر، وطالبت السلطان بتوجيه سفير من قِبَله إليها يتذاكر معها. فوجَّه كاتبه أبا عبد الله مُحمد بن عثمان سفيرا إلى حاكم سبتة، رغْياً لتقدم سفارته إلى إصبانيا، واطّلاعه على أحوالها، ومعرفته بمسألة سبتة وتقلُّباتها في سائر أطوارها، في عهد والده وقبله، وبيَّن له ما يبني عليه مذاكرته معه.

فسافر ابن عثمان إلى سبتة، وأقام بها أحد عشر شهرا، ولم يحصل على طائل.

وفي أثناء هذه المدَّة حدثت حوادث قرصانية، أُسر فيها بعض وجوه المغاربة، فرأى المولى يزيد أنَّه تعيَّنت محاربتها، ونقض الصلح المعقود معها.

ومن ذلك أنَّ أحد خُدّام السلطان القائد مُحمد الزَّوين كان راكبا في سفينة إصبانية وأراد النزول بطنجة، فمنعه رئيسها، وساقه أسيراً إلى قادس.

وفي «الاستقصا»، نقلا عن منويل القشتيلي[90]، أن المولى اليزيد هو الذي تظاهر بعداوة إصبانيا، ولم يحفل بسفيرها لمَّا جاء مُهنِّئا له بالمُلك بطنجة، وأنَّه عمد إلى من كان بمراسيه من نصارى الإصبانيول، تجّاراً أو فْرايلية، وقبض عليهم، وسلكهم في السَّلاسل، وساقهم إلى طنجة، فحبسهم بها.

قال : وكانت قراصين المسلمين الحربية يومئذ ستة عشر قرصاناً، وبها من المدافع ثلاثمائة وستة مدافع، وعقّب عليها مؤلف «الاستقصا» بقوله :

قُلت : تقدَّم أنَّ القراصين كانت أكثر من ذلك بكثير. اهـ.

واستمرَّ النصارى محبوسين بطنجة إلى أن اتَّفق أنْ كان قرصان الإصبانيول يطوف بساحل العرائش، فظفر بمراكب منها هنالك وأسر بعضها.

وكان المولى اليزيد يومئذ بالعرائش، فنظرها بمرآة الهند «المرآة المقرِّبة» وهو على سطح داره إذْ أسروهم، فبعث الصَّريخ في أثرهم ففاتوه.

ثم وقع التفادي بينه وبين الطاغية في أولائك الأسرى بأسرى طنجة». اهـ.

وفي أثناء هذه الحوادث كتب رسالة إلى حاكم سبتة يُصرِّح له فيها بأنَّه حيث لم تأت سفارة ابن عثمان بنتيجة تُذكر، فإنَّه يطالب بالجلاء عن سبتة، أو دفع الجزية، أو القتال، وأجَّل له أجلا لا ريْب فيه للقبول أو الردِّ، ولكنَّ إصبانيا أعلنت الحرب على المغرب قبل انتهاء الأجل.

وفي ثالث عشر محرم، فاتح سنة خمس ومائتين وألف (13 محرم 22/1205 شتنبر 1790)، انسحب القنصل الإصباني من طنجة وأخذ معه في مركبه كافة الإصبانيين الذين كانوا بطنجة.

---

90) ص 126 من ج 4 طبع القاهرة. وص 108، ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وحاصر المولى اليزيد سبتة وضيّق عليها، ونصب أشبارات حولها، وكان جلُّها لفنانشة سلا.

ثم تطوّرت الحرب بينه وبينها، حسبما بسط أطوارها المؤرِّخون، وأخيراً رفع الحصار عنها، وكتب إلى ملك إصبانيا شارل الرابع يُظهر له الميْل إلى الصلح وحسن المعاملة، ووعده ومنّاه، كما كان الأمر بينه وبين والده رحمه الله.

وأخبره بأنَّه وجّه كاتبه ابن عثمان الذي كان بسبتة سفيراً إليه ليعقد الصلح والمهادنة معه. ثم بدا له فعزله عن هذه السفارة وأسندها لابن عمِّه مولاي علي بن أحمد بن إدريس بن إسماعيل.

ولكنَّ ابن عثمان بقي بإصبانيا يحاول رتْق الفتق إلى أن جدَّد له المولى اليزيد السفارة مرَّة ثانية بتاريخ خامس صفر عام ستة ومائتين وألف (5 صفر 4/1206 شتنبر 1791).

وبعد رفع الحصار عن سبتة، توجّه المولى اليزيد إلى مراكش، وأصيب بجروح أثناء حروبه مع أخيه المولى هشام، تُوفي منها، رحمه الله، في الثالث والعشرين من جمادى الثانية سنة ست ومائتين وألف (23 جمادى الثانية 17/1206 يبراير 1792)، وانتهت بوفاته حروب سبتة والمطالبة باسترجاعها، وسفارة ابن عثمان والمخابرة في شأنها، ورجع إلى المغرب بعد ذلك.

ومن الحوادث التي وقعت في ذلك العهد، ولها اتِّصال بسفارة ابن عثمان بإصبانيا ومخابرته معها، ما ذكره أبو عبد الله الضعيف في «تاريخه»[91]، أن المولى اليزيد أمر قواده الجيلاني بن المفضل ومُحمد قَنْجاع، والحاج عبد الرحمان عَشْعاش بالمفاوضة مع قائد سبتة في الحدود وعدم تعدِّيها، وأنَّهم أثناء المفاوضة مع ترجمانه أغلظ لهم القول، وتعدَّى حدود الأدب معهم، فقتلوه وقطعوا رأسه ووجَّهوه للسلطان[92].

ولمَّا بلغ خبر هذه الحادثة للسفير ابن عثمان، وجَّه رسالة للوزير الإصباني الكوندي دو فلوريدا بلانكا بتاريخ ثالث رجب عام ستة ومائتين وألف (3 رجب 26/1206 يبراير 1792)، بيَّن له فيها الحقيقة، ثمَّ أردفها برسالة أخرى للوزير الإصباني الجديد الكوندي دو أراندا بتاريخ عاشر رجب (10 رجب/4 مارس) من السنة، وبذلك تمَّت القضية.

91) ص 164 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

92) «تاريخ تطوان» للأستاذ محمد داوود، ص 190 من ج 8 القسم 2 من المجلد الثالث.

بقية أخبار السفير ابن عثمان إلى وفاته

لمَّا كان هذا السفير من السفراء الذين جالوا في ميدان السياسة المغربية خارج المغرب وداخله، وخصوصاً في ما يرجع لفداء الأسرى وعقد المعاهدات المتعلِّقة بهم، وحيث تقدَّمت طائفة من أخباره وحياته وانتقالاته، فلا بأس أن نُذيل ذلك بنبذة موجزة عن بقية أخباره إلى وفاته تتميماً للفائدة، ووصلاً للسّابق باللاَّحق فنقول :

لم نقف حتّى الآن على تاريخ تعيين رجوعه من سفارته الثانية بإصبانيا بالضَّبط، وإنَّما الثابت عندنا هو أنَّه لمَّا تُوفي السلطان المولى اليزيد، واجتمعت الكلمة على بيعة أخيه السلطان المولى سليمان، استقدمه إليه، والتحق به، وكان من جملة أعوانه والكُتَّاب الممتازين بديوانه.

وحيث كان بهذه المثابة والحُظْوة، ولاَّه على تطوان سنة سبع ومائتين وألف (1793/1207) لأهميتها الحربية وموقعها من شمال المغرب وقُربها من سبتة ومليلية، لاسيما بعدما وقع بها من الاضطراب في عهد السلطان المولى اليزيد ودعاية المولى مسلمة إلى نفسه بعد وفاته.

والظّاهر أنّه اختاره لولايتها لمعرفته بأحوالها واتِّصاله بأهلها ومخالطة الأجانب النّازلين بها.

وقيل إنَّ ولايته عليها كانت قبل ذلك في آخر عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وأنَّها شملت حتى خطَّة القضاء.

وعلى كل حال، ففي أول العهد السليماني، كان ابن عثمان متولِّياً على تطوان ومكلَّفاً بالشؤون الخارجية بها حسبما يوخذ ذلك من رسائله الرَّسمية الصَّادرة منه في ذلك العهد، ولكن لم تطلْ ولايته بها أكثر من سنة(93).

والرّاجح أنّه بعد انفصاله عنها، التحق بالبساط السلطاني، وانضمَّ إلى رجال الحكومة، واشتغل بمباشرة مهمَّته الكتابية والوزارية إلى سنة إحدى عشرة ومائتين وألف (1211/1796-1797)، فوجَّهه المولى سليمان إلى آسفي ليأتي بالقائد عبد الرحمان بن ناصر العبدي الذي كان ثائراً عليه، ومستوليا على آسفي، وإنْ امتنع يعتبر امتناعه إذْناً بالحرب.

---

93) يراجع «تاريخ تطوان» للأستاذ محمد داوود، ص 384 وما بعدها من ج 3 من المجلد الثالث، ففيه مزيد تفصيل.

ولمّا وصل إلى آسفي، وجده مريضا، واعتذر بمرضه عن الوفادة على السلطان، ووجّه له بيعته، وأدّى طاعته.

وفي السنة التي بعدها، وهي سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف (1797/1212-1798)، ورد على السلطان بمراكش سفير إصباني لتجديد شروط الصلح والمهادنة بعد الفتور الذي حصل في المواصلة بين الدولتين المغربية والإصبانية بسبب الحروب اليزيدية، فقدّمه للمذاكرة والمخابرة معه فيما جاء لأجله، وتمّ الاتّفاق بينه وبين هذا السفير على صكّ صلح جديد يتضمّن ثمانية وثلاثين شرطاً مرجعها إلى الصلح والأمان من الجانبين إلاّ أنّها أشدّ بيسير من الشروط التي انعقدت مع السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله. ومن ذلك أن شروط سيدي مُحمد كانت تتضمّن أنّه إذا تشاجر مسلم ونصراني، فالذي يفصل بينهما فهو الحاكم، إلاّ أنّ القنصل يحضر وقت الفصل عسى أن يدفع عن ابن جنسه بحجّة إن كانت، وصارت شروط السلطان المولى سليمان تتضمّن أنّ كلّ واحد منهما يتولّى أخذ الحق منه حاكمه ويدفعه لخصمه. وإذا فرّ نصراني من سبتة أو مليلية أو نَكور أو بادس، وأراد إسلاماً فلابدّ من حضور القنصل إنْ كان، وإلاّ فالعدول يسمعون منه، ثم شأنه وما يريد[94].

قلت : وهذه من جملة الامتيازات التي كان يحرص الأوروبيون على الحصول عليها بكلّ وجه ممكن، وقد تفاحش ضررها بعد ذلك حتّى أصبحت حقّاً من الحقوق المكتسبة، أو المغتصبة.

ولمّا حصلت بعض الصعوبات في المواصلات السياسية بين فرنسا والمغرب سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف (1212/1798-1213)، بسبب حجز قراصنة فرنسا لسلع بعض المغاربة، وردّها إليهم بعد أخذ وردّ وتوجّه أولائك المغاربة إلى فرنسا مطالبين بحقوقهم، كتب الوزير طاليران (Talleyrand) إلى ابن عثمان رسالة بتاريخ فاتح ابريل سنة تسع وتسعين وسبعمائة وألف (1 أبريل 25/1799 شوال 1213)، تنبئ عن اعتبار وتقدير كبير ووجّه له معها طَبَنْجِيتَيْنِ هدية[95].

ويقول الفرنسيون : إنّه كان له تأثير كبير على السلطان المولي سليمان، بحيث كان لا يردّ له رأياً فيما يرجع للعلاقات الدولية الأوروبية مع المغرب.

---

94) «الاستقصا»، ص 138 من ج 4، طبع القاهرة. وص 137 و 138، ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

95) (La Mission du Capitaine Burel au Maroc, par Jacques Caillé, p. 12)

وقد كانت هذه الحادثة قبل وفاته، رحمه الله، بمدة قصيرة، وكان هذا آخر عمل سياسي قام به.

والحاصل من أخباره، وتقلُّباته في الوظائف الإدارية والسياسية، وتنقُّلاته بين العواصم الأوروبية والشرقية، منذ برز في ميدان الكتابة والوزارة في عهد الدولة المحمدية إلى أواسط الدولة السليمانية، أنَّه كان ذا خبرة واطِّلاع على أحوال الدول الدَّانية والقاصية، مع ميْل ظاهر في سياسته إلى إصبانيا، وبذل المجهود في المحافظة على الاتِّصال بها، وعدم الانفصال عنها، حسب ما يوخذ ذلك صراحة من رسائله إلى ملوكها ووزرائها، لتردُّده عليها، ومعرفتة بها، وبحضارتها في ذلك العهد. وهو معدود من الرحّالين الجوّالين في الممالك والدول الأوروبية والإسلامية التي على سواحل البحر الأبيض المتوسط، إذْ كان لا يأتي من سفارة إلاّ ويتوجّه إلى أخرى.

رَأْيٌ إلى سَفَرٍ بِالْعَزْمِ يُزْمِعُهُ ... مَا آبَ مِنْ سَفَرٍ إلاَّ وَأَزْعَجَهُ

وقد سجَّل في رحلاته إلى هذه الممالك أفكاره وآراءه وملاحظاته على ما شاهده وخبره واختبره من حضارتها، وأخلاقها وعوائدها، ممَّا يُعدُّ الآن من الوثائق الصحيحة المعتمدة في الموازنة بين حضارة تلك الدول في القرن الثامن عشر (الثاني عشر الهجري).

وفاته، رحمه الله.

كان ابن عثمان مع سلطانه المولى سليمان بمراكش لمَّا اجتاح الوباء المغرب سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف (1212/1797-1798) وما بعدها، وبارحها السلطان المذكور راجعاً إلى مكناس، وفي أثناء الطَّريق، بلغه خبر وفاة كاتبه أبي عبد الله بن عثمان، وذلك ما بين سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف وسنة أربع عشرة ومائتين وألف (1212/1797-1798) و(1214/1799-1800)، وهو الراجح لأنَّ الوزير الفرنسي طالِّيران (Talleyrand) كتب له في قضية التجَّار المغاربة الذين حجز القراصنة الفرنسيون سلعهم سنة تسع وتسعين وسبعمائة وألف (1214/1799) كما تقدَّم ودُفن بمراكش، رحمه الله تعالى.

ثم وجَّه السلطان كاتبه أبا القاسم الصياني إلى مراكش للإتيان بِمُتَخَلَّفه، فأتى به وبما اشتمل عليه من كتبه ومقيداته. وفي ذلك عبرة وذكرى، ولِلَّه الأمر في هذه الدار وفي الأخرى.

المبحث الثالث

مسائل الأسرى
في عهد السلطان المولى سليمان

استعرضنا في الفصول السابقة حالة الأسرى في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله، وما بَذَلَهُ من الجهود، وكان له في ذلك من السعي المحمود، وما أنفقه من الأموال الطائلة، وبعثه من السفراء إلى الدول الأجنبية، حتّى فدى جميع الأسرى المسلمين، وأنقذهم من العذاب المهين، من غير تمييز بين عنصر أو جنسية، إذْ كان لا يرى إلاَّ الأخوة الإسلامية، وإنَّما المسلمون إخوة حيثما كانوا وحلّوا.

ولا يخفى أنَّ القرصنة واستعباد الأحرار كما تقدَّم، استمرت منتشرة مستفحلة في البحر الأبيض المتوسط قروناً ودهوراً متطاولة، وخصوصاً بفرنسا وإيطاليا إلى أواسط القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة)، ولم يحصل فيها فتور إلى آخر الملوكية الفرنسية، لمَّا استقرَّ السلم بفرنسا وببعض دول أوروبا، ورنَّت أصوات استنكارها، وتردَّد صداها في سائر الأقطار المسيحية، معلنة بطلب الكفِّ عن الاسترقاق واختطاف الأحرار واستعبادهم في المعامل والمناجم وأوراش الخدمات الشاقّة، وذلك ما كان يدعو إليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ويعلن به في رسائله إلى الملوك، وعلى لسان سُفَرائه ورُسُله.

وحينئذ تظافرت آراء أولي العزم ومن بيدهم الأمر على التقليل من الأسر والاسترقاق أولا، وحذفه نهائياً ثانياً، لِمَا ينشأ عنه من الحروب والنزاع بين الدول وانقطاع المواصلة السياسية والاقتصادية، واختلال نظامها، ولكنَّهم عَوضوها بشيء آخر، وهو أقبح وأعرُّ، ألا

وهو استعمار واستعباد الممالك الإسلامية بإفريقية الشمالية كلِّها، فكان ذلك غسل دم بدم، والانتقال من سيٍّء إلى أسوء، ومن قبيح إلى أقبح.

العهد السليماني

في العهد السليماني، لبست مسألة الأسرى حلَّة أخرى، وتجلَّت في مظهر جديد، طُبِّق على الدول الإسلامية التي على شواطئ البحرين : الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، وذلك حين تطوَّرت أوروبًا في أطوار جديدة، وحروب توسُّعية، لمَّا ظهر نابوليون الأول، ومدَّ سيطرته على القارة الأوروبية ووصل إلى إصبانيا، وأطلَّ منها على إفريقية الشمالية، وخصوصاً المغرب الأقصى من البوغاز، وتناول مصر فاحتلَّها، وسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط، واستولى على جُزُره، وحرَّر أسرى مالطة، وقامت في وجهه إنجلترا فقاومته وحاربته بكل ما في وسعها وطاقتها براً وبحراً، وكانت محتلَّة جبل طارق، فضاق بها درْعاً، ووقعت اصطدامات بين أسطوله والأسطول الإنجليزي في البحر المذكور، وبسبب ذلك تحوَّلت قرصنة الطرفين إلى مهاجمة الدول المنحرفة عَنْهُمَا أو المنحازة لغيرهما، ونشأ عن ذلك حوادث قرصانية بين السُّفن المغربية والإنجليزية والفرنسية، إمَّا بالاستيلاء عليها وأسر من فيها، أو بلجوئها وجنوحها إلى السواحل الإفريقية، كقضية بعض السفن المغربية المسمَّاة : «المسعودة» و«المبروكة»، و«مبيريكة»، المعدودة من سفن العُدوتين السلاوية الرباطية.

فاهتمَّ المولى سليمان رحمه الله بذلك غاية الاهتمام، وعمل بواسطة قناصل بعض الدول الأجنبية، الذين كانوا بطنجة على استرجاع تلك السفن المحجوزة أو المصادرة، وردِّ السِّلع التي كانت فيها، وإطلاق سراح رؤسائها وبحَّارتها، كما كان يبادر بإطلاق سراح الأسرى الأوربيين الذين تسوقهم الحوادث إلى السواحل المغربية، أو الفارِّين من فرنسا وإصبانيا أثناء الحروب النابوليونية، واللاَّجئين إلى المغرب بسبب الحوادث السياسية، لمَا كان يعلمه من تطوُّر الحالة، وتفوُّق الأساطيل الأجنبية ومؤازرة بعضها لبعض. وقد بسط ذَلك جاك كايي في كتابه المسمى : «قنصلية طنجة»[96]، فلْيُرْجَع إليه.

وفي بعض الأحيان، كان المغرب يستفيد من هذه الدول المتحاربة، وخصوصاً إنجلترا بما كانت تسلِّمه إليه من أدوات تجهيز سفنه القرصانية، وغير ذلك من الهدايا التي كان يُقدِّمها السفراء للملك ورجال دولته.

---

96) ص 47 وما بعدها.

ومن جملة ذلك أنَّها أعانته بما تجهز به سفينة من سفنه كان العمل جارياً في إنجازها بمرسى رباط الفتح، وتصفيح سفينة أخرى بالنُّحاس، وأهدت له مرة أخرى عددا من المدافع وسفينة قرصانية مجهزة باثني عشر مدفعا، وعدداً كبيراً من البنادق، وغير ذلك من الذخائر الحربية، وأنواع المنسوجات من الثياب والملف، والمشروبات كالشّاي والسُكر وغير ذلك.

وفي سنة ثلاث عشرة وثمانمائة وألف (1228/1818)، وَفَدَ سفير إنجليزي على السلطان المولى سليمان، وقدَّم له هدية عظيمة، حُملت إلى أعتابه الشريفة على مائة وثمانين بغلا ومائة جمل.

وذلك كلُّه تزلُّفاً إليه في مقابلة ما كانوا يشترونه من الأقوات، كالحبوب واللحوم ونحوها من الأسواق المغربية لتموين جبل طارق والأسطول المحاصر لجيش نابوليون بإصبانيا، والسِّعاية بفرنسا، واتِّخاذ سائر الوسائل لانحراف الحكومة المغربية عنها، ومعاكسة سياستها بالمغرب.

ولكن المولى سليمان كان يحتاط غاية الاحتياط، ويحافظ ما أمكن على الحياد وعدم الانحياز جهاراً إلى أحد الطَّرفيْن المتحاربين[97].

وسنسجِّل بعض الحوادث المتعلِّقة بالأسرى في هذا العهد المضْطرب ليُعلم منها ما بذله السلطان المذكور، رحمه الله، من الجهود في حلِّ بعض المشاكل، وتسوية ما أمكن تسويته من المسائل، لأنَّ الحروب النابليونية خوَّلت سفن المغرب حقَّ الالتجاء إلى بعض المراسي الفرنسية، ولكن لم تكن بين الدولتين مواصلة متأصِّلة سياسية جارية، وإنَّما كان بعض تُجَّار اليهود المقيمين بجبل طارق يُكلِّف أحدهم بشبه وظيفة القنصلية نيابة عن السلطان، فيتولَّى المذاكرة والمخابرة في المسائل التي تحدث، سواء مع فرنسا أو إنجلترا.

كما أنَّه لم تكن في ذلك العهد مواصلة معتادة بين المغرب والدول الأجنبية على الوجه المعروف اليوم، وكان من الصَّعب أو الممنوع على الرعايا المغاربة السفر اختياراً إلى الدول التي على سواحل البحر الأبيض المتوسط، أو التجوُّل فيها، وإنَّما كان يُسْمح بذلك عند الحاجة والاضطرار إلى بعض الرؤساء أو القراصنة أو الأشخاص الذين سبق أسرهم بتلك الممالك لسابق معرفتهم بها، وإلمامهم بلغاتها حتَّى كاد يجهل بعضهم بعضا، فكانت بسبب

97) «قنصلية طنجة» لجاك كايي، ص 77.

(Le Consulat de Tanger, par Jacques Caillé)

ذلك تصعب المخابرة ويطول أمدها وتتّسع مادّة الخلاف، ويتدخّل فيها قناصل الدول المقيمون بطنجة، فيُسيّرونها على مقتضى مصالحهم الخاصّة، ويأتي السفراء الأجانب فيستغلّون ذلك ويهدّدون، ويبرقون ويرعدون، حتّى تُقبل مطالبهم، وتُنفّذ رغائبهم، وهكذا ضاعت حقوق، وقُوبل البرّ والإحسان بالعقوق، والله أعلم بحقيقة الصّادق والمصْدوق.

المبحث الرابع

حوادث أمريكية تتعلّق بالأسرى

بعدما كان المغرب في صلح مستمر ومتسقر مع أميركا، منذ عقدت معاهدة سادس عشر يوليوز سنة ست وثمانين وسبعمائة وألف (16 يوليوز 19/1786 رمضان 1200) مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله، حصل ما كدّر صفو هذا الصلْحَ بين الدولتين، وذلك أنَّ السلطان المولى سليمان كان رغب من القنصل الأمريكي بطنجة أن يُنفِّذ بعض مطالبه، فتهاون بها، ولم يهتمّ بالمبادرة إلى تنجيزها، فأمره بمبارحة طنجة سنة اثنتين وثمانمائة وألف (1217-1216/1802).

– ثم إن سفينة حربية أمريكية التقت في البحر مع سفينة مغربية، وامتنع رُبَّانها من الانقياد لربّان السفينة المغربية، وإطلاعه على أوراقه، فوقعت المجاوزة عن هذه المخالفة بالوعد بتقديم بَطْرية مدفعية للمغرب تكفيراً عنها.

وفي سنة ثلاث وثمانمائة وألف (1218/1803) وقعت حادثة أخرى كدّرت صفو الجوِّ بين الدولتين.

وهي أن الولايات المتحدة كانت في حالة حرب مع ولاية طرابلس، فحجز أسطولها سفينة مغربية كانت حاملة المعونة والمؤن إلى طرابلس. وفي مقابلة هذا الحجز، استولى أحد قراصنة المغرب على سفينة أميركية صغيرة من نوع بريك (Brick) صادفها في البحر مشحونة بالسلع من مرسى بوسطن (Boston)، وفي الحين تعقّبتها دارعة حربية أمريكية أخرى، واسترجعت السفينة المَأْخُوذَةَ منها، وأسرتها وقادتها إلى جبل طارق.

– وجَاءَتْ دارعة حربية أميركية فألقت مرساتها أمام مرسى طنجة ومعها أربع قطع من الأسطول الحربي الأميركي مهدِّداً منذِّراً، وطالباً من السلطان بيان الأسباب التي دعت قراصنته لإظهار العداوة مع دولته، مع أنّها في حالة سلم معه.

فاعتذر المولى سليمان عن ذلك، وعزل باشا طنجة لأنّه المسؤول عمّا وقع.

وصرّح بأنّ السلم لازال على ما كان عليه مع الدولة الأميركية، منذ عهد والده، رحمه الله، وبذلك طُويت صُحُف هذه الحادثة، حسبما ذكره جاك كايي في كتابه «تاريخ الصغير للمغرب» (La Petite Histoire du Maroc)،[98].

وقد ذكرها أبو عبد الله الضعيف في «تاريخه»،[99] بمزيد إيضاح وبيان، فقال :

«في أوائل ربيع الأول عام سبعة عشر ومائتين وألف (أوائل ربيع الأول 1217/ أوائل يوليوز 1802)، خرج الرئيس إبراهيم لُباريس الرباطي من العرائش إلى البحر تنفيذاً للأمر السلطاني، مباشراً للقرصنة، بعدما سلّمَ له عامل طنجة عَشْعَاش الكتاب السلطاني المتضمِّن الأمر بالقبض على السفن الأميركية في البحر وسوقها إلى طنجة.

وبمقتضى هذا الأمر تجاوزت سفينته البوغاز إلى سواحل الجزائر فصادفت سفينة أميركية، فأخذتها وكان فيها عدد كبير من الأميركيين، فأسرتهم وتوقّف سيرها لعدم مساعدة الريح لها.

ثم قال : وقد كان النصارى الذين بطنجة علي علم بما صدر من الأوامر، فأخبروا الأميركان سرّاً بخروج سفينة لُبَاريس لاصطياد سفنهم، ووصفوها لهم وصفاً كاشفاً، وبيّنوا لهم عدد من فيها من البحّارة والمدافع وغير ذلك. وأخبروهم أيضاً بخروج سفينة الرئيس الطّاهر عوّاد السلاوي من سلا، وأنّ صفتها ونعتها كذا وكذا.

وبناء على هذه الأخبار، وجّه الأميركان في (أواخر ربيع الأول/أواخر يونيو) قطعاً من أسطولهم لاقتفاء سفينة الرئيس لُبَاريس الذي خرج لاصْطِيادِ سفنهم والبحث عنها.

وكان من جُمْلة قطع هذا الأسطول قطعة مسلّحة بأربعين مدفعاً، وبها أربعمائة بحار.

وبمجرّد ما التقت هذه القطعة في البحر بسفينة الرئيس لُبَاريس استفهم رُبّانها رئيسها عنها، ولمّا تحقّقوا أنّها سفينة الرئيس لُباريس الرباطي، وطبّق عليه وعليها الأوصاف التي عنده، أمره بالاستسلام، وإنزال زورقه إلى البحر، وإنْ لم يفعلْ يُغرقه في الحال، فأنزل زورقه وفيه ولده فأسره الأميركان، وأخذوا السفينة وجميع من كان فيها من البحّارة أسرى، وما معهم من الغنيمة التي غنموها منهم.

---

98) ص 120 وما بعدها من ج 3.

99) ص 126 من ج 3. مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وفرّق ربّان الأسطول الأميركي البحّارة الأسرى على أربع سفن أخرى كانت تابعة له، وساق السفينة المغنومة أمامه.

ثمّ استنطق الربان الأميركي الرئيس لُبَاريس عن موجب تعرُّضه للسُّفن الأميركية والحالة أن أميركا في حالة صلح وسلم مع سلطانه، وهل هو الذي أمره بذلك ؟ فأنكر أمر السلطان له بالتعرُّض للسُّفن الأميركية ورمى بكتابه في البحر، وأجابه بأنّ الذي أمره بذلك هو عامل طنجة عَشْعَاش.

وبمجرَّد ما بلغ الخبر للسلطان بما وقع من جبل طارق، اهتمَّ بالأمر، وبعث بكتاب خاصّ إلى الوالي الإنجليزي به ليتوسَّط في إقرار الصلح وإطلاق سراح الأسرى.

ثمّ عزم على النهوض لطنجة للإشراف على مباشرة هذه القضية وإطلاق سراح مائة من الشبّان الرباطيين الذين كانوا في السفينة في حالة أسر وهمّ وغمّ، لا يأكلون إلا مرة واحدة في النهار.

ثم قال :[100] وقد بقي هؤلاء الأسرى في الأسر نحو ثلاثة أشهر، وفوّض السلطان للإنجليز في السّعي في إطلاق سراحهم وإعادة حالة السلم بينه وبين الأميركان.

وكان توجُّهه إلى طنجة أواخر جمادى الثانية عام ثمانية عشرة ومائتين وألف (أواخر جمادى الثانية 1218/أواسط أكتوبر 1803).

وفي أثناء إقامته بها، جدَّد الصلح مع الأميركان، وأطلقوا سراح الأسرى وردُّوا السفينة المحجوزة.

ولمّا وصل الأسرى إلى طنجة، وجّههم إلى الرباط، وكساهم بكسيً من الملف إحساناً لهم.

أسرى السفينة الفرنسية «صوفي» (Sophie).

قال كايي في «التاريخ الصغير للمغرب» : [101]

في الثلاثين من مايه سنة تسع عشرة وثمانمائة وألف (30 مايه 5/1819 شعبان 1233)، جنحت السفينة الفرنسية «صوفي»، وهي في طريقها إلى البرازيل، إلى البرِّ بالساحل

100) ص 130 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

101) ص 115 من جزء الثالث.

المـغـربي المـعـروف بالسـاحـل الذهبي، مـا بين رأس جـوبي ورأس بوخـادور، ونجـا بعض بحّارتها وركّابها في زوارق إلى جزر كاناريا والباقي منهم، وعددهم سبعة، أسرهم بعض المغاربة النازلين بتلك الناحية، واستولوا على ما كان في السفينة من سلع ومتاع.

وسقط الأسرى في يد شيخ من شيوخ تلك الناحية يقال له سيدي أحمد، فباعهم بنحو ألفي فرنك وبعض الإبل لشيخ آخر يقال له الشيخ بيروك، وكان من أغنياء وادي نون، وبقوا عنده في الأسر ما يزيد على أربعة أشهر إلى أنْ فداهم السلطان المولى سليمان، لمّا بلغه الخبر، بنحو مليوني فرنك من سكة الوقت، وسيقوا إلى الصويرة على طريق تارودانت، وقد استرجعوا حريتهم، وأبحروا منها إلى طنجة في طريق عودتهم إلى بلادهم.

وكان ذلك في ثالث عشر أكتوبر سنة تسع عشرة وثمانمائة وألف (13 أكتوبر 23/1819 قعدة 1233).

المبحث الخامس

الأسرى في عهد السلطان المولى عبد الرحمان.

لمّا اقتضى نظر السلطان المولى عبد الرحمان، رحمه الله، إحياء سنة الجهاد في البحر واستئناف أعمال القرصنة، أصدر أوامره لرؤساء البحر للعدوتين سنة خمس وأربعين ومائتين وألف (1245/1830)، بالتطوف بسواحل المغرب وما اتّصل بها.

فخرج الرئيسان الحاج عبد الرحمان بركاش والحاج عبد الرحمان بريطل الرباطيان في سفنهما القرصانية، فصادفا سفينة نمساوية، فأخذاها وساقاها إلى مرسى أبي رقراق، وأسرا من كان فيها من الرُّكاب، وأُنزلوا إلى البرِّ برباط الفتح، ثم وُجِّهوا لفاس، ومن فاس وُجِّهوا لطنجة في ضمانة قناصل الدول الذين هناك حتى يتمَّ الأمر في مآلهم.

ثم راجت مخابرة طويلة في شأنهم أسفرت عن إطلاق سراحهم دون السَّفينة المؤخوذة وما كان فيها من السِّلع.

وألحّت النَّامسا في استرجاعها أو تعويض السلع التي كانت فيها، وحيث إنَّها لم تحصِّل على فائدة من مطالبها، وانقطعت المخابرة بينها وبين المخزن، هجمت على بعض المراسي المغربية، وقنبلتها، كتطوان وأصيلا والعرائش.

وبالعرائش حاولوا النُّزول إلى البر، فتعرَّض لهم المجاهدون من المسلمين ودافعوهم بكل قوة وشهامة، ومات منهم مائةٌ قتلاً وغرقاً بوادي لوكُّوس، فقُطعت رؤوسهم، وحُشيت بالملح، ووُجِّهت إلى فاس، وعلِّقت على أبواب المدينة ليراها الناس، وأُسر عدد كبير آخر من البحارة.

فاستأنفت النّامسا المذاكرة في شأنهم مع الحكومة المخزنية، بواسطة مندوبها بِجَبَل طارق، وأسفرت أخيراً عن الاتفاق على إعادة السلم بين الطرفين، وإطلاق سراح الأسرى وتخلِّي النّامسا عن مطالبها التّعْويضية، فمنَّ السلطان عليهم، وأمر بإطلاق سراحهم.

وسياتي مزيد بيان وتفصيل في هذه القضية عند الكلام على أعمال القرصنة السلاوية الرباطية ومحاولة إحيائها واستئنافها في عهد السلطان المولى عبد الرحمان، رحمه الله.

أسرى مدينة الصويرة(102).

لمَّا هجم الفرنسيون على مدينة الصويرة بتاريخ خامس عشر غشت سنة أربع وأربعين وثمانمائة وألف (15 غشت 1844/29 رجب 1260)، عقب معركة إيسْلِي، واحتلّوا جزيرتها، أسروا من الصّويريين نحن مائة وستين أسيرا (160) من جملتهم الوالي وقائد الحمية العسكرية التي كانت بالجزيرة السيد الحاج العربي الطُّريس التِّطواني، وهو والد النائب السلطاني الذي كان بطنجة أبي عبد الله مُحمد الطريس، وكان بين هؤلاء المائة وستين أسيراً خمسة وثلاثون جريحا، أُطلقوا سراحهم في مقابلة بعض الأجانب الذين كانوا بالمدينة، ولم يستطيعوا مبارحتها عند هجوم الأسطول عليها.

والباقون وهم مائة وثلاثة وعشرون (123)، سيقوا إلى الجزائر وبقوا فيها أسرى نحو عشرة أشهر إلى أنْ تمَّ الصلح واستقرَّ السلم بين الدولتين المغربية والفرنسية أواخر شهر يونيو من سنة خمس وأربعين وثمانمائة وألف (أواخر يونيو 1845/ أواخر جمادى الآخرة 1261)، وحينئذ أمرت الحكومة الفرنسية بإطلاق سراحهم وردِّهم إلى بلادهم، وأركبتهم طّراداً حربياً توجَّه بهم إلى الصويرة.

وبمجرَّد ما أشرف على المرسى، ورآه الصّويريون من وراء الأسوار توهَّموا منه شرّاً، وظَنُّوا أنَّه جاء لإعادة الهجوم، وقنبلة المدينة، وحصل هرْج ومرْج بين سكّانها، لسوء ظنِّهم بالفرنسين، وشاعت إشعاعات بينهم. فمنْ قائل إنَّ الحرب ستُعاد من جديد لتأخير المصادقة على الصلح ؛ ومن قائل إنَّ الطرّاد الحربي جاء بقنصل جديد. وقليل منهم من ظنَّ رجوع الأسرى إلى بلدهم.

---

102) «التاريخ الصغير للمغرب» لجاك كايي، ص 209 من ج 3.

ولمّا ألقى الطرّاد الحربي مرساته أمام المرسى وجّه له رئيسها زورقاً خاصاً يستفهم عن سبب مجيئه وما يريده.

فما كاد يصل إليه، ويتّصل به، حتى شاهد مواطنيه من الأسرى في انتظاره في حالة حسنة وصحّة جيِّدة. فعلا في الجوِّ هُتافهم، واختلطت بِنِدَاء بعضهم بعضاً أصواتهم، ومن بينهم جماعة منهم محيطة بقائد الحمية الحاج العربي الطُّرِيس، ودموع الفرح تنهلُّ من أعينهم، وألسنتهم تردِّد آيات الشكر والحمد لله على الخلاص. فتعجّب بحّارو الطّرّاد الحربي من جميل اعتقادهم في الله واعترافهم بفضله وإحسانه، وجزيل كرمه وامتنانه.

وفي الحين رجع الزورق بمن فيه إلى المرسى حاملاً لمنتظريه البشرى، فحُشر آلاف الناس من سكّان المدينة حشْرا، رجالاً ونساءً وأطفالاً، شيوخاً وكهولاً لاستقبالهم.

واتّخذ حاكم البلد أبو حفص عمر رزُّوق غاية الاحتياط محافظة على الأمن بباب البحر الذي سيدخل منه الأسرى المنتظرون.

وبعد الزوال، وجّه رئيس الطرّاد زوارقه المشحونة بالمائة والثلاثة والعشرين أسيراً الذين كانوا يُعدّون في حكم المفقودين، فاستُقْبلوا بما لا يمكن وصفه من أنواع الأفراح ومظاهر السُّرور والانشراح، وماج الناس بعضهم في بعض، واشتدَّ الزحام، واختلفت المناكب، واختلطت الأصوات تعج عجّاً، مُهلّلة مكبِّرة، باكية ضاحكة مستبشرة، حتى قال بعض الفرنسيين الذين رافقوا الأسرى من الطرّاد إلى البرّ، إنّه كاد أن تدوسه الأقدام، من شدة الازدحام، لولا أن نحو اثني عشر رجلاً حموه ودافعوا عنه العامّة.

ومن أغرب ما وقع أنَّ الزورق الأخير المشحون ببقية الأسرى، لمّا اقترب من البر، تقدّمت إليه الجماهير سابحة في البحر حتى مال بمن فيه، وتدفّقت عليه أمواجه، ولكن الله سلّم، ونجا الجميع.

ولمّا اطمأنَّ الناس، اجتمعوا للاحتفال برجوع أسراهم تحت أحد حصون المدينة بمحضر القائد والقاضي ورجال الحكم وأولي الأمر، واستقبلوا رئيس الطرّاد الحربي وأعوانه ومن معه، ثم استقبلوا القائد الحاج العربي الطُّريس، وهنَّؤوه بسلامة الرجوع، سالما معافىً، وخطب الرئيس خطبة حيّا بها القائد والحاضرين، وأجَابَهُ القائد على خطابه بما تأثر منه.

وتفرّق الأسرى بين ذويهم وأُسرهم وأولادهم فرحين مسرورين.

ومن الغد تجوَّل رئيس الطرَّاد بالمدينة، وكان محل إعجاب سُكَّانها، وقدَّم له القائد مؤونة فخيمة تدل على فخامته وكرمه، وهي ثلاثة ثيران، وعدد كبير من الضأن والدجاج والخبز والفواكه، وغير ذلك، واعتذر عن التَّقصير لأنَّه لم يمكنه أن يقدِّم هدية أكبر ممّا قدَّم، لأنَّ مجيئه لم يصادف يوم السوق الذي تُجلب فيه الأقوات للمدينة.

وقد كان تسليم أسرى الصَّويرة خاتمة الخلاف والحرب التي كانت بين فرنسا والمغرب، كما كانت نهاية مسائل الأسرى ومشاكلهم لتخلِّي السلطان المولى عبد الرحمان، رحمه الله، عن القرصنة وما تجرّ إليه من أَسْرٍ وغيره، كما سيأتي بيانه في محله عند الكلام على إبطالها وانتهاء أمرها بحول الله، والله غالب على أمره.

وبعد هذا لا بأس أن نسجِّل هنا نبذة موجزة من تاريخ الأسطول المغربي الذي أقلق راحة أوروبا، وشغل بالها، وأقام وأقعد ملوكها ورُؤَسَاءَهَا دهراً طويلاً، فحسبوا له حسابه، وقاوموه وقاومهم، مدة قرون وأجيال متطاولة متعاقبة، وتطوّره بحسب الدول والأعصار لتكون تمهيداً لِمَا سنسوقه ونقصُّه من أخبار وأعمال القرصنة السلاوية الرباطية، فيما سيأتي.

الفصل الرابع

عن الأسطول المغربي في التاريخ،
من بداية الفتح الإسلامي
إلى سقوط غرناطة،
وعن رجاله وأعماله،
وما بلغه من رفعة شان وضخامة سلطان

المبحث الأول

الأسطول المغربي زمن الفتح

الأسطول لفظ يوناني مُعرّب، معناه مجموع السفن الحربية أو التجارية. وهو سياج الدولة وعمادها، وبه عزُّها، وعليه بعد الله اعتمادها، وهو درعها المسرودة التي تحمي حماها، وتحرس شواطئها وترعاها، بل هو جناحها الذي تُحلِّق به في سماء العز والقوة والسيادة، وتسبح به في بحر العظمة والاطمئنان والسعادة.

وكلُّ أمَّة أو دولة لم تعتن العناية الكاملة بالأساطيل، وترسلها في البحر طيراً أبابيل، تعدُّ دولة مقصوصة الجناح، أوْ كالأعزل يقتحم الهيجاء بدون سلاح.

أولية الأسطول المغربي

لقد كان للمغرب فيما سلف من الدّهر أسطول تُخشى صولتُه، وتُتَّقى في البحار جولته، فتح به طارق بن زياد الأندلس، وقام بالمواصلة بين العدوتين، وجمع بين الضِّفتين، مدة تزيد على ثمانمائة عام. فحمل الجيوش والغُزاة والعُدد والميرة، والبضائع التجارية إلى إصبانيا من المغرب، ومنها إليه، وجُزر البحر الأبيض المتوسط، وسائر المراسي البحرية الإسلامية التي كانت عامرة زاهرة على شواطئه.

وهو الذي ساعد على نشر حضارة الشرق بين أمم البحر الأبيض المتوسط، فامتزجت بحضارة الغرب، وتكوَّنت منها حضارة إسلامية بالبلاد الأندلسية، وسائر إفريقية الشمالية.

وعليه عبر المرابطون والموحِّدون والمرينيون إلى الأندلس، وبواسطته استطاعوا أنْ يمدّوا سلطانهم عليها وعلى المغرب الأوسط، وتونس وطرابلس، إلى الحدود المصرية.

الأسطول المغربي زمن الفتح

لقد كان للأسطول المغربي زمن الفتح المقام المحمود في الغزو ونقل الجيوش وحماية الثغور والسواحل، ولذلك اهتم به الخلفاء في الصدر الأول للإسلام. فأصدر الخليفة عبد الملك بن مروان أوامره لأخيه عبد العزيز وهو والي مصر يومئذ(103) أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قِبْطِيٍّ بأهله وولده، وكتب إلى واليه على إفريقية حسّان بن النعمان، يأمره أن يستعين بهم في بناء دار صناعة بتونس، تُصنع بها السفن وتكون عدة للمسلمين إلى آخر الدّهر، وأنْ يَصنع بها المراكب ويُغير بها على سواحل الروم، فيشغلهم ببلادهم عن إفريقية.

ومن ذلك الوقت تقرّر عزم العرب على تملك حوض البحر الأبيض المتوسط، ومنع الأمم الأوربية من التجول فيه.

فوصل الأقباط إلى حسّان وهو مقيم بناحية تونس، فبنى دار الصناعة، وأمر الأقباط بصنع المراكب وحفر الخليج من البحيرة إلى دار الصناعة.

وجاء بعده الأمير موسى بن نصير، فتمّم هذا العمل المهم، وجرّ إليها البحر مسافة اثني عشر ميلاً حتى أدخله إليها، فصارت مكْمنا للسفن تأوي إليها إذا هبّت الرّياح، وكثرت العواصف والأمطار، ثمّ أمر بصنع مائة مركب فصُنعت بها، وأصلح ما كان بقي من الأسطول المصري الذي كان ورد لغزو جزيرة صِقلّية وأصابه عطب في البحر، فضمّ أشلاءه ورمّمه وغزا به جزيرة ميُورقة، فافتتح فيها وأصابَ مغانم كثيرة.

وكان سعة حفر هذا الخليج نحو أربعين ذراعا، وعمقه أربع قامات، وقعْره مُطَيَّن بالطِّين. ثم أجرى إليه ماء البحر، فعلا على الحفر حتى جاوز أعلاه بما يزيد على رُبُع قامة، وعند آخر الحفر اتّسع الماء وازداد عمقه، فصارت المراكب تلجه حاملة فترْسي فيه وتوسق وتوضع في زوارق صغار تسير في الماء إلى تونس. وكانت السفن تدخل من البحر إلى البحيرة واحدة بعد واحدة، لأنّ سعة الفم لا تحمل أكثر من ذلك، وهذا المحل هو المعروف بحلْق الوادي.

ثم تكاثرت السفن، وتعدّدت دور الصناعة بإفريقية، وتوالت الفتوح في بلاد الرّوم، وانتشر الإسلام بانتشار البعوث وتواليها، وإذا أراد الله أمراً هيّأ له أسبابه، وفتح في وجهه أبوابه.

---

103) ملخص من كتاب «حسن البيان عمّا بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة والعمران»، للشيخ محمد النيفر التونسي، ص 101 وما بعدها وص 118 وما بعدها، و«المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» لابن أبي دينار، ص 11.

ومن الأعمال العظيمة التي قام بها الأسطول المغربي زمن الفتح، تسخيره في فتح الأندلس على يد طارق بن زياد، وموسى بن نصير، كما سبق، حيث نقل من العُدوة الإفريقية إلى العدوة الأوربية، اثني عشر ألف مقاتل، مع ما تحتاج إليه من سلاح، وكراع، وأقوات، وغير ذلك من أدوات الحرب ولوازمها.

وما ظنُّك بوقائعه وفتوحه الكبرى بشواطئ البحر الأبيض المتوسط وجزره التي أفزعت أساطيل ملوك الرّوم بقسطنطينية وإيطاليا، فوجّهت إليه الحملات، وسيرت له النجدات، وكان له في جل تلك الوقائع الفتح والظهور.

المبحث الثاني

الأسطول في عهد الأغالبة[104]

كان للأغالبة أسطول ضخم، فتحوا به جزر بحر الروم - أو البحر الأبيض المتوسط - الكبرى، كصقيلية وسردينية، وبسطوا عليها حكمهم مدة تزيد على مائة وخمسين سنة، وأسَّسوا بها مَدَنِيَّةً زاهرة.

وجابهوا أساطيل الروم البِزَنْطيين والإيطاليين على قوتها وعظمتها عدة وعددا، فلم تقف أمامهم، ولم تقدر على نيل شيء منهم.

وقد كان هذا الأسطول يشتمل على عدة أشكال وأنواع من السفن البحرية كالاغْرِبة والشّواني، والطّرادات والحرّاقات وغير ذلك...

وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين (827/212) جهّز زيادة الله بن الأغلب أسطولا يحتوي على سبعين قطعة، حمل فيه جيشا عظيما، وسبعمائة فرس وأغزاهم صقلية.

وهذه هي الغزوة الشهيرة التي كانت تحت قيادة الفقيه الشهير أسد بن الفُرات وصاحب الإمام ابن القاسم رحمهما الله.

وجاء لمددهم وإنجادهم أسطول أندلسي تحت إمْرة أصبغ بن وكيل المعروف بفَرْغَلُّوشْ، وهو بربري الأصل من هوارة، وكان معه من الرؤساء سليمان بن عافية، ولحقت بهم مراكب

104) «العرب والروم» تأليف ڤاسيلييف (Vassiliev)، ص 115 و«حسن البيان عمّا بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة والعمران» للشيخ النّيفر، ص 120 و«تاريخ الجزائر العام» لعبد الرحمان بن مُحمد الجيلاني، ص 260.

أخرى من إفريقية، حتى بلغ عدد الأسطول الذي استُعْمل في فتح صقلية ثلاثمائة قطعة، حاملاً من عشرين إلى ثلاثين ألف مقاتل.

وكان زيادة الله لا يقْلع عن غزو الروم بالسواحل الإيطالية والجزر البحرية مدة ولايته، حتى أذاقَهم مُرَّ العذاب، ونكّل بهم تنكيلاً، وضاقوا به ذرعًا.

وبعبارة جامعة، فقد خلّد تاريخ الأسطول الأغلبي ذكراً حسناً وصفحة لامعة في تاريخ البحرية العربية الإفريقية، ممَّا يبعث المغربي على المفاخرة والمباهاة به مدى الأعصار.

المنابر البحرية في عهد الأغالبة[105]

ممَّا اعتنت به الدولة الأغلبية، بناء المنابر البحرية، وهي مواقيد بُنيت على رؤوس الجبال العالية، بحيث يتقارب بعضها، ويشرف بعضها على بعض. ويقال لها أيضاً القباب والمناور والمناظير، يُقام فيها حرّاس يستعملون المرايا لإرسال العلامات بالنَّهار إذا حدث شيء مُهِمٌّ بجهتهم، ويوقدون النيران بالليل. وهكذا يفعل الذين يلُونهم، ثم الذين يلُونهم إلى أن يصل الخبر إلى المدينة أو الثغر أو المسلْحة في زمن قليل، فقد كانت الرسائل تصل من سبتة إلى الإسكندرية مثلاً بواسطتها في مُدة أقل من أربع ساعات.

وقد كان بالمغرب يومئذ نحو عشرة آلاف منار، وكلُّها كانت مبنية بالحجارة والكِلْس وعليها أبواب حديدية. ولم تكن هذه المنابر معروفة عند المسلمين إلاّ في البلاد التي كانت في أول عهدها تابعة للدولة البيزنطية.

قال القلقشندي في «صبح الأعشى»[106]: بني محمّد المعروف بأبي الغرانيق من بني الأغلب الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للإنذار بالعدو، فيتّصل إيقاذها بالإسكندرية في الليلة الواحدة.

هذا، وقد كان للرُّسْتُمِيِّين المعاصرين لبني الأغلب والمجاورين لهم أسطول ضخم تتردَّد سفُنُهُ بين برِّ العدوة ومراسي الجزائر مشحونة بأصناف السلَع والبضائع.

---

105) نفس المصدر، ص 238.

106) ص 121 من ج 5.

المبحث الثالث

الأسطول في عهد الدولة الفاطمية(107)

لقد كان للفاطميين في عصرهم بإفريقية، سيادة مطلقة في البحر الأبيض المتوسط لا ينازعهم فيها إلاّ الأمويون بالأندلس. وكانوا جميعاً يتسابقون فيه تسابق الفرسان، في الميدان، للفوز بخصل الرّهان. وكان جانبهم به مرهوبا، وسلطانهم بعين الجلالة والإعظام مرموقا، ما بين بوغاز جبل طارق وبيروت بالشّام، بجميع مُدُنه وسواحله ومراسيه وجُزُره المنقطعة مثل كورسيكا، وسردينية، وصقلية... إذْ كانت كلها بيدهم، فاعتنوْا اعتناءً كبيراً بتقدُّم الحركة البحرية وصناعة السفن، حتّى كان القادم على صقلية بحرا، يشاهد من مسافة بعيدة على أميال عديدة، أساطيل المعزّ لدين الله، كأنّها أعلام تسير على وجه الماء، تنضمُّ إلى بعضها تارة وتبتعد كسرب القطا أخرى، مُعدة للغُدُوّ والرّواح بين الجزيرة وقلُّورية (كَلاَبْر) (La Calabre) من بر الأرض الكبيرة، وهو جنوب إيطاليا. وقد بلغ عدد ربابينها، خمسة آلاف رُبّان. وكان لهذا الأسطول الضّخم ميزانية ضخمة، من خراج الإقطاعات الموقوفة عليه، ولرؤساء المراكب مرتّبات تبلغ العشرين ديناراً في كل شهر.

وكانت مدينة عنّابة ومرسى الخرز (القالة) بالجزائر من أعظم المراسي البحرية بالمغرب الأوسط، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، مقراً عاماً لنحو مائتي قطعة من هذا الأسطول الفاطمي زيادة على مرفإ المهدية بولاية تونس، الذي كان في العهد الفاطمي يَسَعُ مائة سفين.

---

107) ابن خلدون «المقدمة»، ص 112 وص 123، وص 211 من ج 2، طبع بولاق، و«تاريخ الجزائر العام» لعبد الرحمان بن محمد الجيلاني، ص 247 من ج 1.
ومراجعات في كتاب «العرب والروم» لفاسيلييف ؛ وفي تاريخ ابن الأثير ؛ وفي كتاب :
"La Berberie Musulmane et l'Orient au Moyen Age", par Georges Marçais

ومن هذه المراسي، كانت تصدر البعثات البحرية في أيامهم لغزو بلاد الروم وفتح ما والاها من المدن على ضفاف هذا البحر الرُّومي.

كما كانت تغدو وتروح ماخرة فيه للتجارة واستخراج كنوزه من صَدَف وخَرَز ووَدَع، ولؤلؤ، ومرجان وفَصوص الحجارة.

قال آدام ميز (Adam Mez) مؤرخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : (935/324) استطاعت مراكب عبد الله المهدي الفاطمي، أن تغزو جنوب فرنسا، ومدينة جنوة بإيطاليا، وتنهبهما، وكذلك فعلت بمدينة بيزا (Pise) سنة اثنتين وأربعمائة (1101/402) وسنة خمس وأربعمائة (1014/405) مع أن الأسطول الفاطمي كان في ذلك العهد يعد أقل قوة وعُدّة من الأسطول الشامي.

وكانت مراكب العرب تقطع البحر الأبيض المتوسط عرضا في ظرف ستة وثلاثين يوما، من أوله غرباً إلى آخره شرقاً حيث أنطاكية.(108)

كما كان أسطول كل بلد يرجع نظره إلى قائد من النُّواتية يدبِّر أمر حربه وسلاحه ومقاتِلَته، ورئيس يُدبِّر أمر جَرْيه بالريح أو المجاذيف وأمر إرسائه في مرفئه.

فإذا اجتمعت الأساطيل لغزْو أو احتفال أو عَرْض، غَرَضٍ سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم، وشحنها السلطان برجاله، وأنجاد عساكره ومَوَاليه، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته، يرجعون إليه كلهم، ثم يُسرِّحهم لوجهتهم، وينتظر إيابهم بالفتح والغنيمة.

وبعبارة جامعة، كما عبَّر ابن خلدون فقد غلب الفاطميون على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن لأِمم النصرانية قِبَلٌ بأساطيلهم السابحة فيه، وامتطوْا ظهره للفتح سائر أيامهم، فكانت لهم المقامات المعلومة في الفتوح والغنائم، وملكوا سائر الجزر المنقطعة على السواحل فيه، مثل ميورقة، ومنورقة، ويابسة وسردينية، وصقلية، وقَوْصرة، ومالطة، وقريطش، وقبرص، وسائر ممالك الروم والافرنج.

وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية إلى جنوة، فتنقلب بالظفر والغنيمة.

---

108) «جغرافية» الإدريسي، ص 214، طبع دوزي.

وبالجملة، فقد تغلَّبوا على كثير من لُجَّة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة، والعساكر الإسلامية تنتقل من صقلية إلى البرِّ الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية، فتوقع بملوك الافرنج، وتوغل في ممالكهم كما وقع في أيام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين، وسنقول كلمة عنهم فيما سياتي.

ثم قال ابن خلدون : وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي من سواحل الافرنجة والصقالبة والجزائر الرومية لا تعدوها، وأساطيل المسلمين قد ضرِّتْ عليهم ضرّاء الأسد على فريسته، وقد ملأتْ الأكثر من لُجَّة هذا البحر عُدَّة وعددا، واختلفت في طريقه سلماً وحرباً، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح.

حتَّى إذا أدرك الدولتين العُبَيْدِيَّة والأموية الفشل والوَهَن، وطرقهما الاعتلال، مدّ النصارى أيديهم إلى جزائر هذا البحر الشرقية، مثل : مالطة وقريطش وصقلية، فملكوها بعدما كانوا يخطبون ودَّ العرب ويتزلفون إليهم، لحماية أساطيلهم، مُدَّة القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

وفي الأسطول الفاطمي يقول شاعر دولتهم أبو عبد الله مُحمد بن هانئ الأزدي الأندلسي. وهذه القطعة غير مثبتة في ديوانه المطبوع ببيروت سنة (1303/1886) والمُعاد طبْعه بمكتبة صادر سنة 1952.

بعض ما قيل من شعر في الأسطول الفاطمي

مُعَطَّفَةُ الأعْنَاقِ نَحْوَ مُتُونِهَا   كَمَا نَبَّهَتْ أيْدِي الْحُوَاهِ الأفَاعِيَا
إذَا مَا وَرَدْنَ الْمَاء شَوْقًا لِّبَرْدِهِ   صَدَرْنَ وَ لَمْ يَشْرَبْنَ غَرْقَى صَوَادِيَا
إذَا عَمِلُوا فِيهَا الْمَجَاذِيفَ سُرْعَةً   تَرَى عَقْرَبًا مِّنْهَا عَلَى الْمَاءِ مَاشِيَا

وقال أيضا في قصيدة مدح بها المعزّ لدين الله :

وَقَدْ وَفَدَ الأسْطُولُ وَالبَحْرُ طَالِبِيْ   نَدَى مُزْمِعِيْ هَيْجَاءَ هَذَا لِذَا أَخُ
كَمَا انْتَبَهَتْ فِي نَاظِرِ الْبَرْقِ شُعْلَةٌ   تَلَقَّى سَنَاهَا مِنْ فَمِ الرِّيحِ مِنْفَخُ
لَدَيْكَ جُنُودُ اللهِ تَمْضِي عَلَى الْعِدَا   لَهَا مِنْكَ فِي الْجُنْدِ الرُّبُوبِيِّ مَصْرَخُ

فَلَـوْ أنَّ بَحْـرًا يَلْتَـهِـمْـنَ عُـبَابَـهُ لَمَـرَّ نُفَـاثًـا بَيْنَهَـا يَتَـسَـوَّخُ
يَرَى الْفَجْرَ مِنْهَا تَحْتَ لَيْلٍ مُسَبَّـحٍ كَأنَّ حِدَادًا فِيـهِ بِالنَّفْـسِ يُلْطَـخُ
لَهَا لَجَبٌ يَسْتَجْفِلُ الْمَـاءَ صَعْنُـهُ وَيَقْرَعُ سَمْعَ الرَّعْـدِ زَأْرًا فَيَصْمَخُ...

وقال أيضا من قصيدة أخرى مَدحه بها :

وَلَكَ الْجَوَارِي الْمُنْشَـئَاتُ مَـوَاخِـرًا تَجْـرِي بِأَمْـرِكَ وَ الرِّيَـاحُ رُخَـاءُ
وَالْحَـامِـلاَتُ وكُلُّهـا مَحْمُولَـةٌ وَالنَّـاتِجَاتُ وَكُلُّهَـا عَـذْرَاءُ
وَالطَّائِـرَاتُ السَّابِقَـاتُ السَّابِحَـا تُ النَّاجِيَاتُ إِذَا اسْتُحِـثَّ نَجَـاءُ
فَالبَاسُ فِي حَمْسِ الْوَغَى لِكُمَاتِهَـا وَالْكِبْـرِيَـاءُ لَهُـنَّ وَالْخُيَـلاَءُ...

وله أيضا من قصيدة أخرى في مدحه :

وَسُفُنٌ إِذَا مَا خَاضَتِ الْيَـمَّ زَاخِـرًا جَلَتْ عَنْ بَيَاضِ النَّصْرِ وَهْيَ غَرَابِيبُ
تُشَبُّ لَهَـا حَـمْـرَاءُ قَـانٍ أُوَارُهَـا سَبُوحٌ لَهَا ذَيْلٌ عَلَى الْمَاءِ مَسْحُـوبُ

وله أيضا من قصيدة أخرى في مدحه، وفيها دليل على ما وصلت إليه قوته البحرية :

لَكَ الْبَـرُّ وَالْبَحْـرُ الْعَظِيـمُ عُبَابُـهُ يَسِيَّـانِ أغْمَـارٌ تُـخَاضُ وَبِيـدُ
أَمَا وَالْجَوَارِي الْمُنْشَئَاتِ التِي سَـرَتْ لَقَـدْ ظَاهَرَتْهَـا عُـدَّةٌ وَعَدِيـدُ
قِبَابٌ كَمَا تُزْجَى الْقِبَابُ عَلَى الْمَهَا وَلَكِـنَّ مَنْ ضُمَّـتْ عَلَيْـهِ أُسُـودُ
وَلِلَّـهِ مِمَّـا لاَ يَـرَوْنَ كَتَائِـبٌ مُسَوَّمَـةٌ تَحْـدُو بِهَـا وَجُنُـودُ
أَطَاعَ لَهَـا أنَّ الْمَلاَئِـكَ خَلْفَهَـا كَمَا وَقَفَتْ خَلْـفَ الصُّفُـوفِ رُدُودُ
وَأَنَّ الرِّيَـاحَ الذَّارِيَـاتِ كَتَائِـبٌ وَأنَّ النُّجُـومَ الطَّالِعَـاتِ سُعُـودُ
وَمَا رَاعَ مَلْكَ الـرُّومِ إِلاَّ اطِّلاَعُهَـا تَنَشَّـرُ أعْـلاَمٌ لَهَـا وَبُنُـودُ
عَلَيْهَـا غَـمَـامٌ مُكْفَـهِـرٌّ صَبِيـرُهُ لَـهُ بَـارِقَـاتٌ جَمَّـةٌ وَرُعُـودُ
مَـوَاخِـرُ فِي طَامِي الْعُبَابِ كَـأَنَّهَـا لِعَزْمِـكَ بَـاسٌ أَوْ لِكَفِّـكَ جُـودُ
أَنَافَتْ بِهَـا أَعْـلاَمُهَـا وَسَـمَـا لَهَـا بِنَـاءٌ عَلَـى غَيْـرِ الْعَـرَاءِ مَشِيـدُ

وَلَيْسَ بِأَعْلَى شَاهِقٍ وَهُوَ كَوْكَبٌ وَلَيْسَ مِنَ الصفَّاحِ وَهُوَ صَلُودُ
مِنَ الرَّاسِيَاتِ الشُّمِّ لَوْلاَ انْتِقَالُهَا فَمِنْهَا قِنَانٌ شُمَّخٌ وَرُيُودُ
مِنَ الطَّيْرِ إلاَّ أنَّهُنَّ جَوَارِحٌ فَلَيْسَ لَهَا إلاَّ النُّفُوسَ مَصِيدُ
مِنَ الْقَادِحَاتِ النَّارِ تُضْرَمُ لِلصَّلَى فَلَيْسَ لَهَا يَوْمَ اللِّقَاءِ خُمُودُ
إِذَا زَفَرَتْ غَيْظاً تَرَامَتْ بِمَارِجٍ كَمَا شَبَّ مِنْ نَّارِ الْجَحِيمِ وَقُودُ
فَأَفْوَاهُهُنَّ الْحَامِيَاتُ صَوَاعِقٌ وَأَنْفَاسُهُنَّ الزَّافِرَاتُ حَدِيدُ
يُشَبُّ لِآلِ الْجَاثِلِينَ سَعِيرُهَا وَمَا هِيَ مِنْ ءَالِ الطَّرِيدِ بَعِيدُ
لَهَا شُعَلٌ فَوْقَ الْغِمَارِ كَأَنَّهَا دِمَاءٌ تَلَقَّتْهَا مَلاَحِقُ سُودُ
تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ سَلِيطٌ لَهَا فِيهِ الذُّبَالُ عَتِيدُ
تَرَى الْمَاءَ فِيهَا وَهْوَ قَانٍ عُبَابُهُ كَمَا بَاشَرَتْ رَدْعَ الْخَلُوفِ جُلُودْ
فَلَيْسَ لَهَا إلاَّ الرِّيَاحَ أَعِنَّةٌ وَلَيْسَ لَهَا إلاَّ الْحَبَابَ كَدِيدُ
وَغَيْرَ الْمَذَاكِي نَحْرُهَا غَيْرَ أَنَّهَا مُسَوَّمَةٌ تَحْتَ الْفَوَارِسِ قُودُ
تَرَى كُلَّ قَوْدَاءِ التَّلِيلِ إِذَا انْثَنَتْ سَوَالِفُ غِيدٍ بِالْمَهَا وَقُدُودُ
رَحِيبَةَ مَدِّ الْبَاعِ وَهْيَ نَضِيجَةٌ بِغَيْرِ شَوًى عَذْرَاءَ وَهْيَ وَلُودُ
تَكَبَّرْنَ عَنْ نَّقْعٍ يُثَارُ كَأَنَّهَا مَوَالٍ وَجُرْدَ الصَّافِنَاتِ عَبِيدُ
لَهَا مِنْ شُفُوفِ الْعَبْقَرِيِّ مَلاَبِسٌ مُفَوَّفَةٌ فِيهَا النُّضَارُ جَسِيدُ
كَمَا اشْتَمَلَتْ فَوْقَ الأَرَائِكِ خُرَّدٌ أَوِ الْتَفَعَتْ فَوْقَ الْمَنَابِرِ صِيدُ
لُبُوسٌ تَكُفُّ الْمَوْجَ وَهْوَ غُطَامِطٌ وَتَدْرَأُ بَأْسَ الْيَمِّ وَهْوَ شَدِيدُ
فَمِنْهُ دُرُوعٌ فَوْقَهَا وَجَوَاشِنٌ وَمِنْهَا خَفَاتِينٌ لَّهَا وَبُرُودُ
أَلاَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبْذُلُ كُنْهَ مَا تَضَنُّ بِهِ الأَنْوَاءُ وَهْيَ جُمُودُ...

وفي هذا الأسطول الفاطمي يقول الشاعر أبو الحسن علي بن محمد الايادي التونسي شاعر القائم الفاطمي وأحسن ما شاء :(109)

108) «رفع الحجب المقصورة في محاسن المقصورة» لأبي القاسم الغرناطي، ص 141، و«نفح الطيب» ص 1019 من ج 2، طبع بولاق.

إعْجَبْ لأُسْطُولِ الإمَامِ مُحَمَّدِ   وَلِحُسْنِهِ وَزَمَانِهِ الْمُسْتَقْرَبِ
لَبِسَتْ بِهِ الأمْوَاجُ أحْسَنَ مَنْظَرٍ   يَبْدُو لِعَيْنِ النَّاظِرِ الْمُتَعَجِّبِ
مِنْ كُلِّ مُشْرِفَةٍ عَلَى مَا قَابَلَتْ   إشْرَافَ صَدْرِ الأجْدَلِ الْمُتَنَصِّبِ
دَهْمَاءُ قَدْ لَبِسَتْ ثِيَابَ تَصَنُّعٍ   تَسْبِي الْعُقُولَ عَلَى ثِيَابِ تَرَهُّبِ
مِنْ كُلِّ أبْيَضَ فِي الْهَوَاءِ مُنَشَّرٍ   مِنْهَا وَأسْحَمَ فِي الْخَلِيجِ مُغَيَّبِ
كَبَّاءَةٍ فِي الْبَرِّ يَقْطَعُ شَدُّهَا   فِي الْبَحْرِ أنْفَاسُ الرِّيَاحِ الشُّرَّبِ
مَحْفُوفَةٍ بِمَجَاذِفٍ مَصْفُوفَةٍ   فِي جَانِبَيْنِ دُوَيْنَ صُلْبٍ صُلَّبِ
كَقَوَادِمِ النَّسْرِ الْمُرَفْرِفِ عُرِّيَتْ   مِنْ كَاسِيَاتِ رِيَاشُهُ الْمُتَهَدِّبِ
تَحْتَثُّهَا أيْدِي الرِّجَالِ إذَا وَنَتْ   بِمُصَعِّدٍ مِنْهُنَّ بَعْدَ مُصَوِّبِ
خَرْقَاءُ تَذْهَبُ إنْ يَدٌ لَمْ تَهْدِهَا   فِي كُلِّ أوْبٍ لِلرِّيَاحِ وَمَذْهَبِ
جَوْفَاءُ تَحْمِلُ مَوْكِبًا فِي جَوْفِهَا   يَوْمَ الرِّهَانِ وَتَسْتَقِلُّ بِمَرْكَبِ
وَلَهَا جَنَاحٌ يُسْتَعَارُ يُطِيرُهَا   طَوْعَ الرِّيَاحِ وَرَاحَةَ الْمُتَطَرِّبِ
يَعْلُو بِهَا حَدْبُ الْعُبَابِ مُطَارُهُ   فِي كُلِّ لُجٍّ زَاخِرٍ مُغْلَوْلِبِ
تَسْمُو بِأجْرَدَ فِي الْهَوَاءِ مُتَوَّجٍ   عُرْيَانَ مُنْسَرِحِ الذُّؤَابَةِ شَوْذَبِ
يَتَنَزَّلُ الْمَلاَّحُ مِنْهُ ذُؤَابَةً   لَوْ رَامَ يَرْكَبُهَا الْقَطَا لَمْ يَرْكَبِ
وَكَأنَّمَا رَامَ اسْتِرَاقَةَ مَقْعَدٍ   لِلسَّمْعِ إلاَّ أنَّهُ لَمْ يُشْهَبِ
وَكَأنَّمَا جِنُّ ابْنِ دَاوُودٍ هُمُو   رَكِبُوا جَوَانِبَهَا بِأعْنَفِ مَرْكَبِ
سَجَرُوا جَوَاحِمَ نَارِهَا فَتَقَاذَفُوا   مِنْهَا بِألْسُنِ مَارِجٍ مُتَلَهِّبِ
مِنْ كُلِّ مَسْجُونِ الْحَرِيقِ إذَا انْبَرَى   مِنْ سِجْنِهِ انْصَلَتَ انْصِلاَتَ الْكَوْكَبِ
عُرْيَانُ يَقْدُمُهُ الدُّخَانُ كَأنَّهُ   صُبْحٌ يَكُرُّ عَلَى ظَلاَمِ غَيْهَبِ
وَلَوَاحِقٍ مِثْلَ الأهِلَّةِ جُنَّحٍ   لُحُقِ الْمَطَالِبِ فَائِتَاتِ الْمَهْرَبِ
يَذْهَبْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ لَطَافَةً   وَيَجِئْنَ فِعْلَ الطَّائِرِ الْمُتَقَلِّبِ
كَنَضَائِضِ الْحَيَّاتِ رُحْنَ لَوَاغِبًا   حَتَّى نَقَعْنَ بِبَرْدِ مَاءٍ مَشْرَبِ
شَرَعُوا جَوَانِبَهَا مَجَاذِفَ أتْعَبَتْ   شَأْوَ الرِّيَاحِ لَهَا وَلَمَّا تَتْعَبِ
تَنْصَاعُ مِنْ كَثَبٍ عَلَى نَفْرِ الْقَطَا   طَوْرًا وَتَجْتَمِعُ اجْتِمَاعَ الرَّبْرَبِ

وَالْبَحْرُ يَجْمَعُ بَيْنَهَا فَكَأَنَّهُ لَيْلٌ يُقَرِّبُ عَقْرَبًا مِنْ عَقْرَبِ
وَعَلَى جَوَانِبِهَا أُسُودُ خِلاَفَةٍ تَخْتَالُ فِي عُدَدِ السِّلاَحِ الْمُذَهَّبِ
فَكَأَنَّمَا الْبَحْرُ اسْتَعَارَ بِزَيِّهِمْ ثَوْبَ الْجَمَالِ مِنَ الرَّبِيعِ الْمُعْجِبِ

ولأجل إنشاء هذا الأسطول الضّخم وتجديده وإصلاح سفنه، أسّس الفاطميون بمملكتهم الإفريقية، دور صناعة كبيرة مهمّة.

منها، دار الصناعة بمدينة بَلِيرْمُو (Palermo) بصقلية، وكانت حاضرة الجزيرة، يقيم بها الوالي وقاضي القضاة، وبها ديوان الحِسْبة.

وفي مينائها يربض هذا الأسطول الأعظم، ومنها يغدو ويروح مُخْتالاً على ثبج هذا البحر، فيغزو ما شاء الله أن يغزو من جزره وعدوته الشمالية (يعني جنوب أوربا). وهي إذْ ذاك بفضل ما أحدثه المسلمون فيها من ضُروب العمران من أجمل المدن وأفخمها حضارة وجمال منظر ومخبر.

ومنها، دور صناعة أخرى، كانت بتونس وبجاية وغيرهما من المراسي الأخرى، تجهّز منها سفن الأسطول، وترسو بها وتاوي إليها، بقصد الإصلاح، وتجديد ما تحتاج إليه من العُدّة والسِّلاح.

غزو الأسطول الفاطمي
لمدينة أريُو من جزيرة قلّورية

أَريو مدينة عظيمة من مدائن جزيرة قلُّورية من برِّ الأرض الكبيرة واقعة على مجاز مَسِّينة (Le Detroit de Messine)، وبينها وبين مسِّينة، نحو عشرة أميال، وبها مسجد كبير بناه في وسطها، أبو الغنائم الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي، وَالي صقلية من قِبَلِ المنصور العُبيدي، بعد أن اكتسح قلّورية جميعاً وتغلغل في أحشائها، وشيَّد بها المعامل والحصون، وأرغم أنوف أهلها من الرُّوم.

وذلك أنّ إمبراطور القسطنطينية، كان قد أرسل سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة (950/339) بِطْريقاً في البحر، في جيش عرمرم إلى جزيرة صِقِلِّيّة، فأرسل الحسن إلى المنصور العُبيدي يُعرِّفه الحال، فأرسل إليه أسطولاً فيه سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل، سوى البحرية. وجمع الحسن اليهم جمعاً كثيرا، وصار من بَلِيرْمُو قصبة صقلية في البر والبحر، فوصل إلى

مَسِّينَة، وعبرت العساكر الإسلامية إلى مدينة رِيُو هذه، وبثَّ الحسن سراياه في أرض قَلَّورِية، ونزل هو على بلد يُسمَّى جراجة، وحاصرها أشدَّ الحصار، حتى أشرف أهلها على الهلاك من شدَّة العطش.

وإنَّه لفي ذلك إذْ وصله الخبر أنَّ الرُّومَ قد زحفوا إليه، فصالح أهل جراجة على مالٍ أخذه منهم، وصار إلى لقاء الرّوم، ففرُّوا من غير حرب إلى مدينة تدعى «بارة»، ونزل الحسن على قلعة تدعى «قَسَّانَة»، وبثَّ سراياه إلى قلّورية، وأقام عليها شهرا. فصالحهم على مال أخذه منهم. ودخل الشتاء فرجع الجيش إلى «مسّينة» (Messina)، وشتَّى الأسطولُ بها، فأرسل إليه المنصور يأمره بالرجوع إلى «قلّورية» فصار الحسن إليها، وعبر المجاز إلى «جَراجَة»، فالتقى المسلمون والروم يوم عرفة سنة أربعين وثلاثمائة وألف (952/340)، فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس، فانهزمت الرّوم، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل، وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابّهم.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة (952/431)، فقصد الحسن جراجة فحاصرها فأرسل إليه الإمبراطور يطلب منه الهدنة، فهادنه وعاد الحسن إلى ريو، وبنى بها مسجدا كبيرا في وسطها، وشرط على الرّوم أنَّهم لا يمنعون المسلمين من عمارته، وإقامة الصلاة فيه والأذان، وأنْ لا يدخله نصراني، ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو آمن، سواء كان مرتدّاً أو مقيماً على دينه، وإنْ أخرجوا حجراً منه هُدّمت كنائسهم كلها بصقيلية وإفريقية، فوفَّى الرّوم بهذه الشروط كلها ذلةً وصَغاراً.[110]

وكمْ لهذا الأسطول الفاطمي من أعمال حربية، وغزوات بحرية، وجولات قرصانية، بسائر البلاد والسواحل التي على ضفاف هذا البحر الأبيض المتوسط، بإيطاليا وفرنسا والأندلس وغيرهما، سواء في عهد الفاطميين أنفسهم، وقبل انْتِقَالِهِمْ إلى مصر، أو على عهد عُمَّالهم ومن خَلَفَهُمْ من الأمراء على إفريقية الذين حَذَوْا حَذْوَهم وسلكوا نهجهم، ممَّا يطول جلبه واستيعابه هنا، وليْس موضوعنا.

هذه كانت حالة الأسطول الفاطمي بإفريقية الشمالية وصقلية. ولمَّا انتقلت الدَّوْلة الفاطمية إلى مصر واستقرَّتْ بها، تطوَّر أسطولها في طور آخر، في نظامه وسلاحه وعُدته وعدده.

قال القلقشندي في «صبح الأعشى» :[111]

110) ابن الأثير، ص 178 من ج 8.

111) صفحة 523 من ج 3.

أمّا اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور، واعتناؤهم بأمر الجهاد، فكان ذلك من أهمِّ أمورهم، وأجلِّ ما وقع الاعتناء به عندهم.

وكانت أساطيلهم مرتَّبة كجميع بلادهم السّاحلية، كالإسكندرية ودمْياط من الديار المصرية، وعَسْقَلان وعكّا وصُور وغيرها من سواحل الشام، حين كانت بأيديهم قبل أن يغلبهم عليها الافرنج.

وكانت جريدة قوادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مُدوَّنة، وجَوَامِكُهُم في كل شهر من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر ديناراً، إلى عشرة، إلى ثمانية، إلَى دينارين، وعلى كلِّ أسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جأشاً.

وكان أسطولهم يزيد على خمسة وسبيعن شينيا، وعشْر مسطّحات، وعشْر حمّالات. وعمارة المراكب متواصلة بالصِّناعة لا تنقطع. فإذا أراد الخليفة تجهيزها للغزْو، جلس للنَّفقة بنفسه حتى يُكمِّلها، ثمَّ تخرج مع الوزير إلى ساحل النيل بالْمَقْسِم، فيجلس في منْظرة كانت بجامع باب البحر والوزير معه للموادعة (أيْ للتَّوديع)، ويأتي القواد بالمراكب إلى تحت المنظرة، وهي مُزيَّنة بالأسلحة والمنجنيقات واللعب منصوبة في بعضها، فتُسيِّر بالمجاذيف ذهاباً وعوْداً كما يُفعل حالة القتال. ثمَّ يحضر إلى بين يدي الخليفة المقدَّم والرئيس، فيوصيهما، ويدعو لهم بالسَّلامة، وتنْحدر المراكب إلى دمياط، وتخرج إلى البحر الملح، فيكون لها في بلاد العدو الصِّيت والسُّمعة، فإذا غنموا مركباً، اصطفى الخليفة لنفسه السَّبْي الذي فيه من رجال ونساء أو أطفال وكذلك السِّلاح. وما عدا ذلك يكون للغانمين، لا يُساهَمون فيه.

وكان لهم أيضاً أسطول بِعَيْذَاب، يتلقَّى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها، خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القُلْزُم هناك يتعرَّضون المراكب، فيحميهم الأسطول منهم. وكان عدة هذا الأسطول خمسة مراكب، ثمَّ صارت إلى ثلاثة.

وكان والي قُوصْ هو المتولِّي أمر هذا الأسطول، وربَّما تولاَّه أمير من الباب، ويُحْمَلُ إليه من خزائن السلاح ما يكفيه. اهـ.

كما كانت لهم سفن مزخرفة تسمّى «العُشاريات»، و«السُّمارية»، يركبونها يوم فتح الخليج.

وقد بعث الخليفة العزيز بالله الفاطمي، إلى الأمير الأديب الشاعر تَميم بن المُعز بالله، أنْ يبعث له بها، فأنفذها له، وكتب له معها بهذه القطعة الشعرية :[112]

112) «ديوان تميم» ، ص 95 و 452، طبع دار الكتب المصرية، عام 1377 (1957).

بَعَـــثْتُ بِسَـــاكِنَاتٍ طَائِرَاتٍ　　تَفُـــوتُ اللَّحْظَ وَهْيَ بِلاَ جَنَاحِ
تَطِيرُ إِذَا الْمَجَاذِيفُ اسْتُحِثَّتْ　　بِهَـا طَيَـرَانَ أَجْنِحَـةِ الرِّيَاحِ
كَـأَنَّ سَـوَادَهَا فِي الْمَـاءِ يَحْكِي　　سَـوَادَ الأَعْـيُنِ النُّجْلِ الْمِـلاَحِ
كَـأَنَّ مُـرُورَهَا شَـدّاً وَعَـدْواً　　مُـرُورَ يَدَيْكَ فِي بَذْلِ السَّـمَـاحِ
وَلَوْ أَنِّي اسْـتَطَعْتُ بَعَـثْتُ رُوحِي　　تَقِـيكَ وِقَـايَةَ الْقَـدْرِ الْمُـتَـاحِ
مَـزَجْتُ بِعَـفْوِ وُدِّكَ صَـفْوَ وُدِّي　　فَـقَلْبِي مِنْهُ دَهْرِي غَيْـرَ صَاحِي
لأَنَّكَ إِنْ نَّبَا سَـيْـفِي حُـسَامِي　　وَأَنْتَ إِذَا دَجَـا لَيْلِي صَـبَاحِي
عَلَيْكَ صَـلاَةُ رَبِّكَ مِنْ إِمَـامٍ　　مَطِيـرِ الْجُـودِ مَـيْسُورِ النَّجَاحِ

وقال أيضا في ملاَّح مليح رآه يجدف في سفينة.

تَعَلَّقْتُـهُ ظَالِمـاً غَـيْـرَ سَـاهِي　　تَنَاهَى بِهِ الْحُـسْنُ كُلَّ التَّنَاهِي
وَتَفْـعَلُ أَلْحَـاظُهُ فِي الْقُلُو　　بِ فِـعَالَ مَـجَاذِيفِهِ فِي الْمِـيَاهِ

فرحم الله همَّتهم، كما خلَّد في المفاخر ذكرهم، ولقَّاهم مثوبة وأجرا آمين.

المبحث الرابع

الأسطول في عهد آل زيري وآل حمّاد الصنهاجيين

لمّا انتقلت الدولة الفاطمية من إفريقية إلى مصر سنة إحدى وستين وثلاثمائة (973/361) قبض على زمام الحكم بإفريقية آل زيري بن مناد الصنهاجي بتقديم من المُعز لدين الله لبُلُكّين قبل ارتحاله. وتَوَالَى عليها أبناؤه وأحفاده من بعده، إلى أن انقسموا إلى دولتين، دولة آل المنصور بن بلكّين، أصحاب القيروان، ودولة آل حمّاد بن بلكّين، أصحاب القلعة، بعد حروب كانت بينهما تنافساً على الملك، وحبّاً في الاستبداد بالرياسة والسيادة. وازدهرت الحضارة في عهدهم، وانتشرت التجارة في بلادهم، حتى قال فيهم ابن خلدون :(113)

«كان ملكهم أضخم مُلْك عُرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبدخه.

وكان لكل من الدولتين أسطول يجول في سواحل مملكتيهما الإفريقيتين، ويغزو الشواطئ الإيطالية، وجزر البحر الأبيض المتوسط، يُتّقى بأسه، وتُخشى في البحر جولته.

وكان مصنع سفن آل حمّاد بدار الصِّناعة ببجاية، وهي إذْ ذاك مدينة المغرب الأوسط، وعيْن بلاد بني حمّاد، والسفن إليها قاصدة، ومن مرساها مُقلعة، والقوافل عليها مترددة.» اهـ.

قال الإدريسي في «جغرافيته» :(114)

«... وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحراقي، لأنّ الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود، ويُجلب إليها من أقاليمها الزفْت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة ممكنة...» اهـ.

---

113) ص 199 وص 204 من ج 1، القسم الأخير، طبع الجزائر عام 1267 (1851).

114) طبع روما، سنة 1593 (1001-1002).

وأساطيل آل زيري الضخمة، وخصوصا آل حمّاد منهم، كلها من صنع دار الصناعة ببجاية وبالمهدية.

قال ابن عذاري في «البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب»[115]:

في ذي الحجة سنة خمس وستين وثلاثمائة (976/365)، أمر العزيز بالله، نزار، أبو الفتوح، عامل إفريقية، واليه عبد الله بن مُحمد الكاتب أن يُقيم أسطولا بالمهدية معداً بالرجال والسلاح، فخرج عبد الله إلى المهدية، وأخذ في حشد البحريين في كل بلدة، وأمر أن يوخذ كل من لُقي منهم بالقيروان وغيرها، وملأ بهم السجون، وأدرك خاصّة البلد وعامتهم من الخوف ما لزموا به البيوت، وانتهى حالهم إلى أنه إذا مات أحد عندهم لا يخرجه إلا النساء. اهـ.

وفي سنة ست وستين وثلاثمائة (967/366)، خرج الأسطول من المهدية في أول محرم، فتعذرت الريح عليه، وأقام حتى فرغت الأزواد وعُدم الماء، ورجع جميع النوتية والبحرية إلى البر ونهبوا ما في المراكب من عدة وسلاح، وهربوا من كل ناحية، فبعث عبد الله الطلب فيهم، فمن ظُفر به قُتل.

ونص ابن عداري أيضا في «البيان المُغرب»[116] على أنّه في سنة خمس وستين وأربعمائة (1073/465-1074)، وصلت إلى مدينة صفاقس مراكب شرقية، فأخرج إليها السلطان تَميمُ بن المُعز بن باديس أسطوله من المهدية فأفْسدها.

وفي «أعمال الأعلام» لابن الخطيب[117] ما نصُّه:

«... في سنة ثمانين وأربعمائة (1078/480)، نازل تميم بن المُعِزّ أهل جَنْوَة (Genova) وأهل بيزا (Piza) بثلاثمائة مركب تحمل ثلاثين ألف مقاتل...» اهـ.

ولكن هذه الغزوة كانت عقيمة النتيجة، واضْطُرَّ إلى عقد الصلح مع الروم.

وقد ذكر ابن عِذاري في حوادث هذه السنة هذه القضية[118] وقال إنّ الروم نزلوا بالمهدية وزويلة في التاريخ المذكور، بذلك العدد من الأساطيل والمقاتلة، واستباحوهما، وكان الحادث بها عظيما.

115) ص 229 من ج 1، طبع باريس، سنة 1948.

116) نفس المصدر والجزء، ص 300.

117) ص 78 من ق 3، طبع الدار البيضاء 1964.

118) ص 301 من ج 1، طبع ليدن، سنة 1948.

وفي ذلك يقول أبو الحسن الجدّاد من قصيدة له :

أَنَّى يُلِمُّ الْخَـــيَـــالُ أَوْ يَقِفُ وَبَيْنَ أَجْـــفَـــانِنَا ثَوَى الدَّنَفُ
غَـزَا حِـــمَـــانَا الْعَـدُوُّ فِي عَـدَدٍ هُـمَـــا الدُّبَى كَـــثْـــرَةً أَوِ اللُّعَفُ
عِـشْرُونَ أَلْفاً وَنِصْـفُـهَـا انْتَلَفُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَلَيْتَ مَـــا أَنْتَلَفُـــوا
جَـــاءُوا عَلَى غِـــرَّةٍ إِلَى نَفَـــرٍ قَـدْ جَـهِلُوا فِي الْحُـرُوبِ مَـا عَـرَفُـوا

وهي طويلة.

ثم قال :[119] وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة (1106-1105/499)، وجّه تميم أسطوله في عدد جمّ كثير صحبة أبيه الحسن الفهري إلى جزيرة جربة ليحتلّها. ولكن لم يتمّ ذلك لاستعداد أهلها.

وقال بعد ذلك :[120]، إنه في سنة ثلاث وخمسمائة (1110-1109/503)، جرّد من أسطوله خمسة عشر غُراباً للغزو ببلاد الرّوم، فأصيب منها ستة، وعادت الباقية إلى المهدية.

وفي ربيع الأخير سنة سبع وخمسمائة (1113/507)، وصل أسطول المهدية بسبي كثير من بلاد الروم، فسرّ به يحيى بن تميم والمسلمون...

وفي ابن خلدون[121] أن يحيى بن تميم بن المعز الزّيري الصنهاجي، لمّا تَوَلَّى إمارة إفريقية، صرف همّه إلى غزو النصارى في الأساطيل البحرية، فاستكثر منها، واستبلغ في اقتنائها، وردّد الغزو إلى دار البحر فيها حتى اتّقتْه أُمم النصرانية بالجزية من وراء البحر من بلاد الفرنجة وجنوة (Gênes) وسردينيا (La Sardaigne)، وكان له في ذلك آثار ظاهرة عزيزة. وهلك في قصره فُجْأة سنة تسع وخمسمائة (1116/509).

وفي سنة عشر وخمسمائة (1116/510)، أمر ولدُه علي، وخلفُه من بعده، بعمارة أسطول إلى جَرْبة، فحاصرها إلى أنْ أقرّ له أهلها بالطّاعة، ونزلوا على حكمه[122].

ثم وقعت الوحْشة بينه وبين روجار ملك صقلية، بِسَبَبِ سفينة كان أنشأها رافع بن مكّي ابن كامل بقابس، حيث منعه منها علي. واستنصر رافع بروجار ووقعت المقاتلة بين أسطول علي وأسطوله بسببها.

---

119) نفس المصدر والجزء، ص 303.

120) نفس المصدر والجزء، ص 305.

121) ص 207 من ج 1، القسم الأخير، طبع الجزائر، سنة 1263 (1847).

122) ابن عذاري، ص 306 من الجزء المذكور آنفا.

وترتُّب على ذلك تردُّد الرُّسل بين روجار وعلي في شأن بعض الأموال المحجوزة لروجار بالمهدية، وأساء روجار الأدب على علي وهدّده، فغضب علي، وصرف الرسول بدون جواب.

ثمَّ أمر بتجديد الأساطيل والاستعداد لقتاله، فأنشأ أسطولا قويت أنفس الناس به، ومدحته الشعراء بسببه، فقال محمد بن بشير من قصيدة له، وذلك سنة اثنتي عشرة وخمسمائة (1118/512) :

وَأَعْدَدْتَ لِلأَعْدَاءِ كُلَّ مُصَمِّمٍ ... يَسِيرُ إِلَيْهِم قَاصِداً وَهْوَ أَهْوَجُ
كَمِثْلِ الرَّوَاسِي مَنْعَةً غَيْرَ أَنَّهَا ... عَلَى ثَبَجِ الدَّأْمَاءِ تَسْرِي وَتُدْلِجُ
كَأَنَّ الْقَنَا وَالنَّبْلَ فِي جَنَبَاتِهَا ... سِيَالٌ بِأَكْنَافِ الْهِضَابِ وَعَوْسَجِ
يُعِيدُ مُضِيءَ الْجَوِّ أَقْتَمَ حَالِكاً ... دُخَانُ لَظَى مِن نَّارِهَا يَتَوَهَّجُ
إِذَا نَضْنَضَتْ مِنْ أَلْسُنٍ لَهَبِيَّةٍ ... بِمَارِجِ نَارٍ يَسْتَقِلُّ وَيَعْرُجُ
رَأَيْتَ صِلاَلاً أُخْرِجَتْ مِنْ جَهَنَّمٍ ... تُحَرِّقُ أَكْبَادَ الْعُدَاةِ وَتُنْضِجُ

ولم تزل الفتنة قائمة بينهما إلى أن مات علي، ووَلِيَ بعده ابنه الحسن، فكتب إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، سلطان المغرب، بما جرى ووقع. وأغار أمير المسلمين على بلاد روجار بصقلية كما سياتي عند الكلام على الأسطول المرابطي وأعماله بالبحر الأبيض المتوسط.(123)

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة (1135/530)، غزا الحمَّاديون المهدية وحاصروها ما يزيد على الشهرين، وتمَّتْ هذه الحرب بانتصار صَنْهَاجَة آل زيري، واستولوا على بعض سفن الأسطول المحاصر لهم، وقتلوا رُؤَساءها، وتجدَّدت خسائرها في المراسي والأساطيل.(124)

وفي دولة الحسن بن علي، كما في ابن خلدون،(125) كانت حروب ضروس بحرية بينه وبين روجار ملك صِقِلِّيَة، التقتْ فيها أساطيل الصَّناهجة في عِدَّة معارك كان الفلح فيها

123) ملخص من «رحلة أبي عبد الله محمد بن أحمد التيجاني» ص 333-334، طبع تونس سنة 1378 (1958).

124) ابن عذاري، ص 312، من ج 1، طبع ليدن، سنة 1948.

125) نفس المصدر والجزء، ص 313، وابن خلدون، ص 208-209 من ج 1 من القسم الأخير، طبع الجزائر، سنة 1263 (1847).

للصَّنْهاجيين أولاً، ثم للصِّقليين ثانياً، واستَوْلوْا على المهدية. وذلك سنة ثلاث وأربيعن وخمسمائة (1148/543)، بعد معارك مُهولة على يد قائد الأسطول الصِّقلي جُرْجِي مخائيل الأنْطاكي، وكان نصرانياً هاجر من المشرق، وتعلَّم اللِّسان، وبرع في الحساب، وتهذَّب في الشام بأنطاكية وغيرها، فاصْطنعه تميم، واستولى عليه.

ولمَّا هلك، احتال في اللِّحاق بروجار وحظى عنده، واستعمله في أسطوله، وهو الذي حاصر المهدية، وبعد رفع الحصار عنها بواسطة أسطول محمد بن ميمون قائد المرابطين، ووصول أسطول يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية، كانت حروب طاحنة نتج عنها سقوط المهدية في يد روجار سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (1148/543)، إلى أنْ استخلصها عبد المومن الموحدي سنة خمس وخمسين وخمسمائة (1160/555)، بعد استيلاء العدو عليها مدة اثنتيْ عشرة سنة في أخبار طويلة بسطها ابن خلدون في تاريخه.

أسطول صقلية

كما كان بالمغرب العربي أسطول يسيطر على البحر الأبيض المتوسط في عهد الفاطميين والصنهاجيين يحمي حماه ويحرس مراسيه وسواحله، فقد كان للمسلمين بجزيرة صقلِّيَة، منذ فتحها واستيلائهم، عليها، أساطيل ضخمة ذات بأس وعزّ وصولة يُقدَّر عددها بالمَئين، كما عند ڤاسيلييڤ (Vassiliev)، وابن النُّويري، وابن عذاري، وغيرهم.

ولاشكَّ أنَّ الأسطول الصقيلي في عهد الأمراء آل الحسن الكَلْبيين، ثبّت قدم الدولة الفاطمية في هذه الجزيرة التي كانت من المواقع الحربية السّتراتيجية البحرية في ذلك العهد، وثبّت قدم الدولة الصنهاجية بعدها، وقلّل خطر الروم فيها.

ولأهمية هذا الأسطول وعظمته، أسند المعزُّ لدين الله قيادته للأمير أحمد بن الحسين الكلبي، أحد أمراء هذه الجزيرة.

ولمَّا عزم على الرحلة إلى مصر، أقرَّه على إمارة صقلية، وفوّض له الأمر فيها، وجدَّد له قيادة أساطيلها، فكان له ولأولاده من بعده فيها عزٌ وسلطان إلى أن استرجعها الروم منهم.

وقال ابن الخطيب في «أعمال الأعلام»[126]:

في سنة خمس وأربعين وثلاثمائة (956/345)، خرج الحسن بن علي بن أبي الحسن بأسطول عظيم إلى بلد الروم بالأرض الكبيرة، (يعني إيطاليا)، فعدا عليه البحر، ولم يفلت منه إلاَّ القليل.

126) ص 50، طبع باريس، سنة 1910.

وقال أيضا :[127] لمَّا ولي أحمد بن حسن، قام بأمور صقلية خير قيام، ووالى الجهاد، ثم استدعاه المعزّ مَعَد، لما رحل إلى تملّك البلاد المصرية والشامية، وقدّمه على جيوش البحر، وكانت أساطيله عظيمة، ذكرها شُعراؤهم في أشعارهم.

ومن ذلك ما قاله ابن حَمْديس الصقلّي مخاطباً يحيى بن الحسن بن علي منهم من قصيدة طويلة :

أَنْشَأْتَ شَوَانِيَ طَائِرَةً ... وَبَنَيْتَ عَلَى مَاءٍ مُدُناً
بِبُرُوجِ قِتَالٍ تَحْسِبُهَا ... فِي شُمِّ شَوَاهِقِهَا قُنَنَا
تَرْمِي بِبُرُوجٍ إِنْ ظَهَرَتْ ... لِعَدُوٍّ مُحْرِقَةً بَطَنَا
وَبِنَفْطٍ أَبْيَضَ تَحْسِبُهُ ... مَاءً وَبِهِ تَذْكَى السَّكَنَا
ضَمِنَ التَّوْفِيقُ لَهَا ظَفَراً ... مِنْ هُلْكِ عُدَاتِكَ مَا ضَمِنَا.

وقال أيضاً يصف السفينة :

وَقَدْ تَشُقُّ بنا الأَهْوالَ جَارِيَةٌ ... تَجْرِي بِرِيحٍ مَتَى تَسْكُنْ لَهَا تَقِفِ
لَهَا شِرَاعٌ تَرَى الْمَلاَّحَ يَلْحَظُهُ ... كَكَاهِنٍ يَقْسِمُ الأَلْحَاظَ فِي كَتِفِ.

ثم قال ابن الخطيب : فخرج من صقلية في أُخريات شوال عام تسعة وخمسين وثلاثمائة (شوال 359/ شتنبر 970)، وعاجلته وفاته بعد الرحيل بالأسطول بساحل طرابلس، ودفن يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذي الحجة عام ستين وثلاثمائة (ذي الحجة 360/ أكتوبر 971).

وفي سنة ست عشرة وأربعمائة (1025/416)، جهّز المعزّ بن باديس أسطولاً يتألّف من أربعمائة قطعة لاسترجاع بعض المُدن الضائعة بصقلية، ولكنّه غرق بسواحل إفريقية.

وبعد ذلك اختلفت الكلمة فيها، وضعفت إرادة أُمرائها، وأُمراء الصّناهجة بإفريقية، ولم يقدروا على حمايتها، فاستولى الرُّوم عليها، سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (1090/483)، وعادت مسيحية كما كانت، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

127) نفس المصدر والجزء، ص 51.

المبحث الخامس

أسطول الدولة المرابطية

تمهيد

جاء المرابطون من الصحراء، وكانوا في أول عهدهم قوماً بدواً في أخلاقهم وعوائدهم، وسائر أحوالهم، فاعتمدوا في فتوحاتهم الأولى لأطراف المغرب الجنوبية على جيوشهم البرِّية، وهم إذْ ذاك لا يحتاجون بحراً ولا أسطولاً.

ولكنَّهم لمَّا تقدَّموا في سيرهم، وتوغَّلوا في داخلية المغرب غرباً وشمالاً، وجدوا أنفسهم أمام بحرين عظيمين هما : المحيط الأطلسي والأبيض المتوسط، بينهما بوغاز جبل طارق الفاصل بين البرَّيْن المغربي والأندلسي. وكلا البحريْن تتدفَّق أمواجهما على السواحل الإفريقية والشواطئ الإصبانية البرتقالية الموالية لهما، تسبح فيهما، وتتردَّد فوق ثبجهما أساطيل الدول الإسلامية الموالية لهما، والمتَّصلة بشواطئهما وجزرهما، كدول ملوك الطوائف بالأندلس، والدول البربرية التي خلفت الدولة الفاطمية بالمغرب الأوسط، وهي دولة آل زيري وآل حمَّاد الصنهاجيين، وآل سكُّوت البَرَغْواطيين بالمغرب الأقصى وغيرهم، وآل الحسين الكَلْبيين بصقلية وغيرهما من جزر البليار (Les Baléares) : مَيورْقة ومَنورْقة... والأرض الكبيرة الإيطالية، وما وَالاَهَا أو قَرُب منها من جزر أخرى.

وجميع هذه الممالك والجزر كان للإسلام فيها الصَّوْت الأعلى، والكلمة النّافذة، والأساطيل المختارة، والجيوش الجرّارة، تصول وتجول، وتفعل ولا تقول، لمَا لها من السيادة المطلقة في البحرين، ودور الصِّناعة المُتَعَدِّدَة في البرّيْن، ولذلك أَضْرَتْ، كما قال ابن خلدون، لمَّا كانت في إبّان عزَّتها، وعنفوان قوتها، بأساطيل الدول المسيحية ضَرَّاءَ الأسد على فريسته.

واستمرَّ الأمر على ذلك إلى أنْ حلَّ بهذه الدول علامات الضعف والفشل، وظهر في مُقوِّماتها أثر الانهيار والانحلال، وطغيان العدو المجاور لهم، والمقابل لبلادهم عليهم، بغزو مراسيهم بأساطيله، والدولة المرابطية إذْ ذاك في عهد بزوغ شمسها، وامتداد فتوحاتها، فرأت أنَّه لا يتمُّ أمرها، ولا يتَّسع نطاق رقعة مملكتها إلاَّ بأسطول قويٍّ يحمي حماها، ويصون حرمتها، لاسيما والبلاد الأندلسية أَمَامَهَا في أمر مرتجٍّ، واختلاط وضجيج، وحروب نيرانها مستعرة، وفتن بين ملوك الطوائف مستمرة، وقد ملأ صُراخ أهلها مستغيثين الجوَّ بالعدوة الدنيا، وتردَّد صداه في العدوة القُصْوى، والعدوُّ يتنقَّص أرضهم وديارهم ذِراعاً فذراعاً، وشِبْرا فَشِبْراً.

أولية الأسطول المرابطي

كل هذه العوامل الفعَّالة انفعلت لها نفس أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين، فقدَّر وقدَّر، وأمر بالاستعداد لها في الحين لإنشاء أسطول تُخشى صولته، وتُتَّقى سطوته وتُنذر بطشته، وتُحْذر في البحر جولته، بدور الصِّناعة التي دخلت في إمْرته، وانضمَّت إلى ولايته بالمغرب الأقصى والأوسط، والاستفادة من رجال البحر ورؤسائه الذين كانوا بها وبالأندلس.

وفي ابن الأثير وابن خلِّكان أن يوسف بن تاشفين، لمَّا دان له المغرب، تاقت نفسه للعبور إلى الأندلس وأخذ في إنشاء السُّفن والمراكب ليعبُر عليها.

وقد أُنْشِئَ هذا الأسطول، وبلغ عدد قطعه مائة قطعة (100)، تتألَّف من سفن النقل أكثر من سفن القتال، وكان منقسماً إلى عدَّة أقسام، وكلُّ قسم له قائد خاص تحت إمرة القائد الأعلى، أميرال البحر، الذي له السيادة المطلقة فيه من آل ميمون، وهو أبو عبد الله بن ميمون.

آل ميمون رؤساء الأسطول المرابطي

كلُّ آل ميمون كانوا رؤساء بحر في عهد المرابطين، ومنهم علي بن عيسى بن ميمون الذي كان قائد الأسطول الأندلسي بقادس. وأشهرهم :

* **أبو عبد الله بن ميمون.**

ولد بمدينة دانية (Denia) بالأندلس.

ولما ثارت مدينة المارية (Almeria) على المرابطين، عرضوا عليه أن يتولى النظر في شؤونهم، فأعرض عن ذلك قائلا : إنَّه لا يهتمُّ إلاَّ بمهنته، ولا يعرف إلاَّ ما يتعلَّق بأسطوله

وبحريته ؛ ثم قال لهم : هناك تجدوني إن احتجتمْ إليَّ، واختاروا غيري لينظر في مصالحكم الداخلية.

وقد أشار له الشَّقُنْدي في رسالته في فضل أهل الأندلس بقوله :[128] وفيها (أي المارية) كان ابن ميمون الذي قهر النصارى في البحر وقطع سفرهم فيه، وضرب على البلاد الرومانية، فقتل وسبى، وملأ صدور أهلها رُعْبا، حتى كان منه كما قال أشجع :

فَــإذَا تَنَبَّــهَ رُعْــتَــهُ وَإذَا غَــفَــا سَلَّتْ عَلَيْــهِ سُــيُــوفَكَ الأحْــلاَمُ

وبها كان محطّ مراكب النصارى، ومجتمع ديوانهم، ومنها كانت تسفر لسائر البلاد بضائعهم، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي تصلح لهم. اهـ.

وقد وردت أسماء رؤساء بحر آخرين في الدولة المرابطية غير آل ميمون، كالرئيس أحمد ابن عمر المعروف برقم الإوْز، والرئيس القائد أبي السَّداد، وغيرهما، ولم تكن لهم الشهرة التي كانت لآل ميمون.[129]

مشاركة الأسطول المرابطي في فتح سبتة

استعمل يوسف بن تاشفين أسطوله أولا في حفظ نظام المواصلات بين المغرب والأندلس، ونقل الجيوش والعدد والذخائر الحربية، وكانت قطعه دائماً مسخَّرة في مصالح الدولة في طول البحر المتوسط وعرضه، مترددة بين جُزره وممالكه الممتدَّة على حوضه، وسواحل المحيط الأطلسي، وربَّما وصلت إلى الجزر الخالدات (جُزُر الكناري).

وشارك في أول عهده في فتح سبتة وأخذها من يد المعزّ بن سكُّوت البَرغواطي.

قال في كتاب «مفاخر البربر»، نقلاً عن «الذخيرة» لابن بسّام :[130]

كان (يعني ابن سكّوت) لا يجني الأموال إلاَّ من غُلول، ولا يُجيش إلاَّ ابن سبيل، لاسيما البحر فإنَّه اضرم بلججه نارا، وبقارحه إعصارا، أخذ كل سفينة غصْبا، وأضاف إلى كلّ (قلب) رعبا، فضجّت الأرض والسماء، والتقت الشكْوى عليه والدعاء، وأذن الله لأمير المسلمين، فأناخ بعقوبته، وحكمَّ مُداه في سنامه وذروته. وكان من الاتِّفاق العجيب أنْ أنشأ

128) ص 795 من المجلد الثاني، طبع بولاق.

129) «جغرافية» الإدريسي (المغرب وأرض السودان ومصر)، ص 54-55.

130) ص 55-56، طبع الرباط، سنة 1352 (1934).

المعتمد بن عبّاد سفينة ضاهَى بها مصانع الملوك القاهرين، بَعُدَ العهد بمثلها، شدّة أسر، وسَعَة بطن وظهر، كأنَّما بناها على الماء سرْحاً مُمرَّدا، وأخذ بها من الريح ميثاقاً مُؤكَّدا، وَجَّهَهَا إلى مدينة طنجة لتمتار، وقد أنجد أمر الله وأغار.

ولمَّا رأى أمير المسلمين تلك السفينة خاطب المعتمد بن عبّاد فيها، فشنَّت على سبتة موتاً ذريعا، وأقامت بإزائها وسورها حِصْناً منيعا ؛

وفي ابن خلدون أحاطت بها أساطيل ابن عبّاد بحرا.

فلمَّا كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين وأربعمائة (صفر 476/يونيه 1083)، قدَّم أمير المسلمين لأمير سبتة أسطولاً ضخما، وَجَمَ له مَرَدة عفاريتها وجْما، ولقيه المعزّ بن سكّوت ببقية من أسطول طالما أوسع البلاد شراً وملأ قلوب أهلها ذُعْرا، فكان له أوَّل ذلك اليوم ظهور على أسطول المرابطين، حتَّى أخذ منه قطعة جليلة المقدار، ظاهرة الحُماة وَالأنصار، فارتاعت محلة المرابطين لأخذ تِلْكَ القطعة حتى همُّوا بالإحجام، وقوَّضوا بعض الخيام، وغَضِبَ أمير المسلمين، رحمه الله، إحدى غضباته فكانت إياها، وفغرت على سبتة فاها، وتقدَّمت تلك السفينة إلى أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها، وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ به ؛ (وفي ابن خلدون ربيع الآخر)، فلجأ المعزّ بن سكّوت إلى البحر فهمَّ بركوبه، فأعوزه الفرار، ودفع في صدره المقدار، وكرَّ راجعاً، فدخل داراً تُعرف بدار شُوَيْر، وَبِدَرْبِهَا جماعة من المرابطين، فاقتحموا عليه، بعد فرار وقتال شديد، حتَّى ضاق اضطرابه، وفرَّ عنه أصحابه.

ولمَّا أحسَّ بالشر، دفع ذخائر كانت عنده إلى بعض أصحابه، فبلغني أنَّهم عثروا عليها، فوجدوا فيها جوْهراً كثيرا، ونشبا من نشب الملك خطيرا، ووجدوا في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمّود الفاطمي.

وخرج المعزِّ بن سكّوت حين وضح الفجر، فلقيه المعز بن أمير المسلمين، فطلب منه المال، فقال له : «ألخازن أبيك كنت أجمع المال ؟» فجلّله بالحُسام، وحكّم فيه الحِمَام، تعالى من لا يُردُّ قضاؤه، ولا يبيد ولاؤه. اهـ.

وبعد هذا الانتصار ازداد يوسف بن تاشفين اهتماماً بالأساطيل البحرية وبنظامها، والرَّفع من شأن بحّارتها ورؤسائها المُسيِّرين لها، وكان لها الفضل الكبير في فوزه في انتصاراته المتوالية بالأندلس، وخصوصاً في معركة الزلّاقة وما بعدها من المعارك الأخرى مع ملوك الطوائف والاستيلاء على المراسي البحرية، والموانئ السَّتْراتيجية، ودور صناعتها، كالمَرِيَّة وغيرها، بما نقلته من الجيوش والعُدد والذخائر الحربية.

وأعـان بصـفة خـاصـَّة فـعَّالة في معـارك بلنسيـة (Valencia)، الـتي كانـت بين القُـمْـبِيطُورْ (El Campeador) والمرابطين، وكان الفوز لهم.

وبواسطة هذا الأسطول، استولى سيري بن أبي بكر اللَّمتوني سنة تسعين وأربعمائة (1096/490) على جُزُر الباليار، وكانت بيد مبشر الملقَّب بناصر الدولة، مولى علي بن مجاهد العامري، صاحب بلنسية ودانية، فاحتلَّها المرابطون بدون مقاومة، وثبَّتوا فيها سلطانهم.

رفع الأسطول المرابطي الحصار عن جزيرة ميورقة[131]

كانت جزيرة ميورقة تحت قيادة مُبَشِّر العامري منذ فَتَحها المرابطون إلى سنة ثمان وخمسمائة (1111/508)، فحاصرها النصارى، وبعث مبشر صريخه إلى أمير المسلمين علي ابن يوسف، ومات أثناء الحصار، وحاول خلفه أبو الرَّبيع سليمان أن يغادرها طلباً للنجدة، فأسره النصارى المحاصرون للجزيرة، ومع ذلك وصل الصريخ إلى أمير المسلمين بواسطة القائد أبي عبد الله بن ميْمون الذي استطاع أن يخترق منطقة الحصار بسفينة تحت الظلام، ولم يستطع النصارى المحاصرون اللّحاق به.

فوجَّه في الحين أمير المسلمين أسطولاً ضخماً لإنقاذ الجزيرة بقيادة أمير البحر المرابطي ابن تَفَرْطَسَتْ.

ولمّا أحسَّ النَّصارى المحاصرون بقدوم الأسطول الاسلامي، فرُّوا طالبين النَّجاة مُثْقلين بالسَّبْي والغنائم، بعدما خرَّبوا الجزيرة وأحْرقوها، وقتلوا جُلَّ أهلها، فأصابتهم عاصفة بحرية بعد إقلاعهم، فأهلكتهم، ولم ينج من أسطولهم إلا أربع سفن، طاردها القائد أبو السَّداد، وأغرق منها واحدة، وأسر الثلاث الأخرى، وأصبحَتْ هذه الجزيرة مِلْكاً من أملاك الدولة المرابطية.

131) ملخص من «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس» لعبد الله عنان، ص 77 من ج 1.

إنقاذ سبتة من الاحتلال النورماندي بواسطة الأسطول المرابطي(132)

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة (1143/538)، هجم النورمانديون على سبتة بأسطول قوامه مائة وخمسون قطعة (150) محاولين اقتحامها، فخرج إليهم الأسطول المرابطي الذي كان مرابطاً حولها بقيادة أمير البحر ابن ميمون، ووقعت بينه وبين النورمانديين معركة بحرية عنيفة، غَرِقَ فيها من الجانبين سُفُن عديدة، وقُتل من الطرفين خلق كثير. وكان ذلك دليلاً على أنَّ القوة البحرية المرابطية لها أهمية في ذلك العهد الذي ظهرت فيه الدولة الموحدية، وخصوصاً في حراسة الشواطئ والثغور الموالية للعدو.

وبذلك نجت سبتة من الاحتلال، وتعاقب عليها وُلاة المرابطين إلى أن استقرت في ملك بني غانية(133).

غزو الأسطول المرابطي لصقلية والسواحل الأوروبية.

في سنة ست عشرة وخمسمائة (1122/516)، غزا الأسطول المرابطي برئاسة قائده أبي عبد الله بن ميْمون جزيرة صقلية، وافتتح بها مدينة نَقْطُورَة من عمل روجار، وسبى نساءها وأطفالها، وقتل شيوخها، وسلب جميع ما وجده فيها، ثم تعدَّدت غاراته على صقلِّية حتى ضاق روجار بها درعاً، وصار يُدبِّر التدابير لغزو المهدية.. ولمَّا وقع الهجوم عليها شارك في الدفاع عنها.(134)

ثم جاست قطعه في سواحل صقلية إفْساداً وقتلا وأسرا، وربَّما أغارت على السواحل الإيطالية والفرنسية وشواطئ بْرُوفَانْسْ (Provence)، وأحرقت القُرى والقصور والدّور والكنائس.

مآل الأسطول المرابطي

استمرَّ الأسطول المرابطي قائماً بأعماله جوّالاً في البحرين، ومُسخَّراً في مصالح الدولة، متردِّداً على مراسيها التي على البرَّيْن، الإفريقي والأندلسي، إلى أنْ أسرع إليها

132) نفس المصدر والجزء، ص 247، نقلاً عن أوراق مخطوطة من «البيان المغرب».

133) «صبح الأعشى»، ص 250 من جزء السادس

134) ابن عذاري، ص 308 من ج 1، طبع ليدن.

الانحلال، المؤذن بالاضمحلال والزّوال، وغاب قُرص عظمتها، وجلال سلطانها في محيط الدولة الموحدية التي أحاط بها، وتغشّت أمواجه كالظُّلل سائر أطراف مملكتها، وانحاز تاشفين بن علي مُطارداً مهزوماً من قِبَلِ عبد المومن إلى وهران منتظراً قطَعاً من أسطوله ليركبها إلى الأندلس لعلّها تُنجيه، أو يجِدَ فيها من ينصره ويأويه. كلاَّ إنَّها القوة الساحقة الماحقة، قوة الدولة الجديدة الناشئة، من ورائه التابعة له ولاحقة، تدعو من أدبر وتولّى، وتنذره معلنة بأنَّ الدائرة دارت، والأمر قد انتهى.

فتردّى من شاهق بوهران، وهو يحاول الفرار، فهلك ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (27 رمضان 24/539 مارس 1145)، وكان قائده على الأسطول أبو عبد الله بن ميمون التجأ بأسطوله إلى مرسى قادس ظنّاً منه أنَّها أحسن ملجأ يأوي إليه، وحيث أنَّه كان بحّاراً وله خبرة تامّة باستنشاق الرياح ومعرفة كافية بنواحي هبوبها، فإنَّه استنشق ريح الموحدين آتية من ناحية الغرب، فبادر إلى متابعته، وجرى بأسطوله إلى جهته(135)، وانضمَّ إليه وسلَّم الأسطول إلى عبد المومن.

وفي ابن خلدون(136) أنَّ عَلِياً بن عيسى بن ميمون، قائد الأسطول، نزع عن طاعة لمتونة، وانْتَزى بجزيرة قادس، فلحق بعبد المومن بمكانه من حصار فاس، ودخل في دعوته، وخطب له بجامع قادس، وكانت أول خطبة خُطبت للموحِّدين بالأندلس عام أربعين وخمسمائة (1145/540).

وعدَّ ذلك عبد المومن فتحاً مبيناً، وأصبح من ذلك الحين الأسطول المرابطي موحِّداً مُسخَّراً في دولة الموحِّدين.

---

135) «المُوحِّدون» لروني ميلي (René Millet)، ص 48.

136) ص 310 من ج 2، طبع الجزائر، سنة 1263 (1847).

المبحث السادس

أسطول بني غانية[137]

بنو غانية شُعْبة من الدولة المرابطية، وفرع من شجرتها، وتجمعهم وإياها أواصر القُربى والمصاهرة، زيادة عن كونهم كانوا من كبار وُلاتها على الأندلس وجزر البليار، وهي الجزر الشرقية التي انحازوا إليها وأسَّسوا فيها دولة وأسطولا للدفاع عن أنفسهم. ولا يخفى أنَّ موقع هذه الجزر من البحر الأبيض المتوسط له أهمية كبرى في القديم والحديث، ولا بُدَّ لهم من أسطول يحمي كيانهم ويكون صلة وصل بينهم وبين الشواطئ الأندلسية والإفريقية. وقد لبثوا فيها حيناً من الدهر مدة خلافة عبد المومن بن علي منتظرين سنوح الفرصة لهم لشنّ حرب انتقامية على الدولة التي سلبتهم الحكم والرياسة والسلطان بالمغارب الثلاثة والأندلس.

---

137) المراجع المعتمدة في هذا الفصل المتعلق بأخبار بني غانية :

1- «التاريخ الكبير» لابن الأثير
2 - «كتاب العبر» لابن خلدون
3 - «القرطاس» لابن أبي زرع
4 - «المعجب» للمراكشي
5 - «البيان المغرب» لابن عذاري
6 - «رحلة التيجاني»
7- «الاستقصا» للناصري
8 - «تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين» ليوسف أشباخ الألماني.
9 - «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس» لمحمد عبد الله عنان.
10- «بنو غانية» لألفريد بال Alfred Bell.

وجاء في تقرير لبعض أشراف برشلونة كان هاجر إلى ميورقة في ذلك العهد فراراً من اضطهاد أميره له سنة سبع وستين وخمسمائة (1171/567) أنّ ميورقة الإسلامية في عهد إسحاق بن غانية كانت قوية مزدهرة وافرة المواد، وأساطيلها القوية كان يُحسب لها حسابها في ميزان القوى البحرية في ذلك الجانب من البحر الأبيض المتوسط، وكانت حملاتها البحرية تتردّد غازية بانتظام في شواطئ الممالك النصرانية الغربية منها، وتُثخن فيها، وتحرز مقادير عظيمة من السبْي والغنائم.

وقد كان إسحاق بن غانية أقبل على الغزو وصرف عنايته إليه، فلم يكن له همٌّ غيره، فكان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم يغنم ويسبي وينْكي في العدو أشد نكاية، إلى أنْ امتلأت أيدي أصحابه أموالاً فقوى بذلك أمره وتشبّه بالملوك، ولم تزل هذه حاله إلى أن توفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة (1183/579).

وكان يراسل الموحِّدين ويهاديهم ويختصّهم من كلِّ ما يسبي ويغنم بنفيسه وجَيِّده، ويشغلهم بذلك عنه.

وفي بعض الروايات المسيحية أنَّ مسلمي ميورقة في عهد إسحاق بن غانية غَزَوا ثغر طولون (Toulon) جنوب فرنسا، واستولوْا عليه سنة أربع وسبعين وخمسمائة (1178/574)، وأسروا الڤيكونت صاحب مرسيليا وآخرين من كبراء النصارى، وسخّروا الأسرى في الإنشاء والتعمير والفلاحة، فازدهرت الجُزر، ونما عمرانها، وكثُر قصّادها.

وكان من أثر اشتداد قوة ميورقة البحرية وتوالي غُزاة أسطولها لسواحل الدول النصرانية القريبة منها أنْ سعت جمهوريات جَنوة وپيزا والبندقية، إلى عقد المهادنة والصلح مع اسحاق، فتمَّ عقدها سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (1177/573). وتضمّن هذا العقد الصلح والصداقة وعدم اعتداء كل واحد من الطرفين على الآخر براً وبحراً، واستمرَّ هذا العقد نافذ المفعول إلى أنْ توفي إسحاق في التاريخ المتقدم.

وكان عبد الله ولد إسحاق وخلفه من بعده يحافظ على حسن المعاملة والمواصلة مع الجمهوريات المذكورات، وبذلك ازدهرت تجارة جزره، واستغنى أهلها في عصره.

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة (1188/584)، جدّد هذه المعاهدة التجارية السلمية مع جمهورية جنوة لمدة عشرين سنة، بواسطة سفير ورد عليه منها، فانتشرت بسبب تجديدها تجارة المسيحيين في الجُزر، وسكنوا بها، وأسّسوا المراكز التجارية ومصاريف الأموال، وكانت أموالهم وأمتعتهم محفوظة، وأصبحت مراسي جزر البليار مقصودة للأساطيل التجارية للوسق والوضع.

وحيث كانت هذه الجزر منفصلة في البحر، ومقاطعة للموحدين المسيطرين على إصبانيا، فإنَّه كان لا ياتيهم منها شيء، وكان أسطولهم التجاري قائماً بتموينهم من الخارج بكل ما يحتاجون إليه من سلاح وآلات حرب وأساطيل بحرية وما تتوقف عليه.

وفي مقابلة ذلك كان النصارى يحملون من هذه الجزر منتوجاتها الفلاحية، وكانت أساطيلهم تغدو وتروح في البحر آمنة مطمئنَّة من كل هجوم قرصاني من ناحية الجزر المذكورة.

وبقدر ما كان يحترم أسطول بني غانية أساطيل الدول المُعاهدة لهم، كان يغير على غيرها ويحاربها ويغنم ما فيها من الرجال والأموال.

استعمال بني غانية أسطولهم في نقل الجيوش لمحاربة الموحدين بإفريقية.

كان بَنُو غانية، كما قدَّمنا، مستقرين آمنين مطمئنِّين بجزر البليار، منذ انهيار الدولة المرابطية بالمغرب والأندلس، وقيام الدولة الموحدية إلى زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن لمَّا دارت عليه الدائرة في غزوة شنترين من بلاد غرب الأندلس، وهي بلاد البرتقال الآن، واستُشْهد فيها، وتولَّى بعده ولده أبو يوسف يعقوب المنصور، وبلغ خبر الهزيمة لبني غانية بجزرهم، فاغتنموا هذه الفرصة لاشتغال الموحدين بما أصابهم، وظنُّوا أنَّ الوقت قد حان للانتقام منهم، فتحرَّك فجأة أميرهم علي بن اسحاق بمعونة من انْضمَّ إليه من الأنصار والمهاجرين من بقايا المرابطين الذين كانوا بالأندلس، أو الفارِّين من المغرب، ووضع يده على الأسطول الراسي بميورقة، وشحنه بالمرابطين والميورقيين، وأبحر إلى مرسى بجاية من ثغور الجزائر.

وفي ابن خلدون أنَّه لمَّا استُشهد الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن بالأندلس، وتولَّى بعده ولده أبو يوسف يعقوب المنصور، اغتنم علي بن اسحاق بن غانية فرصة اشتغال الخليفة الجديد بتثبيت قدمه في الملك وتقرير سلطانه، وشرع في تهييء الحرب التي كان يعمل لها، فهيَّأ أسطولا، وحمل فيه الرجال والسلاح والأموال، واستخلف على جُزر الباليار أخاه طلحة، وركب الأسطول، واستصحب معه بعض إخوته، وهم يحيى وعبد الله والغازي وجبارة.

وكانت سائر قطع الأسطول تامّة التسليح، وأضاف إليها قطعا أخرى كان انتزعها من الموحدين الذين كانوا جاؤوا مع علي الروبيرطير طالبين من بني غانية الاعتراف بالدولة الموحدية، فأسرهم، وبلغ عدد قطع الأسطول اثنين وثلاثين قطعة على ما عند الزركشي وابن خلدون. وابن الأثير يقول أقلّ من ذلك.

ولمّا أقلع الأسطول من ميورقة ساعدته الريح في سفره، وكانت العساكر المحمولة فيه من المرابطين الذين تدرّبوا على الحرب البرية، والبعثات البحرية ضدّ الأمم المسيحية الذين ألفوا الأسفار القرصانية فكانوا لا يتهيّبون ما سيقدمون عليه، وفارقوا جزرهم التي لم يرجعوا إليها مرة أخرى بعد ذلك، وكان عددهم مائتي فارس وأربعة آلاف راجل.

وفي السادس من ربيع الثاني عام ثمانين وخمسمائة (6 ربيع الثاني 13/580 نونبر 1184)، أرسى الأسطول بمرسى بجاية على حين غفلة من أهلها، واستولى علي بن غانية عليها، ورفع العلم الأسود شعار الدولة المرابطية على أسوارها، والناس في صلاة الجمعة، فارتقب الغزاة الناس حتى أحرموا بالصلاة، واقتحموا عليهم المدينة، وحاصروا الجامع الأعظم بالخيل والرجل، فمن بايعهم، خلّوا سبيله، ومن توقف عن بيعتهم ضربوا عنقه، وأقام بها علي سبعة أشهر إلى أن استرجعت من يده.

ومنها اندفع تيار مقاومة بني غانية للدولة الموحدية، مدة تزيد على خمسين سنة. وكانوا كقرحة سرطانية في جسمها ما زالت تنهك قوتها وتنخر عظمها إلى آخر أيامها.

وقد استوفينا الكلام على هذه الحروب واتّساع نطاقها بالمغرب وامتدادها إلى الصحراء وتقلّب الغانيين فيها وجولانهم في أصقاعها، كلّما ضايقهم الموحدون وحاولوا القضاء عليهم في كتابنا : «المحيط بأخبار صحراء المغرب وشنقيط».

ولولا الأسطول المُسلّح الذي كان مسخّراً في نقل الجيوش والمؤن بين الجزر والشاطئ الإفريقي والرجال المدرّبون على الحروب البحرية، والحملات القرصانية، لما استطاعوا مجابهة دولة عظيمة قوية كالدولة الموحدية، وهي لازالت في عنفوان شبابها، وكامل عظمتها وقوتها.

وقد كان مآل أسطول بني غانية هذا أنّ الموحدين استولوْا على طرف منه بعد استيلائهم على جزر البليار، والباقي استولوْا عليه في مياه مرسى بجاية لمّا نزلوا بها ونزح بنو غانية عنها في أخبار طويلة وحروب طاحنة ليست من موضوع بحثنا هنا.

المبحث السابع

الأسطول الموحدي

بداية الأسطول الموحدي

كان أسطول الدولة الموحدية قويا عظيما كقوتها وعظمتها واتساع رقعة مملكتها. وكانت بداية هذا الأسطول وأولية تكوينه من الأسطول المرابطي الذي سلّمه ابن ميمون لعبد المومن كما تقدّم، وما استولى عليه من بقاياه التي كانت راسية في بعض مراسي المغرب والأندلس، ومن أسطول بني غانية بعد أخذهم بجاية منهم واستيلائهم عليها.

ولمّا تمهّد لعبد المومن مُلك المغارب الثلاثة والأندلس، وامتدّ سلطانه من المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود مصر شرقاً، ومن تخوم الصحراء جنوباً إلى منتهى حدود الأندلس شمالاً، وتفرّغ لغزو بلاد الأفرنج وجُزر البحر الأبيض المتوسط، اتّخذ دور الصناعة بحلق المعمورة التي تُسمّى اليوم المهدية بناحية سلا ووادي العرائش، ووهران ومرسى هُنين، فأُنشئ له بها في آخر أيامه أربعمائة قطعة، وببلاد إفريقية ووهران وهنين مائة قطعة، وببلاد الأندلس ثمانون قطعة. وكانت القطع الكبيرة ترابط في حلق المعمورة وسبتة وتونس ومالقة وقادس، أو في مياه البرتقال الجنوبية.

ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد، وأمر بضرب السّهام في جميع مملكته، فكان يُضرب له منها كل يوم نحو عشرة قناطير جديدة، فجُمع له من ذلك ما لا يُحصى كثرة.[138]

---

138) «الاستقصا»، ص 158 من ج 1، طبع القاهرة. وص 93 من ج 3 لطبعة وزارة الثقافة.

وقال ابن خلدون في «المقدمة» :[139]

«لمَّا استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة (الثانية عشر ميلادية)، وملكوا العُدوتين، أقاموا خطَّة هذا الأسطول على أتمٍّ ما عُرف، وأعظم ما عُهد...».

وفي عهد المنصور كانت سبتة تُعدُّ أهمَّ ميناء بحري في الشمال المغربي تُنشأ فيه الأساطيل وتُبنى السفن الحربية، لأنَّ القيادة العليا للبحر كانت مستقرة بها وكان رئيسَ هذه القيادة وزيرُ المنصور عبد الله بن جامع.

وقد استطاعت دور الصناعة ومعامل السلاح بسبتة أن تنتج مائة قطعة بحرية في مدة وجيزة بمعونة بعض معامل الريف ودور صناعة السلاح فيها.

وكانت كل هذه القطع البحرية المصنوعة فيها تمخر عُباب البحر وتشقُّ مياه المحيط. وكانت أسماؤها متعدِّدة مختلفة ؛ فمنها ما يعرف بالبطش والشلندد والشواني والمسطَّحات والطرائد إلى غير ذلك من الألقاب ومُسمَّيات ذلك العصر.

وفي «تاريخ الجزائر العام» لعبد الرحمان بن محمد الجيلاني :[140]

امتازت دولة الموحدين عمَّن سواها من دول المغرب والمشرق بقوتها البحرية وكثرة أساطيلها المتنوعة الأشكال من الطرائد والمسطَّحات والشواني والحراريق والزوارق والمراكب بشيء كثير، وبلغ عددها في عهد عبد المومن أربعمائة قطعة حربية (400)، منها مائة قطعة كانت مرابطة بمرسى وهران ومرسى هنين.

وقد كانت السفينة الواحدة من هذه القطع تحمل بضعة آلاف من الرجال ولم يكن في السفن يومئذ ذات الطبقتين غير سفن هذا البحر وهي أكبر من سفن المحيط، وكلها تُصنع بدور الصناعة المنتشرة بكامل العواصم المغربية البحرية فكان منها بالجزائر ثلاث في وهران وهنين وبونة (عنَّابة).

وبهذه الأساطيل، افتتح الموحدون كثيراً من السواحل، وتفوَّقوا على براعة النورمانديين (Les Normands)، وحاربوا في وقائع بحرية شهيرة بالأندلس والمغرب، وهدَّدوا كثيراً من سواحل أوروبا، واستولوْا عليها، فكانت بذلك دولة الموحدين من أقوى دول العالم البحرية وأفخمها، وحازت شهرة عظيمة...».

---

139) ص 213، طبع بولاق.

140) ص 378 من ج 1.

وقال يوسف أشباخ في كتابه : «تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين» :[141]

كان للموحدين قوة بحرية لا بأس بها، لأنَّ ضرورة الاتِّصال الدائم بين إفريقية وإصبانيا ونقل مئات الألوف من الجند إلى شبه الجزيرة كانتا تُحتِّمان الاحتفاظ بأسطول نقل، بيد أنّ أمراء الموحدين كانوا إلى جانب ذلك يحتفظون بأسطول حربي، وقد اقتحموا الجزائر الشرقية وكثيراً من الثغور الواقعة على البحر بمعونة أسطولهم.

وفي عهد أبي يعقوب يوسف، نشبت عدة وقائع بحرية بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة، وأحرز أمير البحر الموحدي كثيراً من ضروب التفوُّق.

وفي حصار المهدية التي كان يحتلُّها النورمانديون أصحاب صقلية، قدم من صقلية أسطول نصراني من مائتي سفينة ليحاول إنقاذ المدينة، فهاجمه أمير البحر الموحدي، أبو عبد الله بن ميمون، وكان لديه أسطول كبير من السفن الأندلسية والمغربية، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية كبيرة لم تغن فيها براعة النورمانديين في البحر شيئا، وأحرز المسلمون عليهم نصراً باهراً، وأحرقوا وأغرقوا جانباً من سفنهم، واستولوْا على جانب آخر.»

وفي كتاب «تاريخ الموحدين» لروني ميلي (René Millet) [142] أنَّ عبد المومن اتَّخذ مدينة سلا مركزاً بحرياً لصنع السفن، وذلك لمَّا عزم على غزو إفريقية وفتح المهدية واسترجاعها من يد الصقليين، فكانت السفن تُصنع بدار صناعتها وتُرسل في الوادي، وتخرج للبحر بعد تجهيزها بكل ما تحتاج إليه.

وكان سبب انتخابه لسلا هو أنَّ مصب الوادي كان حاجزاً لإغارة سفن أخرى أجنبية من البحر على معمل سفنه، بخلاف سبتة التي لم يتوفر فيها هذا الشرط. اهـ.

قلت : وقد استوفينا الكلام على دار صناعة سلا وتطوُّرها في أخبار دولة بني مرين وما بعدها من الدول، وما آلت إليه، أثناء الكلام على آثار بني مرين بسلا، فليُرْجع إليه.

ثم قال ميلي (Millet) : وهكذا فإنَّه لمَّا غزَا عبد المومن إفريقية كان معه يوم احتلَّ تونس سبعون قطعة من أسطوله، ثم صاحبه أسطوله محادياً له في البحر، مسايراً للجيش في البر حتَّى حاصر المهدية.

141) ص 247 من ج 2.

142) ص 80-81 .

وكانت النتيجة انتصار الأسطول الموحدي على الأسطول الصقلي، مع أنه كان متفوِّقاً عليه في العدد، إذ بلغ عدد قطعه مائة وخمسين قطعة.

مدرسة عبد المومن الحربية
لتخريج قادة الجيوش البرية والأساطيل البحرية(143)

كان لعبد المومن اهتمام كبير بنظام جيوشه البرية والبحرية. ولذلك أحدث لها مدرسة سياسية حربية بمراكش لتخريج رجال السياسة وموظَّفي الحكومة وقُوَّاد الجيش والأساطيل البحرية.

وكانت تضمُّ زُهاء ثلاثة آلاف طالب من أبناء الأكابر والأعيان في وقت واحد وكانوا يُسمُّون طلبة العلم أو الحُفّاظ، لأنَّهم زيادة على حفظ القرآن الكريم كانوا يدرسون رسائل المهدي ويحفظونها عن ظهر قلب، وكانوا يدرسون أيضاً عدَّة كتب تتعلق بكيفية إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة.

وكان عبد المومن يجمعهم يوم الجمعة، بعد الصلاة، بقصره ويمتحنهم فيما درسوا بنفسه، ويُلقي عليهم أسئلة يختبر بها تقدمهم في الدرس والعلم تشجيعاً لهم وحثّاً على الاجتهاد، وقصده بذلك أنْ يكونوا رجالاً أكفاء قادرين، وفي استطاعتهم بفطنتهم وذكائهم نفع البلاد، سواء في السلم أو الحرب.

وفي بعض الأيام الأخرى، كان يختبر تقدُّمهم في الفنون الحربية ليعلم مقدرتهم في الطَّعْن بالحِراب، والرَّمْي بالقوْس والسِّهام، والمبارزة وركوب الخيل والرَّكْض في ميادين القتال.

ثم يختبرهم في السباحة والمعارك البحرية، وذلك في بُحيْرة خاصَّة أنشأها لهذا الغرض، على مقربة من قصره، خارج بستانه، مربّعة، طول تربيعها ثلاثمائة باع ؛ وأعدَّ فيها عدداً من السُّفن الكبيرة والصغيرة من كل نوع، ليتمرَّن الشباب فيها على القتال البحري

143) «الحلل الموشية»، ص 125، طبع الرباط.

و«تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين» ليوسف أشباخ الألماني، صفحات : 51-54-57-58، من ج 2.

والتجذيف، وقيادة السفن، والوُثوب إلى سفن العدو، ومزاولة جميع التمارين البدنية، التي تقتضي الخدمة البحرية.

وكان يخصُّ الممتازين بالمهارة والشجاعة بعبارات المدْح والثَّناء والتَّنويه، ويقدِّم لهم بنفسه الهدايا والعطايا جزاءً لهم، لِيَسْتَنْهِضَ همَّتهم، ويستزيد غيرتهم واجتهادهم وإخلاصهم للدولة.

وكان تعليمهم جميعاً على نفقة الحكومة، ويصرف إليهم جميع ما يحتاجون إليه من خيل وسلاح وغيره.

وكان له بين هؤلاء التلاميذ ثلاثة عشر ولداً ثُقِّفوا على هذا النهج. ويذكر المؤرخون أنَّهم كانوا يُبدون في هذه الامتحانات تفُوقاً وبراعة في الفنون الحربية والمعارف الدينية.

وكان يأمر بنشر وقراءة الكتب التي تتحدَّث عن الفروسية وسِيَرِ الفرسان، وكتب المغامرات والقصص في جميع أنحاء مملكته، سواء في المغرب أو الأندلس. قالوا : بل سمح بقراءتها حتَّى فوق منابر المساجد.

وكان يخصِّص أهل الثُّغور في المغرب والأندلس بتقديم شبابهم للجندية البحرية والسفن.

وكانت مراكش تقدِّم أربعمائة بحَّار، وإقليمها مائة وخمسين، وطنجة وسبتة ومراسي الريف ووهران وهنين، مائة بحار، وتقدم الأندلس ثمانمائة بحار.

واختصَّ أهل الصحراء والمناطق الغنية بتقديم الخيْل والفُرسان ودوابّ الحمل وأهل الولايات الأخرى بتقديم الجند والمُشاة والسلاح... .

قلت : وفي هذا دليل على أنَّ الدولة الموحدية كان لها اعتناء كبير بالفروسية والتمارين الحربية بِّرية وبحرية، تُربِّي عليها شبابها منذ النشأة الأولى ليكونوا رجالاً أكفاء فيما سيُسند إليهم من المهام الكبرى، وما سيُطوّقون به من المسؤولية العُظمى.

وقد نوَّه بهذه التربية الصحية الصحيحة في ذلك العصر أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار»، والشهاب المقدسي في «الرَّوْضتين» ، وابن شدَّاد فيما دوّنه من أخبار صلاح الدين وغيرهم.

وهذه هي التَّمارين الرياضية، والمسابقة في الفروسية المعمول بها في عصرنا هذا في سائر الدول المتمدّنة.

اتّخاذ عبد المومن جبل طارق قاعدة بحرية لأسطوله

كان عبد المومن، وهو بإفريقية، قد أمر ببناء جبل طارق وتحصينه، وهو جبل الفتح، فبني وشيد حصنه.

وكان ابتداء البناء فيه تاسع ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة (9 ربيع الأول 20/555 مارس 1160)، وكمل بناؤه في ذي القعدة منها (نونبر) [144].

وفي «الحلل الموشية»[145] أنّه اختطّ رسومه بيده، وتولّى بناءه ابنه السيد أبو عثمان، صاحب غرناطة. وكان ممّن بناه وشوّر فيه الحاج يعيش المهندس.

وجاء في الرسالة التاسعة عشرة من «الرسائل الموحدية»، من إنشاء الكاتب أبي جعفر ابن عطية التي خاطب بها عبد المومن طلبة الموحدين من المهدية بإفريقية بيان الأوامر الصادرة منه ببناء هذه المدينة، فقال :[146]

... إلى أن أرسل الله من فضل إنعامه، وصيّب إخطاره وإلهامه، ما استُخير فيه تعالى، فصدقت به الاستخارة، واستقلّت به الأفكار المُدارة، وأذنت فيه بما انشرح له من الصدر بإيذانها مقدّمة البشارة، وهو النظر في اختطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق عمّره الله، مجمع البحرين، والقطب الآخذ بأطراف البرّيْن، يختصّ بعون الله بهذا الأمر العزيز إنشاؤها، ويكون إلى إيجاده اعتزاؤها وانتهاؤها، ويرتكز بفنائها علم الطائفة ولواؤها، وإنّا لنرجو أنّ أشعّة النصر لتلكم الجزيرة تَنْبَثُّ من مطلع هذا الشارق الشاهق، وتلمع في كل قطر بكل بارق، وتضمّ إلى حزب الله وفئته كل منافر منافق، ويكون النظر المحتل بذُراه، المنعقد بعُراه، مطلاً، إن شاء الله، على المغارب والمشارق.

وقد قويت العزيمة، بحول الله، على الاشتغال ببنائه، وعمارة فنائه، والأخذ في شأنه، وإعداده على مقتضى المدن المحصّنة المحسنة لأوانه.

واستخرنا الله تعالى، ووجّهْنا الشيخ أبا إسحاق برّاز بن محمد، والحاج يعيش، أكرمهما الله، للاشتغال بذلك على ما وادعْناهما عليه، وذاكرناهما به في كيفية الاشتغال، وصورة الاعتمال.

---

144) «الاستقصا»، ص 156 من ج 1، طبع القاهرة. وص 91 من ج 3 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

145) ص 129، طبع الرباط.

146) ص 97، طبع الرباط.

ولتجتمعوا، أعزَّكم الله، ومن إليكم من الأشياخ الأندلسيين أكرمهم الله، بهذا الجبل المبارك مع إخوتكم الطلبة الذين بإشبيلية، ومن عندهم من أصحابهم والواصلَيْن من قبلنا اللذين ذكرنا لهم توجيههما، وتنظروا في ذلك المكان بالنظر الحسن الجامع لمصالح المدن ومرافقها، وإجادة الاختيار وتوسعة البناء.

وقد خاطبنا الشيخ الأجل أبا حفص، أعزّه الله، ليصل إلى ذلك المكان إن تمكَّن له، وخاطبنا الشيخ القائد أبا محمد عبد الله بن خيار، أكرمه الله، ليصله، وتتلاقى هناك الآراء والمذاكرة المباركة، وعند الشيخ أبي اسحاق والحاج يعيش ما ذاكرناهما فيه، ممَّا يُعتمد عليه، إن شاء الله.

واللّه يعرف اليمن في ذلك والخيرَة ويجعله عنوان الإقبال، وفاتحة النصر بمنّه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. اهـ.

وقد بيَّن عبد الملك بن صاحب الصلاة في كتابه «المن بالإمامة على المستضعفين»(147) كيفية تنفيذ هذا المشروع وإنجازه على يد من عيَّنهم عبد المومن لذلك، وما بذلوه من الجهود في إبرازه في أقرب وقت لحيز الوجود، وأنَّ هذه المدينة ستكون منزلاً ومَوْئلاً ومحلاً لأولي الأمر، عند إجازة العساكر المنصورة إلى الأندلس.

عبور عبد المومن إلى جبل طارق واحتفاله به وبأسطوله(148)

لمَّا تمَّ بناء جبل طارق وفق ما رسمه عبد المومن وأمر به، حدثت أحداث بالأندلس أوجبت النظر فيها وتدبير شؤونها، وكان إذْ ذاك بتلمسان راجعاً من إفريقية بعد فتح المهدية، فنهض إلى طنجة، ثمَّ انتقل إلى سبتة ومنها عبر البحر إلى جبل طارق في شهر ذي القعدة عام خمسة وخمسين وخمسمائة (قعدة 555/نونبر 1160)، وسمَّاه جبل الفتح، وأقام به شهرين ممهِّداً للمملكة، ومرتِّباً لشؤونها، إلى أنْ تمَّ له ما أراد.

وابتنى به قصوراً ومنازل، واستشرف منه على أحوال البلاد الأندلسية. وهذا هو الجواز الوحيد الذي كان له إليها.

---

147) ص 137 وما بعدها

148) «المن بالإمامة على المستضعفين»، ص 147 وما بعدها، «المعجب»، ص 127، طبع سلا.
و«الاستقصا»، ص 157 من ج 1، طبع القاهرة. وص 93 من ج 3، لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وبرز إليه يوم إجازته البحر من الناس النظارة على سيف البحر عالم لا يحصيهم إلاّ خالقهم. وكان يوماً مذكوراً مشهوراً، أظهر فيه من فخامة الملك والأمر ما لمْ يتقدَّم في سالف الأزمان، ولا تُخُيِّلَ مرآه في الأذهان.

ووفد عليه به وجوه أهل الأندلس وأعيانهم للبيعة، كأهل مالقة وغرناطة وروندة وقرطبة وإشبيلية، وما إلى هذه البلاد، وانضمّ إليها ممَّا لم يكن لملك قبله. واستدعى الشعراء لهذا الجمع ابتداء، ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك، وإنَّما كانوا يستأذنون فيُؤذن لهم، وكان على بابهم طائفة منهم، وأكثرهم مجيدون، فدخلوا على ترتيب وتأديب، وسلَّموا سلام جماعة، وتكلَّموا كلاماً إقراراً بالطَّاعة، وأذن لهم في الإنشاد، فتباروْا في مدحه والثناء عليه وعلى دولته، ووصف أسطوله الضَّخْم الذي كان محتشداً معروضاً أمامهم.

وكان ممَّا أُنشد في ذلك المحفل قصيدة للشاعر أبي العبّاس بن سيد، المعروف باللّص، مطلعها :

غمِّضْ عَنِ الشَّمْسِ واستَقْصِرْ مَدَى زُحَلِ وَانْظُرْ إلَى الْجَبَلِ الرَّاسِي عَلَى جَبَلِ

واسترسل في مدحه ووصف جيشه المصاحب له، ثم تخلَّص إلى وصف الأسطول :

مُصَاحِباً مِثْلَهُ[149] فِي الْيَمِّ مُتَّصِلاً مِنْهُ بِحَزْمٍ وَعَزْمٍ غَيْرِ مُنْفَصِلِ
مِنْ كُلِّ عَائِمَةٍ فِي شَكْلِ طَائِرَةٍ تَشَاكَلَ الأَمْرُ فِيهَا كُلَّ مُشْتَكَلِ
هِيَ الأَسَاوِدُ إِلاَّ أَنَّهَا حُشِيَتْ أُسْداً فَطَالَتْ وَلَوْلاَ الأُسْدُ لَمْ تَصِلِ.

ثمَّ أنشده الشريف الأصم القرطبي، المعروف بطليق النعامة، قصيدة مطلعها :

مَا لِلْعِدَا جُنَّةٌ أَوْقَى مِنْ الْهَرَبِ أَيْنَ الْمَفَرُّ وَخَيْلُ اللَّهِ فِي الطَّلَبِ.

واستمرَّ في مدحه إلى أنْ قال في الجيش والأسطول :

يَرْمِي بِهِمْ ظَهْرُ طَرْفٍ بَطْنَ سَابِحَةٍ فَالْبَرُّ فِي شُغُلٍ وَالْبَحْرُ فِي صَخَبِ
وَتَعْبُرُ الْمَاءَ مِنْهُمْ نَارُ عَادِيَةٍ يُصْلَى بِهَا عَابِدُ الأَوْثَانِ وَالصُّلُبِ
وَطَوْدُ طَارِقٍ قَدْ حَلَّ الإِمَامُ بِهِ كَالطُّورِ كَانَ لِمُوسَى أَيْمَنَ الرُّتَبِ.

---

149) يعني الجيش.

وأنشده في ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي، المعروف بالرُّصافي، قصيدة بليغة ضمَّنها مدحه ووصف أسطوله. وكان يوم إنشاده لها، لم تكمل له عشرون سنة. ولا بأس أن نوردها هنا لاشتمالها على مدحه، ووصف أسطوله، ووصف جبل طارق، قال :(150)

لَوْ جِئْتَ نَارَ الْهُدَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ — قَبَسْتَ مَا شِئْتَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نُورِ
مِنْ كُلِّ زَهْرَاءَ لَمْ تَرْفَعْ ذُؤَابَتَهَا — لَيْلاً لِسَارٍ وَلَمْ تُشْبَبْ لِمَقْرُورِ
فَيْضِيَّةُ الْقَدْحِ مِنْ نُورِ النُّبُوَّةِ أَوْ — نُورِ الْهِدَايَةِ تَجْلُو ظُلْمَةَ الزُّورِ
مَا زَالَ يُقْضِمُهَا التَّقْوى بِمَوْقِدِهَا — صَوَّامُ هَاجِرَةٍ قَوَّامُ دَيْجُورِ
حَتَّى أَضَاءَتْ مِنَ الإِيمَانِ عَنْ قَبَسٍ — قَدْ كَانَ تَحْتَ رَمَادِ الْكُفْرِ مَكْفُورِ
نُورٌ طَوَى اللَّهُ زَنْدَ الْكَوْنِ مِنْهُ عَلَى — سَقْطٍ إِلَى زَمَنِ الْمَهْدِيِّ مَذْخُورِ
وَآيَةٌ كَآيَاتِ الشَّمْسِ بَيْنَ يَدَيْ — غَزْوٍ عَلَى المَلِكِ الْقَيْسِيِّ مَنْذُورِ
يَا دَارُ دَارَ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ بِسَفْـ — ـحِ الطَّوْدِ طَوْدِ الْهُدَى بُورِكْتِ فِي الدُّورِ
ذَاتُ الْعِمَادَيْنِ مِنْ عِزٍّ وَمَمْلَكَةٍ — عَلَى الأَسَاسَيْنِ مِنْ قُدْسٍ وَتَطْهِيرِ
مَا كَانَ بَانِيكَ بِالْوَالِي الْكَرَامَةَ عَنْ — قَصْرٍ عَلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ مَقْصُورِ
مَوَاطِئٌ مِنْ نَبِيٍّ طَالَمَا وَصَلَتْ — فِيهَا الْخُطَى بَيْنَ تَسْبِيحٍ وَتَكْبِيرِ
حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ بِهِ نَعْلاَهُ بُورِكَتَا — فَطَيَّبَتْ كُلَّ مَوْطُوءٍ وَمَعْبُورِ
وَحَيْثُ قَامَتْ قَنَاةُ الدِّينِ تَرْفُلُ فِي — لِوَاءِ نَصْرٍ عَلَى الْبَرَّيْنِ مَنْشُورِ
فِي كَفِّ مُنْشَمِرِ الْبُرْدَيْنِ ذِي وَرَعٍ — عَلَى التُّقَى وَصَفَاءِ النَّفْسِ مَفْطُورِ
يَلْقَاكَ فِي حَالِ غَيْبٍ مِنْ سَرِيرَتِهِ — بِعَالَمِ الْقُدْسِ مَشْهُودٍ وَمَحْضُورِ
تَسَنَّمَ الْفُلْكَ مِنْ شَطِّ الْمَجَازِ وَقَدْ — نُودِينَ يَا خَيْرَ أَفْلاَكِ الْعُلاَ سِيرِي
فَسِرْنَ يَحْمِلْنَ أَمْرَ اللَّهِ مِنْ مَلِكٍ — بِاللَّهِ مُنْتَصِرٍ فِي اللَّهِ مَنْصُورِ
يُومِي لَهُ بِسُجُودٍ كُلُّ مُحَرَّكَةٍ — مِنْهَا وَيُولِيهِ حَمْداً كُلُّ تَصْرِيرِ

150) «المعجب»، ص 86 وما بعدها، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية. و«ديوان الرُّصافي»، طبع دار الثقافة ببيروت سنة 1960، ص 177 وما بعدها.

لَمَّا تَسَابَقْنَ فِي بَحْرِ الزُّقَاقِ بِهِ … تَرَكْنَ شَطَّيْهِ فِي شَكٍّ وَتَحْيِيرِ
كَأَنَّهُ سَالِكٌ مِنْهُ عَلَى وَشَلٍ … فِي الأَرْضِ مِنْ مُهَجِ الأَسْيَانِ مَقْطُورِ
أَهَزَّ مِنْ مَوْجِهِ أَثْنَاءَ مَسْرُورٍ … أَمْ خَاضَ مِنْ لُجِّهِ أَحْشَاءَ مَذْعُورِ
مِنَ السُّيُوفِ الَّتِي ذَابَتْ لِسَطْوَتِهِ … وَقَدْ رَمَى نَارَ هَيْجَاهَا بِتَسْعِيرِ
ذُو الْمُنْشَآتِ الْجَوَارِي فِي أَجِرَّتِهَا … شَكْلُ الْغَدَائِرِ فِي سَدْلٍ وَتَضْفِيرِ
أَعْدَى الْمِيَاهَ وَأَنْفَاسَ الرِّيَاحِ لَهَا … مَا فِي سَجَايَاهُ مِنْ لِينٍ وَتَعْطِيرِ
مِنْ كُلِّ عَذْرَاءَ حُبْلَى فِي تَرَائِبِهَا … رَدْعَانِ مِنْ عَنْبَرٍ وَرْدٍ وَكَافُورِ
نَخَالُهَا بَيْنَ أَيْدٍ مِنْ مَجَاذِفِهَا … يَغْرِقْنَ فِي مِثْلِ مَاءِ الْوَرْدِ مِنْ جُورِ
وَرُبَّمَا خَاضَتِ التَّيَّارَ طَائِرَةً … بِمِثْلِ أَجْنِحَةِ الْفُتْخِ الْكَوَاسِرِ
كَأَنَّمَا عَبَرَتْ تَخْتَالُ عَائِمَةً … فِي زَاخِرٍ مِنْ يَدَيْ يُمْنَاهُ مَعْسُورِ
حَتَّى رَمَتْ جَبَلَ الْفَتْحَيْنِ مِنْ كَثَبٍ … بِسَاطِعٍ مِنْ سَنَاهُ غَيْرِ مَبْهُورِ
لِلَّهِ مَا جَبَلُ الْفَتْحَيْنِ مِنْ جَبَلٍ … مُعَظَّمِ الْقَدْرِ فِي الأَجْيَالِ مَذْكُورِ
مِنْ شَامِخِ الأَنْفِ فِي سَحْنَائِهِ طَلَسٌ … لَهُ مِنَ الْغَيْمِ جَيْبٌ غَيْرُ مَزْرُورِ
مُعَبِّراً بِذَرَاهُ عَنْ ذُرَى مَلِكٍ … مُسْتَمْطِرِ الْكَفِّ وَالأَكْنَافِ مَمْطُورِ
تُمْسِي النُّجُومُ عَلَى إِكْلِيلِ مَفْرِقِهِ … فِي الْجَوِّ حَائِمَةً مِثْلَ الدَّنَانِيرِ
وَرُبَّمَا مَسَحَتْهُ مِنْ ذَوَائِبِهَا … بِكُلِّ فَضْلٍ عَلَى فَوْدَيْهِ مَجْرُورِ
وَأَدْرَدٍ مِنْ ثَنَايَاهُ بِمَا أَخَذَتْ … مِنْهُ مَعَاجِمُ أَعْوَادِ الدَّهَارِيرِ
مُحَنَّكٌ حَلَبَ الأَيَّامَ أَشْطُرَهَا … وَسَاقَهَا سَوْقَ حَادِي الْعِيرِ لِلْعِيرِ
مُقَيَّدُ الْخَطْوِ جَوَّالُ الْخَوَاطِرِ فِي … عَجِيبِ أَمْرَيْهِ مِنْ مَاضٍ وَمَنْظُورِ
قَدْ وَاصَلَ الصَّمْتَ وَالإِطْرَاقَ مُفْتَكِراً … بَادِي السَّكِينَةِ مُغْبَرَّ الأَسَارِيرِ
كَأَنَّهُ مُكْمَدٌ مِمَّا تَعَبَّدَهُ … خَوْفُ الْوَعِيدَيْنِ مِنْ دَكٍّ وَتَسْيِيرِ
أَخْلِقْ بِهِ وَجِبَالُ الأَرْضِ رَاجِفَةٌ … أَنْ تَطْمَئِنَّ غَداً مِنْ كُلِّ مَحْذُورِ
كَفَاهُ فَضْلاً أَنِ انْتَابَتْ مَوَاطِئَهُ … نَعْلاَ مَلِيكٍ كَرِيمِ السَّعْيِ مَشْكُورِ
مُسْتَنْشِقاً بِهِمَا رِيحَ الشَّفَاعَةِ مِنْ … ثَرَى إِمَامٍ بِأَقْصَى الْغَرْبِ مَقْبُورِ
مَا انْفَكَّ آمِلُ أَمْرٍ مِنْهُ بَيْنَ يَدَيْ … يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَحْتُومٍ وَمَقْدُورِ

حَتَّى تَصَدَّى مِنَ الدُّنْيَا عَلَى رَمَقٍ ... يَسْتَنْجِزُ الْوَعْدَ قَبْلَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ
مُسْتَقْبِلَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مُرْتَقِباً ... كَأَنَّهُ بَاهِتٌ فِي جَوِّ أَسْمِيرِ
لِبَارِقٍ مِنْ حُسَامٍ سَلَّهُ قَدَرٌ ... بِالْغَرْبِ مِنْ أُفُقِ الْبِيضِ الْمَشَاهِيرِ
إِذَا تَأَلَّقَ قَيْسِيّاً أَهَابَ بِهِ ... إِلَى شَفًى مِّن مُّضَاعِ الدِّينِ مَوْتُورِ
مَلْكٌ أَتَى عِظَماً فَوْقَ الزَّمَانِ فَمَا ... يَمُرُّ فِيهِ بِشَيْءٍ غَيْرِ مَحْقُورِ
مَا عَنَّ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لَهُ أَرَبٌ ... إِلاَّ تَأَتَّى لَهُ مِنْ غَيْرِ تَعْذِيرِ
وَلاَ رَمَى مِنْ أَمَانِيهِ إِلَى غَرَضٍ ... إِلاَّ هَدَى سَهْمَهُ نُجْحُ الْمَقَادِيرِ
حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِي كُلِّ آوِنَةٍ ... سُلْطَانَ رِقٍّ عَلَى الدُّنْيَا وَتَسْخِيرِ
مُمَيَّزُ الْجَيْشِ مُلْتَفّاً مَوَاكِبُهُ ... مِنْ كُلِّ مُثَّلِلِ عَرْشِ الْمُلْكِ مَقْهُورِ
مِنْ الأُلَى خَضَعُوا قَسْراً لَهُ وَعَنَوْا ... لأَمْرِهِ بَيْنَ مَنْهِيٍّ وَمَأْمُورِ
مِنْ بَعْدِ مَا عَنَدُوا أَمْراً فَمَا تَرَكُوا ... إِذْ أَمْكَنَ الْعَفْوُ مَيْسُوراً لِّمَعْسُورِ
بَقِيَّةُ الْحَرْبِ فَاتُوهَا وَمَا بِهِمُ ... فِي الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ سِيمَاءٌ لِّتَقْصِيرِ
لاَ يَنْكِرُ الْقَوْمُ مِمَّا فِي أَكُفِّهِمُ ... بِيضٍ مَّفَالِيلَ أَوْ سُمْرٍ مَّكَاسِيرِ
إِذَا صَدَعْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ مُجْتَهِداً ... ضَرَبْتَ وَحْدَكَ أَعْنَاقَ الْجَمَاهِيرِ
لاَ يَذْهَلَنَّ لِتَقْلِيلٍ أَخُو سَبَبٍ ... مِنَ الأُمُورِ وَلاَ يَرْكَنْ لِّتَكْثِيرِ
فَالْبَحْرُ قَدْ عَادَ مِنْ ضَرْبِ الْعَصَا يَبَساً ... وَالأَرْضُ قَدْ غَرِقَتْ مِنْ فَوْرِ تَنُّورِ
وَإِنَّمَا هُوَ سَيْفُ اللَّهِ قَلَّدَهُ ... أَقْوَى الْهُدَاةِ يَداً فِي دَفْعِ مَحْذُورِ
فَإِن يَكُنْ بِيَدِ الْمَهْدِيِّ قَائِمُهُ ... فَمَوْضِعُ الْحَدِّ مِنْهُ حَدُّ مَشْهُورِ
وَالشَّمْسُ إِنْ ذَكَرَتْ مُوسَى فَمَا نَسِيَتْ ... فَتَاهُ يُوشَعَ قَمَّاعَ الْجَبَابِيرِ

وفي الأسطول الموحدي يقول الشاعر يونس القسطلّي يخاطب بني عبد المومن :

لَكُمُ الْبَسِيطَةُ أَرْضُهَا وَمِيَاهُهَا ... تَجْرِي الْجِيَادُ وَيَسْبَحُ الأُسْطُولُ
فَإِذَا انْتَحَيْتُمْ مِّنْ بِلاَدٍ وِجْهَةً ... قَرُبَ الْبَعِيدُ وَضُمَّ مِنْهُ الطُّولُ

ووصف أبو الحسن بن حريق قطع الأسطول الموحدي حينما تشقُّ وَحَدَاتُهُ عباب البحر فيدخل الماء إلى جوفها، ويخرج من كل ثقب. وشبَّه الماء الخارج من الزَّوْرق بلسان الأفاعي فقال:

وَكَــأنَّمَــا سَكَنَ الأَرَاقِمُ جَـوْفَـهَـا مِنْ عَـهْـدِ نُوحٍ صَـاحِبِ الطُّوفَـانِ
فَــإِذَا رَأَيْنَ الْمَــاءَ يَطْفَحُ نَضْنَضَتْ مِنْ كُلِّ خَــرْتٍ حَـــيَّـــةٌ بِلِسَـــانِ

وفي الأسطول الموحدي يقول الأديب، أبو عمر يزيد بن عبد الله بن أبي خالد اللّخمي الإشبيلي :

وَيَا لِلْجَـوَارِي الْمُنْشَـآتِ وَحُـسْنِهَـا طَوَائِرِ بَيْنَ الْمَــاءِ وَالْجَــوِّ عُــوَّمَــا
إِذَا نَشَـرَتْ فِي الْجَـوِّ أَجْنِحَـةً لَهَـا رَأَيْتَ بِهِ رَوْضــاً وَنُوراً مُكَمَّـــمَــــا
وَإِنْ لَمْ تَهِجْهُ الرِّيحُ جَاءَ مُصَافِحاً فَمَدَّتْ لَهُ كَفّاً خَضِيباً وَمِعْصَمَا
مَجَاذِفُ كَالْحَيَّاتِ مَدَّتْ رُؤُوسَهَا عَلَى وَجَلٍ فِي الْمَاءِ كَي تُرْوِيَ الظَّمَا
كَمَا أَسْرَعَتْ عَدًّا أَنَامِلُ حَاسِبٍ بِقَبْضٍ وَبَسْطٍ يَسْبِقُ الْعَيْنَ وَالْفَمَا
هِيَ الْهُدْبُ في أَجْفَانِ أَنْحَلَ أَوْطَفٍ فَهَلْ صُبِغَتْ مِنْ عَنْدَمٍ أَوْ بَكَتْ دَمَا

والأشعار في أوصاف الأساطيل كثيرة، وإنَّما انتخبنا منها هنا ما قيل منها في الأسطول الموحدي لاتِّحادها بالموضوع.

هذا، وكما وصف شعراء ذلك العصر هذا الأسطول الضخم القوي في وقته شعرا، فقد نوَّه به وبعظمته وأعماله الحربية كُتَّاب ذلك العصر أيضاً نثرا، فيما حبّروه من الرسائل على لسان ملوك الدولة الموحدية إلى بعض الأقاليم الأندلسية والمغربية.

ومن ذلك ما جاء في الرسالة الخامسة التي خاطب بها عبد المومن أهل سبتة يخبرهم فيها بوصول كتابهم إليه عن غزوة أسطولهم لنصارى المرية، وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية، قال فيها بعد الطليعة :(151)

...وقد وُصِّلنا، أكرمكم الله، بمخاطبتكم الأثيرة، فوقفنا على ما سنى الله تعالى لصاحبكم أبي محمد عبد الله بن سليمان وأصحابه النافذين معه في القطائع عمرها الله، حين ركبوا ثبج البحر غُزاة في سبيل الله، مستمطرين من ماء الرحمة على متون تلك الأمواه، فكان من تسهيل الله لهم ما كان، وظهر صنعه الكريم لأوليائه وبان، واجتازوا لأهل مالقة

151) «الرسائل الموحدية»، ص 10، طبع الرباط سنة 1947.

والمُنَكَّب، فأظهروا لهم من أحوال الامتناع، والاستعداد للدفاع، ما أظهروا، وأبدْوا سلاحهم مجاهدين وشمَّروا، ثم استخاروا الله على قصد المرية، فألفوْها قد أخذت بإشعار أولائك الأشقياء حِذْرها، وجمعت على دفع ما لا يدفع من أمر الله أمرها، فصبَّحها أولياء الله بُكرة باكرتها بحتفها، وقطعت دون المدافعة ما قطعته من سيوفها وأكفِّها، والكفرة الذين بها يروْن ما لم يستطيعوا من ضمٍّ شخاتيرهم وتحصيلها، وتفريغها من وسقها ومحمولها. فلما أطلت عليهم تلك القطائع المباركة قاطعة لبرومهم، قارعة لقلوبهم الخبيثة بهوْل صاحبهم، ويومهم، راموا التحصُّن بالشخاتير المذكورة فملأوها سلاحا ورجالا، وتخيلوا من رد أمر الله خيالاً فاسداً وضلالاً، فبادر من بادر من الموحدين أعانهم الله إلى الحبال التي وثقوا بها شخاتيرهم المذكورة في البرِّ، واعتقدوا الإسْناد إليه بها جُنَّة من ذلك الأمر، فقطعوها قطعاً بتّاً، وفتّوا بِصَرْمِها عن البرِّ أعضاد الكافرين فتّاً.

فلمَّا عاين أعداء الله حبالهم أنكاثا، ولم يجدوا دون شفار الموحدين غياثا، بادروا التراسي في الماء، واغتنموا الفرار طمعاً في الإبْقَاء على ذلك الذَّماء، فاقتفى الموحدون بالقتل آثارهم، ووصلوا بالمحاق المستأصل فرارهم، ودخلوا عليهم الباب آمنين، وتخلَّلوا أثناء القطر المذكور أعاد الله لاستنفادهم طالبين.

فلمَّا اخترقوا من أقطاره ما اخترقوا، وحرَّقوا من منشآت الكافرين ما حرَّقوا، واستأصلوا بالقتل كل من أدركوا منه ولحقوا، ورأوْا أنَّ وصولهم إلى المسجد الجامع هناك مُدرَك فابتدروا واستبقوا، ثمَّ أخذوا على بركة الله في الانصراف إلى قطائعهم، والعود إلى مواضعهم، واحتوَوْا على ما كان بالمرسى المذكور من الغُراب والشخاتير، وحرَّقوا ما لم يمكنهم جلبه، ولا توجه لديهم طلبه، وغنموا من تلك الآلات الحربية ما أتى الوصف على ذكره، وأحاط الاعلام بقدره، وعادوا بفضل الله ظافرين بأربح تجارة، ظاهرين بأوضح علامات النَّصر والإمارة.

فالحمد لله الذي أيَّد وأسعد، ومهَّد لأوليائه من أعدائه ما مهَّد... اهـ.

ومن ذلك ما جاء في الرسالة السادسة والثلاثين من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد ابن عبد العزيز بن عيَّاش، على لسان الأمير أبي عبد الله محمد الناصر الموحدي، مخبراً باستيلاء الموحدين على ميورقة ومنورقة ويابسة التي كانت بيد بني غانية، قال بعد الخطاب :[152].

152) صفحة 245.

... فصار الجيشان في سمْت، وتكفَّل الله بإقامة كل صعب من المستصعبات وأمت، وركبوا إلى جند الشيطان بحراً سلس القياد والعِنان، وجواري تسبق في الموْج سبق الجياد يوم الرِّهان، من الصافنات إلاَّ أنَّ الرياح قوادمها، ومن الطير، إلاَّ أنَّ الشراع خوافيها الخافقة ومقادمها، قد جالت بين السماء، وبين بسيط الماء، وأقلَّت من وجوه الجيوش رجالاً كالنجوم مرسلين على السور الذَّميم، وشيطانه الرَّجيم، إلى أنْ نزلوا بساحل ميورقة وأعلام النصر خافقة، وشعار العدو المعرَّة والهُون، والهلاك الذي سبقت به الكاف والنون، ولسان الحال يتلو ما يوقن به الموقنون، ﴿فقد كذَّبوا بالحقِّ لمَّا جاءهم فسوف يأتيهمُ أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾... اهـ

وبهذا الأسطول الضَّخْم الذي تغنَّى به الشعراء في أشعارهم، ونوَّه به الكُتَّاب والمترسِّلون في رسائلهم، سيْطر الموحدون على إفريقية الشمالية، وأذعنت لهم الممالك الأندلسية، بما نقله من الجيوش والأقوات والآلات الحربية، وخصوصاً في فتح المهدية والبلاد التونسية وجزائر بني غانية.

وكان من عادتهم أنَّه يساير جيوشهم في البحر، ويمُدُّهم ويعينهم كلَّما احتاجوا إلى إمداده وإعانته في البر، مع نظام تام، وقواعد محكمة غاية الإحكام، لا يدخلها نسخ ولا تغيير ولا انفصام، ورؤساء عارفين بتدبير شؤونه، ماهرين في الملاحة البحرية مُدرَّبين عليها، وبذلك كانت له السيادة المطلقة في وقته في البحر الأبيض المتوسط.

المبحث الثامن

مشاهير رؤساء الأسطول الموحدي

تمهيد

كما كان ملوك الموحدين يهتمّون بأساطيلهم، ويحرصون كل الحرص على تقويتها وتنمية عددها، كانوا يهتمّون أيضاً برؤسائها، ويختارونهم من ذوي الكفاءة والجُرأة والشجاعة والإقدام والممارسة للشؤون البحرية، والمعرفة التامّة بها وبما تحتاج إليه وتتوقّف عليه من خبرة واطّلاع في علوم الملاحة وما يرجع إليهما ويتعلّق بها.

وكان للأسطول أميرال أو رئيس عام يدير شؤونه، وينظر في جميع ما يتوقّف عليه من بحّارة وعدة وسلاح، يسمونه «الملَنْدْ» بفتح اللاّم المفخّمة، وهو المسؤول أمام وزير الحرب المُسمّى عندهم بصاحب السيف.

ومن أشهر هؤلاء الأميرالات والرؤساء :

آل ميمون

كان آل ميمون رؤساء للأسطول المرابطي. ولمّا انهارت الدولة المرابطية، استسلموا للموحدين، وسلّموا الأسطول لعبد المومن، حسبما تقدم عند الكلام على الأسطول المرابطي.

الأميرال غانم ابن محمد بن سعد بن مردنيش.

تولى قيادة الأساطيل الموحدية بسبتة.

قال في «أعمال الأعلام»: [153]

كان محمد بن سعد بن مردنيش أميراً بإشبيلية، ولمّا أَيِسَ من نفسه، وعلم بتصيير ملكه للموحدين، أشهد على نفسه بإيصائه أبا يعقوب يوسف بن عبد المومن عدوّه على ولده وأهله، ورغب منه في قبول ذلك، وجلْبه إليه ولده بعد موته، فرقَّ لهذا القصد الأمير أبو يعقوب، واهتزَّ لرعْي هذه الوسيلة، فتزوّج ابنة أبي عبد الله بن سعد، وخَلَطَ أهله بنفسه وأورثهم ذلك مُلك البلاد الشرقية زمناً غير يسير.

وكان إعراسه بها ليلة السبت الخامس لربيع الأول من سنة سبعين وخمسمائة (5 ربيع 14/570 أكتوبر 1174)، ووَلَعَ بها، وتغلَّبت عليه حتى كان الناس يضربون المثل بحب الخليفة للزَّرقاء المردنيشية، واتَّفق لقومها من البخث بسببها ما لم يتَّفق لثائر ولا مخالف ملكٍ من إعادته إلى ملكه.

فأنفذ تقديم الأمير أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش على بلنسية، وقدَّم غانم بن محمد بن أخيه على أساطيل العدوة بسبتة، وأمسك هلالا بحضرته أثير الرُّتْبة لديْه.

الأميرال عبد الله بن جامع

هو أبو محمد عبد الله بن جامع بن أبي إسحاق إبراهيم بن جامع، قائد الأسطول الموحدي من أسرة كان لها جاه وظهور في البلاط الموحدي.

قال في «المعجب» للمراكشي: [154] وفي كتاب «بنو غانية» لألفريد بيل (Alfred Bel) [155]:
كان إبراهيم بن جامع (والد هذا الأميرال) من جملة أصحاب المهدي بن تومرت، صَحِبَهُ من مراكش، وكان أصله من الأندلس، وآباؤه من مدينة طليطلة، ونشأ هو، أعني إبراهيم، بساحل مدينة شريش على البحر الأعظم بضيعة تسمى روطة (Rota)، وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبة كل سنة.

ثم انتقل إبراهيم هذا إلى العدوة، وكان يحاول صنعة النحاس، فتعرَّف بابن تومرت، وكان من أصحابه، وهو معدود فيهم، ووُلد له أولاد نالوا في الدولة حظوة وجاهاً متَّسعاً. فمن

153) ص 312 من ق 2، طبع بروفنسال بالرباط، سنة 1352 (1934).

154) ص 128، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

155) ص 50.

أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن، وأبوه عبد الله كان يتولّى في إمارة أبي يعقوب مدينة سبتة وجهاتِها. وزيادة على ذلك ولاية الأسطول في جميع بلادهم ولم يزل كذلك إلى أن مات. وأظنُّ أن أميرَ المومنين أبا يعقوب قتله... اهـ.

الأميرال أحمد الصقلي

كان أحمد الصقلي هذا من أعظم رجال الأسطول الموحدي، وفي عهده بلغت أساطيل المسلمين في الكثرة والاستجادة إلى حدّ لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدناه.

وأصله من صغد غيار الموطِّنين بجزيرة جربة من سرْويكَس، أسره النصارى في سواحلها ورُبي عندهم، واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه، ثم هلك، وولي ابنه فأسخطه ببعض النزعات، وخشي على نفسه، ولَحِق بتونس، ونزل على السيد بها من بني عبد المومن، وأجاز إلى مُرّاكش، فتلقّاه الخليفة يوسف بن عبد المومن بالمبرَّة والكرامة، وأجزل له الصلّة، وقلّده أمر أساطيله، فجلّى في جهاد الأمم النصرانية، وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين.(156)

وبرهن في جميع المواقع التي شارك فيها على استعداده الكبير، ونفوذه التّام، ومعرفته الكبرى بقيادة الأساطيل، وانتصر في حروب بحرية كثيرة على الأساطيل المسيحية، ثم اختاره السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للنظر فيما يجب اتِّخاذه من إصلاح قِطَع الأسطول وتسليحه وإعداده لقطع خطِّ الرجْعة على ابن غانية الذي استولى على بجاية وطرف من المغرب الأوسط، وتحطيم أسطوله الذي يمدُّه بالزاد والرجال من ميورقة.

فجمع قِطَع الأسطول التي كانت مفرَّقة على مراسي المغرب وجدَّدها وأصلحها، ورتَّبها وسلَّحها بما تتوقَّف عليه من الآلات والعدة حتى أصبح الأسطول قادراً على مواجهة العدو (ابن غانية)، وبرزت قطعه من دور الصناعة السبتية في أحسن زيّ وأكمل شارة، تتْبعها الشواني، وهي أهم قطع الأسطول، تحمل الأبراج والقِلاع. وكانت الشلنْديات المُسَطَّحَة تقل المقاتلة والأسلحة، واختصّت الطرائد بنقل الخيْل.

وعيَّن المنصور الوالي على سبتة أبا محمد عبد الله بن أبي إسحاق بن جامع وأحمد الصقلي هذا، والقائد أبا محمد بن عطُّوش للإشراف على هذه القوة البحرية.

156) «المقدمة» الخلدونية، ص 213، طبع بولاق.

ثم أقلع الأسطول متوجِّهاً إلى الجزائر، فدخلها الجيش منتصراً واستردَّها، ثم توجَّه منها إلى بجاية، فأنقذها من يد ابن غانية، وغَنِم أسطوله فزاد في عدده وتقوَّى به.

الأميرال ابن طاع الله الكومي

عبد الله بن طاع الله الكومي، أحد قواد الأسطول في عهد الناصر الموحدي.

أصله من كومِيَة، ووفد على الناصر هو وأسرته، فأكرم مثواه وحبّاه وولاَّه.(157)

وقال ابن خلدون عند كلامه على فتح ميورقة :(158)

لمَّا هلك المنصور، بعث الناصر أسطوله مع عمِّه السيد أبي العلاء والشيخ أبي حفص منازلاً ميورقة، ودُخلت البلد عنوة واستُفْتحت، وقُتل تاشفين أخو علي بن غانية، وانصرف السيد إلى مراكش، وولّى على ميورقة عبد الله بن طاع الله الكومي. ثم ولَّى الناصر عليها السيد أبا زيد، وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر.

157) ألفريد بيل (Alfred bel)، «بنو غانية»، ص 120.

158) ص 332 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 190 من ج الأول، طبع القاهرة. وص 187 من ج 3، لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

159) ابن خلدون، ص 237 من ج 2، طبع الجزائر، و«القرطاس»، ص 129، و«الحلل الموشية»، ص 111-117.

المبحث التاسع

أعمال الأسطول الموحدي

فتح الأسطول الموحدي للمهدية

كان الفرنج النورمانديون أصحاب صقلية أغاروا على تونس وثغورها أوائل القرن السادس الهجري (أوائل القرن الثاني عشر الميلادي)، واستولوْا على عِدَّة مَرَاسٍ، منها صفاقص وتونس وسوسة، ثم استولوْا على المهدية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (1148/543) من يد صاحبها الحسن بن علي الصنهاجي، آخر ملوك آل زيري الصنهاجيين، فلجأ إلى الموحدين واستغاث بهم، وعزم عبد المومن على استرجاع هذه الثغور الإسلامية من يد النصارى، فسار إلى تونس سنة أربع وخمسين وخمسمائة (1159/554)، وهاجمها براً بجيش قوي، وبحراً بأسطول ضخْم. وحاول الفرنج إغاثة إخوانهم، فبعثوا الأساطيل إلى مياه تونس، ووقعت بينهم وبين الأسطول الموحدي معارك بحرية هائلة انتهت بفوز المسلمين واستيلاء عبد المومن على المهدية سنة خمس وخمسين وخمسمائة (1160/555)، بعد أن بقيت في أيدي النصارى اثني عشر عاما.

استعداد الأسطول الموحدي
في عهد أبي يعقوب يوسف لغزو البرتغال.

جاء في «تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين» ليوسف أشباخ الألماني.(160) أنَّ أبا يعقوب يوسف بن عبد المومن، لمَّا كان بالأندلس في غزوته الأخيرة، ورأى أنَّ أمر

---

160) ص 72 من ج 2.

النصارى قد استفحل، واشتدَّ تكالبهم على الأراضي الإسلامية وخصوصاً بناحية البلاد البرتقالية، اهتمَّ بذلك اهتماماً كثيرا، وجمع جيوشاً عظيمة للغزو، وجهَّز أسطولاً ضخْماً من سُفن القتال وسُفن النقل مشحونة بالسلاح والرجال وآلات الحصار والمؤن عند مصبِّ الوادي الكبير (Guadalquivir) ووادي يانَّة (Guadiana)، وأمر أن يكون على أُهْبة ليؤيِّد جهود الجيوش الزاحفة على البرتقال، وذلك قُرْبَ وفاته، رحمه الله، سنة ثمانين وخمسمائة (1184/580)، زيادة على المعارك الحربية البحرية التي كانت جارية بين الأسطولين : الموحدي والمسيحي، منذ سنة تسع وسبعين وخمسمائة (1183/579).

حصار الأسطول الموحدي لمدينة قابس

لمَّا انتصر أبو يوسف يعقوب المنصور على ابن غانية في معركة الحمَّة بالإيالة التونسية، انصرف إلى حصار مدينة قابس التي كان حصَّنها قرقوش الغُزِّي، واتَّخذها ملجأً لأهله وولده، فضيَّق عليها برّاً، وحاصرها الأسطول بَحْراً حتَّى استسلمت، واعتصم حاشية قرقوش بالقصبة، ثم استسلموا بعد يومين على أنْ يمنَّ عليهم المنصور بحياتهم لا غيْر. ولمَّا تمكَّن منهم وجَّههم في الأسطول بحراً إلى تونس، ومنها غرَّبهم إلى مراكش قطعاً لشأفة ضررهم.(161)

161) ابن الأثير، ص 344 من الجزء 6. وابن خلدون ص 253 من ج 2، طبع الجزائر.

المبحث العاشر

استنجاد صلاح الدين بالأساطيل الموحدية في حروبه الصليبية.

لمّا بلغ الأسطول الموحدي أوْج العظمة والضخامة والقوة والذكر والشهرة والسيادة المطلقة في البحر الأبيض المتوسط في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور، مدّ ملوك الإسلام وأمراؤه بمصر والشام أعينهم إليه، وتشوّفوا إلى نصرته، وعلّقوا آمالهم عليه، واستنجدوا به وهمْ إذْ ذاك في ضنك وضيْق من مضايقة الأمم النصرانية لهم وشنِّها الغارة على بلادهم، وخصوصاً الشامية منها، إبّان استفحال الحروب الصّليبية واشتعال نيرانها في الأراضي المقدّسة الفلسطينية، كما هي الحالة اليوم بها مع الفئة اليهودية الصهيونية، أذهب اللّه عنها الرِّجْس وطهّرها تطهيرا، وأبقاها سبحانه تُتْلى في بيوتها آيات الله والحكمة، إنّ اللّه كان لطيفاً خبيراً.

فمدّ صلاح الدين وهو إذ ذاك حامل راية الجهاد والدفاع عن مسلمي الشرق الأوسط، بعد استرجاع المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله من يد الصليبيين إلى أبي يوسف يعقوب المنصور مستنجداً به، وطالباً إعانته بأسطوله ليفُكّ الحصار عن بعض الثغور الشامية التي كانت لا تزال محتلة أو محاصرة، ويمنع وصول المدد والعُدد إلى الصليبيين من النواحي التي كانت تمدُّهم، ويقصّ جناح أسطول صاحب صقلية الذي كان يُعينهم.

فوجّه إليه أوّلاً رسالة سنة خمس وثمانين وخمسمائة (1189/585)، من إنشاء القاضي الفاضل استهلّها بخطابه فيها بأمير المومنين فقال :(162)

162) «صبح الأعشى» للقلقشندي، صفحة 526 من الجزء 6.

«فتح الله بحضرة سيدنا أمير المومنين، وسيد العالمين، وقسيم الدنيا والدين، أبواب الميامين وأسباب المحاسن...».

ثم أخبره بفتح بيت المقدس وتطهيره من الكُفر والرِّجْس، وأنَّ الصليبيين بعد ذلك تظاهروا عليه، وواصلوا هجماتهم على بلاده بجيوشهم وأساطيلهم حتَّى ظنَّ أن البحر طريقا يَبَساً، وتيقَّن أنَّ ما وراءه قد خلا وعسا.

ثم وصف حالة البؤس، وما عليه الناس من اليأس، وتخلَّص لطلب معونته بأساطيله المختارة، وما تُقلِّه من النوتية والبحَّارة، في أحسن زي وأكمل شارة، فقال :

«ولمَّا مخض النظر زُبْده، وأعطى الرأي حقيقة ما عنده، لم تر لمكاثرة البحر إلاَّ بحراً من أساطيله المنصورة، وإنَّ عددها واف، وشطرها كاف، ويمكنه، أدام الله تمكينه، أن يمدَّ الشام منه بعدد كثيف وحدٍّ رهيف، ويَعْهَد إلى واليه أنْ يقيم إلى أن يرْتبع ويصيف، ويمكنه أن يكفَّ شطراً من أسطوله طاغية صقلية، ليقصَّ جناح قلوعه أن تطير، ويعقل عُباب بحره أن يُغير، ويعتقله في جزيرته، ويجري إليه قبل جريرته، ليذهب سيدنا وعَقِبُه بشرف ذكر لا تردُّ به المحامد على عَقِبها، ويقيم على الكفر قيامة تطلع بها شمس النَّصْرِ من مغربها، فإذا نفذ طريقه وعلم الناس بموفده، أورَدُوا وأصدروا في موْرده، وشخص المسلم والكافر ؛ هذا ينتظر بشرى البِدَار وهذا يستطلع لِمَن ستكون عُقبى الدَّار، وخاف وطأة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار، ولوْ برقتْ عليهم بارقة غَرْبِيَة لأغرقهم طوفانها، ولو طلعتْ عليهم جارية بحرية لنعقت فيهم بالشتات غِرْبانها...»

إلى أن قال :

«وقد استشرف المسلمون طلوعها من جهة المحروسة جاراً من الأساطيل تغشى البحار، وليالي من المراكب تركب من البحر النهار، وإذا خَفقت قلوعها خَفقت للقلاع قلوب، وإذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاعين جُنوب، فهي بين ثغر كفر تعْتقله وتحْصره، وبين ثغر إسلام تفرّج عنه وتنصره...»

وحيث لم يكن لهذه الرسالة مفعول، ولم نقف على جواب المنصور عنها، ومرَّت سنة عليها، فقد عاد صلاح الدين إلى مخاطبة المنصور مرة ثانية مستنجداً به غير آيِسٍ من إعانته، ووجَّه له سفيراً خاصّاً من طرفه، ولكنَّه لم يُخَاطِبْهُ هذه المرة بأمير المؤمنين في رسالته.

سفارة عبد الرحمان بن منقذ
إلى المنصور الموحدي مستنجدا بأسطوله

هو عبد الرحمان بن مُحمد بن مرشد بن علي بن مُنقذ، الأمير الكبير، شمس الدولة، أبو الحارث، ابن الأمير نجم الدولة الكناني الشيْزَري، ابن أخِ أسامة بن منقذ، الأديب الشهير.

ولد بشيْزر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة (1128/523)، وكان أديبا محسنا مترسّلا، من بيت الشجاعة والإمرة.

قال ابن خلدون في «المقدمة»:[163]

«انتهت أساطيل المسلمين على عهد يعقوب المنصور في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد، فيما عهدناه.

ولمّا قام صلاح الدين يوسف بن أيوب، ملك مصر والشام لعهده، باسترجاع ثغور الشام من أيدي أُمَم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه، تتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه، فأمدُّوهم بالعدد والأقوات، ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدُّد أساطيلهم فيه، وضعف المسلمين من زمن طويل عن ممانعتهم هناك.

فأوفد صلاح الدِّين عَلَى أبي يوسف يعقوب المنصور، سلطان المغرب لعهده من الموحدين، رسوله عبد الرحمان بن منقذ، من بيت بني منقذ، ملوك شيزر، وكان ملَكَها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته، فبعث عبد الرحمان منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً مدد الأساطيل لتجول في البحر، وتحول بين أساطيل الكفرة، وتعوقهم عن إمداد النصرانية لثغور الشام، وأصحبه كتابه إليه في ذلك من إنشاء القاضي الفاضل البيساني، ولم يخاطبه بأمير المومنين، فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المومنين، وأسرّها في نفسه، وحملهم على مناهج البرِّ والكرامة، وردّهم إلى مُرسلهم، ولم يجبه إلى حاجته من ذلك.

وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل، وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده بشأن الأساطيل البحرية، والاستعداد منها للدولة.» اهـ.

---

163) ص 213، طبع بولاق.

ثم تحدَّث ابن خلدون عن هذه السفارة بطلب الإعانة بالأسطول الموحدي عند الكلام على أخبار المنصور، فقال :[164]

لمَّا فتح صلاح الدين بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (1177/583-1178)، وهدَّم الكنيسة، وامتعضت أمم النصرانية، واعترضوا أسطوله في البحر، بعث صريخه إلى المنصور يطلب إعانته بالأساطيل لمنازلة عكّا وصور وطرابلس، ووفد عليه أبو الحارث عبد الرحمان بن منقذ، بقية أمراء شيزر من حصون الشام، كانوا استبدُّوا به عند اختلال الدولة العُبيدية، فلمَّا استقام الأمر على يد صلاح الدين، وانتظم له ملك مصر والشام، واستنزل بني منقذ هؤلاء، ورعى لهم سابقتهم بعثه في هذه السِّفارة إلى المنصور بالمغرب بهدية.

الهدية

تشتمل هذه الهدية على مصحفين كريمين منسوبين، ووزن مائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية، وسروج عدة ثقيلة.

ووصل إلى المغرب ووجد المنصور بالأندلس، فانتظره بفاس إلى حين وصوله، فلقيه وأدَّى إليه الرسالة، فاعتذر عن الأسطول وانصرف.

وفي كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لشهاب الدين، أبي محمد، عبد الرحمان بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي[165] أنَّ الهدية كانت : ختمة كريمة في ربعة مخيشة بمسك، وثلاثمائة مثقال عنبراً، وعشر قلائد عددها ستمائة حبة، وعود في سبط عشرة منّا، ودهان بلسان مائة درهم وواحد، وقسي بأوتارها مائة وقوسان، وسروج عشرون، ونصول وسيوف هندية، وعشرون نشابا، ونسيج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مُجلَّد، وسبعمائة سهم. اهـ

وجاء فيه[166] نصُّ الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى ابن منقذ يأمره فيها بالسفر إلى المغرب بأمر من الملك صلاح الدِّين مستنصراً بيعقوب المنصور...

164) ص 330 من م 1، طبع الجزائر.

165) ص 172 من ج 2.

166) ص 170 من نفس الجزء.

وتضمَّت برنامج السفر وما سيقوله وينقله عن مرسله لتكون مهمته ناجحة، ووجهته لِلّه خالصة صالحة.

وملخَّص هذه الرسالة بعد الخطاب، أنَّه ينبغي له أن يستقرئ في الطريق وفي البلاد أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم، وأشغالهم وأفعالهم، وما يحبُّونه من القول، نزره وجمه، ومن اللِّقاء، منبسطه ومنقبضه، وكيفية جلوسهم في مجالسهم، من تقصير أو تطويل، والتحية المتهاداة بينهم وصيغتها وأدبها، والعوائد الملكية، وما يتعيّن فيها.

وأنَّ يقصَّ على الملك المرسل إليه سيرة ملكه، وما هو قائم به من الجهاد، وأنَّه نشر أعلام الإسلام بمصر والشام، وفتح بيت المقدس وغيره من الثغور التي كانت تحت سيطرة العدو المحتل لها.

وأنَّ هذا العدو لا يفتر عن تجديد استعداده، وتوفير عُدته وعُدده، وتوالي معونته ومدده، ومع ذلك فإنَّ أساطيل المسلمين، وإنْ كانت أقلَّ عدداً من أساطيله فقد فعلت في الثغور المحصورة أفعالها، وتناقل النَّاسُ أخبارها، وأنَّ ملك الألمان جاء في جموع مُجَمْهرة، وأموال قناطيرها مقنطرة، وأنَّ اللّه أخذه أخذةً رابية، وأغرقه غَرْقَة فِرْعونية...

وأنَّه إذا كانت الإعانة بالأساطيل متيسِّرة، والعدة متوفِّرة، فَالْبِدَارَ البدار، وإن حالت بعض الموانع دُونَ الأساطيل فالإعانة متنوعة، وكما تكون بالأسطول تكون بالرجال والمال، وأنَّ صلاح الدين لم ير مُلبِّياً لندائه، ولا سامعاً لدعائه، إلاَّ المنصور، لاسيما وهو إنَّما دعاه لِمَا هو واجب عليه القيام به من نصرة الدين، والذبِّ عنه بالمشرق، كما هو ناصره وذابٌّ عنه بالمغرب.

وأمره بأنَّه إذا سُئل عمَّا صدر من المملوكين : يوزيا وقرقوش من العيث والفساد بأطراف المغرب، يعتذر عن ذلك، بأنَّهما لم يكونا من وجوه الأمراء والممالك، ولا من الطَّواشية والأولياء، وإنَّما التفَّ عليهما أمثالهما، حتَّى كثرت جُموعُهما، وإلاَّ فمعاذ اللّه أنْ يأمر صلاح الدين مفسداً يُفسد في الأرض، لأنَّه لا يريد إلاَّ الإصلاح ما استطاع...

وكُتبت هذه الرسالة في ثامن وعشري شعبان عام ستة وثمانين وخمسمائة (28 شعبان 13/586 نونبر 1186).

ولمَّا تقرَّر سفره، سلَّم له رسالة أخرى من صلاح الدين إلى المنصور، تتضمَّن تعيين مهمَّته، وموجب سفارته،[167] توّجها بالبسملة والحمدلة والتصْلية على النبي ﷺ.

167) «كتاب الروضتين»، ص 171 من ج 2.

ثم تحيَّة المرسَل إليه، ولم يسمه، ولم يصفه بأمير المؤمنين، مع إظهار تبجيله وتعظيمه، وأنَّ من موجبات هذه الرسالة، إعلامه وتهنئته بفتح بيت المقدس وغيره من الثغور الإسلامية، ورجاء الله سبحانه أن يهيئ الأسباب، ويفتح الأبواب، لفتح باقيها، كطرابلس وصور وعكّا، وأنَّ الجهاد في العدو مستمر، وطالما انهزم جيشه وكُسر، فاستصرخ إخوانه الكُفَّار بالغرب، فأجابوه رجالاً وفرساناً، وشيباً وشبَّاناً، وزمرات وَوِحْداناً، براً وبحراً، ومركباً وظهراً، راكبين إليه سهلاً ووعْراً، باذلين عوناً وذخراً، وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم، ولا أرساناً تقْتادهم، وإنَّما خرجوا ملبّين دعوة بطارقتهم، من غير احتياج إلى عزيمة ملوكهم، وبذلك توفَّر زادهم، وازداد عددهم، لأنَّهم وصل إليهم من البحر، ما تعذَّر عليهم وصوله من البرّ، وأطنب في هذا الموضوع.

ثم ذكر أنَّه التقت عمارتهم في البحر بعمارة المسلمين، ونفذت إلى الثغور المحصورة، وحملت إليه من الأقوات والأسلحة من البحر، ما لا يحمله الظهر، وإنْ كان عدد مراكبهم كثيراً بالنِّسبة لمراكب المسلمين، ولكن عون الله مع الصّادقين الصّابرين.

ثم تخلَّص لمطلبه وغرضه، فقال :

لمَّا كانت حضرة سلطان الإسلام، وقائد المجاهدين إلى دار السَّلام، أوْلى من توجَّه إليه الإسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد، الغُرّ المحجَّلة، الكاشفة لكل معضلة، الكاسفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة، والآثار ظاهرة، والصُّحف عنه باسمة، والسير به معلمة وعالمة، وكل شيء لجهاده قد سكن، إلاَّ السيوف في أغمادها، وقدْ أَمِن، إلاَّ كلمة الكفر في بلادها، ولا يزال في سبيل الله غادياً ورائحاً، ومُواجهاً ومُكافحاً، ومُماسياً ومُصابحاً، يجوز لُجَّة البحر بالمجاهدين ملوكا على الأسرة، وغُزاة تصافح وجوههم السيوف، فلا يخمد نور الأسرة، بذود الفِرَقِ الكافرة، ولوْ ترك سبيله لملأ قراره كلَّ واد، وكلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللَّه. ولولاه لما خمدت شرارة كل زناد. وكان المتوقَّع من تلك الدولة العالية، والعزمة الغادية، مع القدرة الرامية والهمَّة المهدية الهادية، أنْ يمدّ غربُ الإسلام المسلمين بأكثر ممَّا مدّ غرب الكُفَّار الكافرين، فيملأها عليهم جواري كالأعلام، ومدنا في اللُّجج سوائر كأنَّها الليالي مُقْلعة بالأيام، تُطْلع علينا، معشر الإسلام، آمالاً، وتطلع على الكُفَّار آجالا، وتردُ علينا جملة وأرسالا، مُسَومة تمدّها ملائكة مسوّمة، ومعلمة تقدم حيازمها إقدام حيزوم تحت أصحابه، وإنَّما هي منه عزمة تُعين أصحاب الميْمنة، على أصحاب المشْأمة، وكلمة تنفخ الرُّوح في الكلمة.

ثمَّ قال :

ولمَّا استبطأنا الإجابة، ظننّا أنَّها توقَّفت على الاستدعاء، فصرخنا في هذه التحية، فقد تحفل السحب ولا تُمطر، إلاَّ أنْ تحركها أيدي الرياح، وقد تُترك النصرة فلا تظهر إلى أنْ تضرع إليها كلمة الصباح.

وقد سُيِّر لحصن مجلسه الأطهر، ومحله الأنور، الأمير الأجل المجاهد الأمين، الأصيل، شمس الدّين، نفير الإسلام والمسلمين، وسفير الملوك والسلاطين، أبو الحزم عبد الرحمان ابن منقذ، كتب الله سلامته، وأحسن صحابته، ما اخْتير للوفادة إلاَّ من هو أهلها، ولا حَمَلَ الوديعة، إلاَّ من هو محلُّها، ولا بُعث لنهجَ الصلّة، إلاَّ منَ هو مفتاحها، ولا لأداء الأمانة إلاَّ من هو قُبْلَهَا. ومهما استُوضح منه شيء وسُئل عنه فإنَّه على نفسه بصيرة، ومن البيان ذو خبرة، وفي العربية ذو بيت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف، على أنَّ تلك الجلالة، ربَّما ذعرت البيان فأخلف، وما أجدره أن يصادف بسْطة على بِساطه، ونظرة تأذن له في القول على اختصاره، وتوسُّطه وإفراطه، فكلٌّ هو به واف، وكلٌّ هو للفهم الكريم كاف، واللّه تعالى يجعل هذه العزْمة في استنهاض العزيمة منه بالغة مبلغها يسرٌ أهل دينه، ويُوزِعُهم بها اقتضاء ديونه، من الذين اتَّخذوا إلاهاً من دونه، والسّلام الصّادر من القلب السَّليم، والودّ الصَّميم، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العلية، وسدة السيادة الجلية، سلام مودَّة ما أوفد الغرب قبلها مثلها، ورسالة ما خطرت إلاَّ أنفدت وراءها المحبَّة رسلها، ولْيَصل السَّلام رحمة الله وبركاته ورضوانه وتحياته إن شاء الله تعالى.

وكُتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة (شعبان 586/شتنبر 1190).

السفير عبد الرحمان بن منقذ بالمغرب

بارح السفير ابن منقذ، حسبما ورد في «كتاب الروضتين»[168]، الإسكندرية في شيني عمارته مائة وعشرون، في ثالث رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة (3 رمضان 15/586 أكتوبر 1190).

ووصل إلى طرابلس أوَّل البلاد المغربية في الخامس والعشرين من شوال (25 شوال/ 25 نونبر)، وأقام بها إلى ثامن ذي القعدة (8 قعدة /7 دجنبر)، وتوجَّه إلى البلاد المغربية.

168) ص 173 من ج 2.

وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص، ودفْع كتاب السلطان إليه يوم الخميس سابع ذي الحجة (7 ذي الحجة/7 يناير 1191).

وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة (20 حجة/19 يناير 1191). وفي هذا النهار حُملت هدية السلطان إلى خزانته.

وكان انفصاله عن مراكش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (10 محرم 28/588 يناير 1191)، ووصل إلى الإسكندرية في ثامن وعشري جمادى الآخرة من السنة المذكورة (28 جمادى الآخرة/ 11 يوليوز).

وفي «البيان المغرب» لابن عذاري مزيد بيان وتفصيل(169)، وأنَّه وصل إلى إفريقية وبجاية، ومنها توجَّه إلى فاس، قال :

وفي هذه السنة، وصل ابن منقذ رسولاً عن صاحب الشام والديار المصرية، يوسف بن أيوب، الملقب بصلاح الدين. وكان وصوله أوَّلاً إلى إفريقية.

وفي رجب الفرد (غشت 1190)، وصل إلى المنصور أمير المومنين (وهو إذ ذاك بإشبيلية من الأندلس) مخاطبات السيد أبي زيد من إفريقية، والسيد أبي الحسن من بجاية، بوصول المذكور إلى تلك البلاد، وما قابلوه به من المبرة وتوطئة المهاد، والتَّعْريف منهم بكتمانه لسبب وُصوله، ولمَا جاء فيه من أجله من أشغاله، فروجع السادات بالشكر على ما قابلوه به من الإكرام، وأنْ لا يُبحث عنه بشيء من الاستفهام.

ثم قَدِمَت المخاطبات إلى من بالمغرب من الوُلاة والعُمّال بالتوسعة له في نزله والاحتفال به، وأن يستقرَّ بمدينة فاس. فأقام بها إلى أنْ انقضتْ حركة المنصور، فاستُدعي الرسول المذكور، فوصل إليه، وقعد بيْن يديه، وخلا به على اختصاص وانفراد، وأُمر قبل دخوله بقصده إلى المراد، فتلقَّى الجواب من المنصور مُجْملاً، وأُحيل على ما يوضِّحه له الوزراء مُفَسَّراً ومُكَمَّلاً.

ولمَّا دنا إيابه، وحصل على ما يمكن جوابه، أُفيض عليه من النَّوال الغمر والإحسان وضُروب النِّعم والامتنان، وقوبلت هداياه من العوض في نفاسة الأشخاص والأثمان، وانصرف إلى بلاده وقد رأى ووعى في طريقه وفي مدة إقامته ما علم منه أنَّ بالمغرب ملك الإسلام ومقر الإيمان.

169) ص 183 من ج 3، طبع تطوان سنة 1960.

وكان وصوله إلى الاسكندرية أواخر جمادى الآخرة من السنة (أواسط يوليوز).

وفي كتاب «الاستبصار» [170] أن ابن منقذ كان بفاس في رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة (رمضان 587/شتنبر - أكتوبر 1191)، وأن المنصور قابله سادس محرم عام ثمانية وثمانين وخمسمائة (6 محرم 24/588 يناير1192)، وبارح حضرته بعد ذلك بخمسة أيام. ويوخذ منه أنه انتظره بفاس سنة كاملة.

وفي أثناء إقامته بحضرته، مدحه بقصيدة تشتمل على أربعين بيتا، فأجازه عليها بأربعين ألف دينار، ألف دينار لكل بيت. وقال له : «إنَّما أعطيناك لفضلك ولبيتك»، يعني لا لأجل صلاح الدين مُرسلك.

وقد أُثْبِتَ منها في «كتاب الروضتين» ثمانية أبيات، وهي :[171]

سَأَشْكُرُ بَحْراً ذَا عُبَابٍ قَطَعْتُهُ ... إِلَى بَحْرِ جُودٍ مَا لِنَعْمَاهُ سَاحِلُ
إِلَى مَعْدِنِ التَّقْوَى إِلَى كَعْبَةِ الْهُدَى ... إِلَى مَنْ سَمَتْ بِالذِّكْرِ مِنْهُ الأَوَائِلُ
إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ تَزَلْ ... إِلَى بَابِكَ الْمَأْمُولِ تُزْجَى الرَّوَاحِلُ
قَطَعْتُ إِلَيْكَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ مُوقِناً ... بِأَنِّي بِذَاكَ الْقَطْعِ بِالنُّجْحِ كَافِلُ
فَمَا رَاعَنِي مِنْ وَجْبَةِ الْبَرِّ رَائِعٌ ... وَلاَ هَالَنِي مِنْ زَاخِرِ الْبَحْرِ هَائِلُ
وَمَنْ كَانَ غَايَاتِ الْمَعَالِي طِلاَبُهُ ... يَهُونُ عَلَيْهِ كُلُّ أَمْرٍ يُحَاوِلُ
رَجَوْتُ بِقَصْدِيكَ الْعُلَى فَبَلَغْتُهَا ... وَأَدْنَا عَطَايَاكَ الْعُلَى وَالْفَضَائِلُ
فَلاَ زِلْتَ لِلْعَلْيَاءِ وَالْجُودِ ثَانِياً ... تُبَلِّغُكَ الأَيَّامُ مَا أَنْتَ آمِلُ

مسألة الخطاب بأمير المؤمنين، وعدم نجاح سفارة ابن منقذ

كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يُدعى بخليفة رسول الله ﷺ، وعمر، رضي الله عنه، في أول خلافته، يُدعى خليفة خليفة رسول الله ﷺ، ثم لُقِّب بأمير المؤمنين. وهو أول من أُطلق عليه هذا اللقب من خلفاء الإسلام في ظروف وحوادث ذكرها ابن خلدون في «المقدمة»[172]، وغيره من المؤرخين وأرباب السِّيَر.

170) ص 107.

171) ص 174 من ج 2.

172) ص 189، طبع بولاق.

ثم تداول هذا اللّقب بعد ذلك خلفاء بني أُمية وبني العبّاس بالمشرق، والأمويون بالأندلس، والعُبيديون الشيعيون بإفريقية، وكلهم كانوا من قريش.

وعبد المومن بن علي أول من انتحل هذا اللقب لنفسه من غير خلفاء قريش من العرب، ولم يتجرأً عليه أحد قبله من ملوك العجم.

هذا، ولجميع الدول والأمم منذ العصور القديمة ألقاب تشريف وتعظيم تختصٌ بها، وتطلقها على ملوكها وأمرائها، وذوي العزّة والسلطان من أعيانها. وهو بحث طويل الذيل، مديد السيل، تداوله الكتّاب والباحثون في عوائد الأمم وأنظمة دولهم وسِير ملوكهم، وفيه دلالة على تعظيمهم وتقديسهم لهم. والذي يهمُّنا منه هنا هو حدوث هذا اللّقب بالمغرب، وأول من تسمّى به من ملوكه، وما نتج عنه من عدم نجاح سفارة ابن منقذ.

قال في «الاستقصا» :[173]

في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة (1133/528)، تَسَمَّى عبد المومن بأمير المومنين.

واعلمْ أنَّ اللّقب بأمير المومنين كان في صدر الإسلام خاصّاً بالخليفة بالمشرق من بني أمية أو من بني العبّاس بعْدهم.

ولمّا قام عبيد الله المهدي، أول ملوك العُبَيْديين بإفريقية، تسمّى بأمير المومنين، لأنّه كان يرى أنّه أحق بالخلافة من بني العبّاس المعاصرين له بالمشرق. فهو أوّل من زاحم الخليفة في هذا اللقب، ثم تبعه على ذلك عبد الرحمان الناصر الأموي صاحب الأندلس، ورأى أنَّ له في الخلافة حقاً اقتداءً بسلفه الذين كانوا خلفاء بالمشرق، وكلاهما، أعني العبيدي والأموي، قرشي من بني عبد مناف، ثمَّ لمْ يتجاسر أحد من ملوك العجم بالمشرق، ولا من ملوك البربر بالمغرب، على اللّقب بأمير المومنين، لأنّه لقب الخليفة الأعظم القرشي، كما علمت، إلى أنْ جاءت دولة المرابطين، وكان منهم يوسف بن تاشفين، واستولى على المغربين والأندلس، وعظم سلطانه، واتّسعت مملكته، وخاطب الخليفة العبّاسي بالمشرق، فولاّه على ما بيده، وتسمّى بأمير المسلمين أدباً مع الخليفة.

ولمّا جاء عبد المومن هذا لم يُبال بذلك كلّه، واتّسم بالخليفة، وتلقّب بأمير المومنين، وتبعه على ذلك بنوه من بعده، ولسان الحال يقول :

لَقَدْ هُزِلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا   كُلاَهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ. اهـ

173) ص 144 من ج 1، طبع القاهرة. وص 53-54 من ج 3 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

ولم يُسلِّم الملوك ولا مطلق الناس في ذلك العصر لعبد المومن الاتِّصاف بهذا اللَّقب الذي كان مقصوراً على الخلفاء من قريش، وكان سبباً في عدم نجاح سفارة ابن منقذ، لأنَّ المنصور لمَّا وقف على الرسالة التي قدمها له من سلطانه نَقِم عليه تجافيه عن خطابه بأمير المؤمنين، وأسرَّها في نفسه، وحمل السفير ومن معه على مناهج البرِّ والكرامة وردَّهم إلى مرسلهم، ولم يجبه إلى حاجته، كما تقدَّم.

والواقع في هذه المسألة السياسية، بين الدولتين الأيوبية والموحدية، هو أنَّ صلاح الدين استصرخ بالمنصور مرتيْن، رافعاً عقيرته، راجياً من أسطوله إعانته، وذلك بعد فتح بيت المقدس، واستفحال أمر الصَّليبيين وتصلُّبهم في حروبهم معه برّاً وبحراً.

وكانت الصرخة الأولى رسالته التي وجَّهها له سنة خمس وثمانين وخمسمائة (1189/585) وخاطبه في طالعتها بأمير المؤمنين، كما تقدَّم.

ولمَّا استبطأ الجواب، واشتدَّ نطاق الحصار على بعض الثغور الشامية، وتوالت النجدات على العدو، جدَّد استصراخه بالمنصور، ووجَّه له سفيره الخاص ابن منقذ مصحوباً برسالة أخرى سنة ست وثمانين وخمسمائة (1190/586)، ولم يُحَيِّه فيها بإمارة المومنين، فكان ذلك سبباً لعدم سماع صرخته. وقد وقع في تحرير هذه الرسالة أخذ وردٌّ بين أولي الأمر في ديوان صلاح الدين.

قال في «الرَّوْضتين» :[174] ... لم يحصُلْ من جهة سلطان المغرب ما التُمس منه من النجدة، وبلغني أنَّه عزَّ عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين، على جاري عادتهم، وقد كان سلطاناً عادلاً مظهراً للشريعة..»

ثم قال : ووقفتُ على كتاب فاضلي للسلطان يشعر بأنَّ الرسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل، ولا هو مختار لها وأنَّه ليس مشيراً بتركها، ولا كارهاً لسفر رسولها ولا مستبعداً مصلحة قريبة الأمر منها، لكن على وجهها، وأنَّه كتب الكتاب على ما مثل، وفخَّم الخطاب والوصف فوق العادة، وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه...

وأنَّه لا يمكن إلاَّ التعريض، لا التَّصريح بما لا تنجح الحاجة إلاَّ به من لفظة أمير المؤمنين، وأنَّ الذين قالوا ذلك وأفاضوا فيه، يعني لدى السلطان، لم يعرفوا مكاتبة المصريين قديماً، وأنَّ ولي عهد عبد المومن خوطب في أيام الصالح رزيك بالأمير، وأجيب

عن كتابه بتعظيم أمره، والتزام شكره، والآن أراد الأمير السفير أنْ لا يأخذ الكتاب إلاَّ بالتصريح فيه بأمير المؤمنين، وأنَّه إذا لَقِيَ القوم خاطبهم بهذه التحية نيابة عن السلطان، فأجابه القاضي الفاضل بأنَّ الخطاب يكفي وطريق جحده ممكنة، والكتابة حجَّة تقيد اللِّسان عن الإنكار، ومتى قُرئت على منابر المغرب كانوا خالعين في مكان الإجماع، مُبايِعين من لا يحلُّ اتِّباعه، شاقِّين عصا المسلمين، مفرِّقين كلمة المومنين، مطيعين من لا تحلُّ طاعته، مقلِّدين من لا تصحّ وِلاَيَتُهُ...

إلى أن قال : ينبغي الوعْد بهذه المخاطبة، وجعل ما يوخذ منهم ثمناً للوعْد خاصّة، ولكنَّه، أي السفير، امتنع وقال : أنا أقضي أشغالي، وأتوجَّه إلى الإسكندرية، وأنتظر جواب السلطان، وما يفوت وقت.

ثُمَّ وجَّه القاضي الفاضل نسخة الكتاب إلى السلطان، وطلب منه إنْ وافق عليها يُوجِّه له ترجمة يلصقها على ما كتبه (يعني في محلٍّ لفظتي أمير المومنين)...

ثم قال : هذا رأيي، والمومن لا يذل نفسه، وقاسم الأرزاق يوصلها.

وختم كتابه بأنَّه أدّى نصيحته وما يجب عليه، وفوّض الأمر إليه. انتهى باختصار.

ومن هذا يُعلم أن مسألة الخطاب بإمارة المؤمنين كان لها تأثير فعّال في إعراض المنصور عن سماع نداء صلاح الدين من وراء البحار. ولا غرابة في ذلك، لأنَّ الدولة الموحدية كانت إذ ذاك في عنفوان عزِّها، معتزَّة بهذا اللَّقب الذي شاركت فيه آل العباس ببغداد، وكأنَّها تقول لهم : أنا أولى به منكم، لقيامها بالجهاد، وامتداد حدودها إلى الحدود المصرية، وحمايتها للأَصْقَاعِ الأندلسية، وسيادتها المطلقة في البحر الأبيض المتوسط بأساطيلها الجّرارة الكثيرة العدد، المسلحة بالأسلحة الجيدة ومختار العتاد.

وإلى هذه القضية يشير أبو عبد الله، محمد بن علي الدكّالي في رجزه : «إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا» بقوله :(175)

وَكَانَ جَيْشُهُمْ مَعَ الأُسْطُولِ ... يُرْهِبُ أَهْلَ الْعَالَمِ الْمَفْصُولِ
فِي دَوْلَةِ الأَبِ وَالإِبْنِ وَابْنِهِ ... أَيَّامَ كَانَ الشَّامُ فِي مِحْنَتِهِ
ذَاكَ أَبُو أَيُّوبَ اسْتَغَاثَ بِهِمْ ... لَدَى حُرُوبِ الْقُدْسِ وَهْيَ أَعْظَمُ
فَمَا اسْتَفَادَ مِنْهُمُ مُؤَمِّلاَ ... لِسُوءِ تَعْبِيرٍ فَلاَ حَوْلَ وَلاَ

175) ص 22 مخطوط مصور الخزانة الناصرية بسلا.

وهناك أسباب أخرى، اضْطرَّ المنصور لأجلها إلى رفض طلب صلاح الدِّين إعانته بأسطوله.

ومنها ما ذكره بعض المؤرخين المستشرقين الفرنسيين الذين كتبوا في تاريخ المغرب وعلاقته مع الشرق فقال :

إنَّ السبب في ذلك هو أنَّه لمَّا ورد سفير صلاح الدين على المنصور مستنجداً بأسطوله على الصليبيين، تأمَّل المنصور في ذلك، وقارن بين ما ينتج عنه من المصلحة وعدمها، فتبيَّن له أنَّ أسطوله إذا استُعمل في إعانة صلاح الدين سيعوق حقيقةً مواصلة الصليبيين في حروبهم بفلسطين، ولكنَّه أدرك أيضاً أنَّه سيجابه به الأسطول المتَّحد للنورمانديين بصقلية والجمهورية الإيطالية، وبمُقتضى ذلك فإنَّ الهُدنة التي بينه وبين تلك الدول ستنخرق، وبصفته مسلماً وأمير المومنين، يتعيَّن عليه حفظ العهود السِّلمية ولا يحب أن يكون نقضُها من جانبه. قال الله تعالى : ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عهدهم إلى مدَّتهم﴾.

وزيادة على ذلك فإنَّ تيار المدنية الذي ياتي دائماً وأبداً من البحر الرُّومي أثر عليه أنْ يعوقه أو يكون سبباً في انقطاع اتِّصاله ومواصلته.

ولأجل هذا، رفض الإعانة، وأنجى بلاده من التعرُّض لخطر من الأخطار المتوقَّعة... اهـ.

وأمَّا المؤرخ شارل أندري جوليان (Charles André Julien) فإنَّه صرَّح في كتابه المسمّى «تاريخ إفريقية الشمالية»[176] بأنَّ المنصور إنَّما أعرض عن تلبية نداء صلاح الدين لممالأته مملوكه قرقوش لابن غانية في حربه مع الموحدين، كما هو معلوم .

ويوخذ هذا أيضاً من نفس الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى ابن منقذ المتضمِّنة برنامج السفر وما سيقوله وينقله عن سلطانه بأنَّه إذا سُئل عن قرقوش يتبرأ منه، ويعتذر عمَّا صدر منه، وقد تقدَّم ملخَّصها.

وذكر ألفريد بيل (Alfred Bel) في كتابه «بنو غانية»[177] أنَّ علياً بن غانية لمَّا وجَّه ولده مصحوباً بكتابه وكاتبه عبد البرِّ بن فرسان إلى الخليفة ببغداد طالباً إعانته والمصادقة على ولايته، لبّى الخليفة طلبه، وأصدر له عهداً بالولاية والإقرار على ما كان لسلفه المرابطين من الحقوق، وأصدر أوامره إلى صلاح الدين بمصر والشّام بإعانته، فأمر صلاح الدين حينئذ مملوكه قراقوش بإعانته على حرب الموحدين.

---

176) ص 124.

177) ص 75.

قال : وفي هذا دليل على أنَّ المنصور أنِفَ من تسخير أسطوله لصلاح الدين الذي أظهر عداوته له بتسخيره مملوكه في حربه وإعانته عدوه وعدو دولته.

وذكر عبد اللطيف حمزة في كتابه : «أدب الحروب الصليبية»[178] أنَّ صلاح الدين، لمَّا أراد تحصين ملكه ضِدَّ الفاطميين، بل وضدَّ نور الدين، عَهِدَ إلى إخوته في فتح بلاد النوبة واليمن والمغرب.

أمَّا النوبة، فعلى يد أخيه، شمس الدولة.

وأمَّا اليمن، فعلى يد أخيه، نُورَ انْشَاهْ.

وأمَّا المغرب، فعلى يد خادمه، بهاء الدين قراقوش.

وفي «تاريخ الجزائر العام» لعبد الرحمان بن مُحمَّد الجيلاني :[179] لَئِنْ تخلَّف المنصور عن نجدة صلاح الدين، وامتنع عن نصرته يومئذ، فإنَّما كان ذلك اقتصاصا من هذا الأمير الأيوبي، الذي ترك مملوكه قراقوش الغُزِّي يقف ضدَّ الموحدين أيام ثورة بني غانية، فكان صلاح الدين لذلك يُعتبر في نظر سياسة الموحدين عدواً تجب مقاطعته.

على أنَّ أسطول الموحدين يومئذ لم يكن عاطلاً بطَّالاً، بل كان يعمل هو بدوره كذلك على محاربة الصليبيين بالأندلس الذين كانوا أشدَّ على المسلمين من الصليبيين بالمشرق.

كما أنَّ له فضلاً كبيراً في منع الصليبيين هنا من اتِّصالهم ببلاد الشام، مع اشتغاله بردِّ هجمات ابن غانية عن المغرب.

ويقول السيد بوني موري في كتابه : «الإسلام والنصرانية في إفريقية» إنَّ تخلف المغاربة عن النجدة، كان بسبب علاقاتهم التجارية مع أوروبًا، ولمْ يكونوا يطالبونهم بممالك وبلدان كما يطالبون مسلمي الشرق، ويتقاضونْهم أنْ يتخلَّوْا لهم عن بيت المقدس.

وعلى كلِّ حال، فإنْ كانت الأسباب مُتَعَدِّدَة، فإنَّ النتيجة واحدة ؛ وهي امتناع المنصور عن مناصرة صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين بالشَّام وفلسطين.

على أنَّ ابن خلدون حكى قولاً، وأظنُّه تفرَّد به في إنجاز هذه الإعانة، فقال :

---

178) ص 113.

179) ص 379 من ج 1.

«ويقال إنَّه جهَّز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولا، ومنع النصارى من سواحل الشام، والله أعلم.»[180]

تعليق وتعقيب على ما راج في هذه القضية من الرسائل الرسمية

- أولا :

علمنا مِمَّا تقدَّم أنَّ صلاح الدين استصرخ بالمنصور مرَّتيْن، ووجَّه له رسالتيْن. الأولى مؤرَّخة بسنة خمس وثمانين وخمسمائة (1189/585)، واستهلَّها بخطابه بأمير المؤمنين، وهي التي أثبتها القَلْقَشَنْدِي في «صُبْح الأعشي»[181]، ولمْ يذكر اسم الرسول الذي ورد بها على المنصور، مع أنَّه ورد في آخرها عبارة تدلُّ على أنَّه وفد عليه بها وافد، ونصُّها :

«وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا وهو الداعي المسْمِع، والمجْمع المسْتجمع، علمناه أمراً يُسراً، وبوَّأناه الصَّدر فكان وجهاً، وأوْدعناه السِّرَّ فكان صدْراً.» اهـ.

وبهذه العبارة، خُتمت هذه الرسالة.

ويوخذ منها أنَّه وفد بها على المنصور وافد، وهو المعهود من المراسلة بين الملوك، إلاَّ أنَّ هذا الوافد ربَّما كان مبعوثاً فقط، ولم يكن سفيرا، فلم يذكر اسمه.

وإلى هذه الرسالة أشار ابن خلدون[182] لمّا تحدَّث عن سفارة ابن منقذ، فقال :

«وبعث صريخَه إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة (1189/585)»، مع أنَّ هذه الرسالة ليستْ هي الرسالة الصادرة باعتماد ابن منقذ سفيرا، وأثبت نصَّها صاحب كتاب «الروضتيْن»[183]، وهي مخالفة لها نصّاً وإنشاءً وخطاباً وتاريخا. ويوخذ من ذلك أنَّ ابن خلدون لم يقفْ عليها، وإنَّما وقف على الرسالة الأولى، فَظَنَّها هي الرسالة المتعلِّقة بسفارة ابن منقذ.

---

180) ص 331 من ج 1، طبع الجزائر.

181) ص 526 من ج 6.

182) ص 330 من ج 1، طبع الجزائر.

183) ص 171 من ج 2.

وقد استُهلّت هذه الرسالة بالخطاب بأمير المومنين، وهو خلاف ما جاء في الرسالة الثانية، وما ترتّب عليها من الأخذ والردّ بين القاضي الفاضل والسفير ابن منقذ حسبما هو مبسوط في الرسالة التي وجّهها القاضي الفاضل لصلاح الدين مُبدياً نصيحته، متبرّئاً من سوء المآل، وما يترتّب عن هذا الخطاب من تنازل واعتراف بالمنصور وخلافته، وإقرارٍ بشيء هو من خصائص الخلافة العبّاسية القرشية في ذلك العهد.

ومن هذا يُعلم ويترجّح قطعاً أنّ ما ورد في طليعة الرسالة الأولى التي أثبتها القَلْقَشَنْدي مُجرّد تصحيف أو تحريف بأمير المومنين، بدلاً من أمير المسلمين، الذي كان العمل متعارفاً به، جارياً عليه في خطاب السلاطين من الأعاجم والبربر أدباً مع الخليفة القرشي، كما هو معلوم، وكثيراً ما يقع ذلك.

ولا يُعقل أن يقع الخطاب أولاً بأمير المومنين، ثم يُعدل عنه ثانيا، مع أنّ المرسل واحد، وهو صلاح الدين، والمنشئ واحد، وهو القاضي الفاضل، والمُرْسَلُ إليه واحد، وهو المنصور، وينشأ عنه الخلاف بعد ذلك.

ولعلّ السبب الذي دعى المنصور إلى إهمال هذه الرسالة، وعدم الجواب عنها، هو أنّها لم تصل إليه صحبة سفير رسمي، وعدّ ذلك حطّاً من قدره وهو أمير المؤمنين، زيادة على أنّه كان مملوءاً غيظاً وحنقاً على مرسلها لمَا صدر من مملوكه قراقوش، ومناصرته لبني غانية أعداء الدولة، لأنّ حروب قراقوش كانت إذْ ذاك في إبّان حَرَجها سنة أربع وثمانين وخمسمائة (1188/584)، والرسالة مؤرّخة بسنة خمس وثمانين وخمسمائة (1189/585) بعدها، ولذلك أُمر السفير بالاعتذار عنها والبراءة من قَراقوشْ.

ثانيا :

يبدو أنّه لمّا مرّ على الرسالة الأولى قُرابة السنة، ولم يظهر لها تأثير ولا مفعول، وتوالت هجمات وحملات الصليبيين على الثغور الإسلامية الشامية، اضطرّ صلاح الدين إلى تجديد استغاثته، وعيّن هذه المرّة سفيراً خاصّاً من قبَله، هو ابن منقذ، استدراكاً لمَا فات، لأنّه ظنّ أنّ ذلك من الأسباب التي أدّت إلى إهمال رسالته الأولى.

ولكنّه وقع خلاف في بلاط صلاح الدين في مسألة الخطاب بأمير المؤمنين، واضْطُرّ القاضي الفاضل إلى بيان رأيه وموقفه من هذه القضية، وأنّه لمْ يكنْ مشيراً بتركها، ولا كارهاً لسفر سفيرها، ولا مستبعداً لمصلحة قريبة الأمر منها، حسب ما يؤخذ ذلك صراحة من الكتاب الذي وجّهه لسلطانه ببيان ما وقع بينه وبين السفير من الخلاف في ذلك، وأنّه يطالب بإثبات هذا الخطاب في رسالة اعتماده لاعتقاده أنّ نجاح سفارته متعلّق به، وأنّ

القاضي تنازل معه إلى حدٍّ أنْ يكون الخطاب بهذا اللقب مشافهةً، لا كتابة، لأنَّ القول يذهب، والكتابة تبقى حُجَّة...

وأخيراً ذكر أنه سيّر له النسْخة، وإنْ وافقت فيُنعم عليه بترجمة يُلصقها على ما كتبه، لأنَّ السفير امْتنع من السفر إلاَّ بعد الجواب السلطاني.

وهكذا صدرت الرسالة بدون خطاب بأمير المؤمنين. وكان مآلها خيبة السفير في سفارته.

- ثالثا :

رسالة سفارة السفير ابن منقذ مؤرخة بشعبان عام ستة وثمانين وخمسمائة (شعبان 586/ شتنبر 1190). وذُكر فيها اسمه ونُوِّه به، وأنَّه سُيِّر من قِبَل صلاح الدين إلى المنصور دلالةً على رسميته واعتماده.

أمَّا حامل الرسالة الأولى الوارد نصها في «صُبْح الأعشى»، فلا نعلم عنه شَيْئاً فيما اطَّلعنا عليه من المصادر حتَّى الآن، زيادة على ما ذُكر في النصِّ السابق. والكتاب الذي خاطبه به القاضي الفاضل مُبيِّنا له فيه برنامج سفره وسفارته، وما سيكون عليه عمله، مُؤرخ في ثامن وعشري شعبان من السنة المذكورة، وهو تاريخ كتاب الاعتماد السلطاني.

وسفره من الإسكندرية كان في ثالث رمضان من السنة نفسها، كما جزم به صاحب كتاب «الروضتيْن»، وبقي بالمغرب إلى أول سنة سبع وثمانين وخمسمائة (1191/587)، حسبما تقدَّم ذلك مبسوطاً أثناء الكلام على السفارة.

وإنَّما تعيَّن ووجب التنبيه في هذه الملاحظات على بعض النُّقط ليرتفع الشكُّ، ويزول الالتباس والتناقض الملحوظ في النصَّيْن المنقولين عن القَلْقَشَنْدِي وصاحب «الروضتيْن» فيما يرجع للَّقب بإمارة المؤمنين.

ونرجو أنْ يكون هذا التعقيب سدّ عواقب الانتقاد وعقابيل الإشكال، وأبقى الباب مفتوحاً لِمَا عسى أن يُعثر عليه بعد هذا في مصادر أخرى، والله الموفِّق والملْهِم للصواب بمنِّه آمين.

مآل الأسطول الموحدي

لمَّا ضعُفت الدولة الموحدية واضْطَرَبَ حَبْلُهَا، تسرَّب الضُّعف إلى أسطولها وخصوصاً في أيام المامون منهم، كما هو معلوم في التاريخ.

قال ابن خلدون في المقدِّمة : «ممَّا هلك أبو يوسف يعقوب المنصور، واعتلَّتْ دولة الموحدين، واستوْلت أُمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس، وألجئوا المسلمين إلى سيف البحر، وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي، قويت ريحهم، وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوَّة المسلمين فيه إلى المساواة معهم، كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناته بالمغرب، فإنَّ أساطيله كانت عند مراميه الجهاد مثل عُدَّة النصرانية وعديدهم، ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية، ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمِران عليه، والبصر بأحواله وغلب الأمم في لجَّته وعلى أعواده، وصار المسلمون فيه كالأجانب إلاَّ قليلاً من أهل البلاد الساحلية لهم المِران عليه لو وجدوا كثرة من الأنصار والأعوان أو قوَّة من الدولة تسْتجيش لهم أعوانا، وتوضِّح لهم في هذا الغرض مسْلكا.

وبقيت الرُّتْبة في هذا العهد في الدولة الغربية محفوظة، والرَّسْم في مُعاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهوداً بما عساه تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية في البلاد البحرية، والمسلمون يستهبُّون الرِّيح على الكفر وأهله، فمن المشْتَهَر بيْن أهل المغرب عن كُتُب الحدثان أنَّه لا بدَّ للمسلمين من الكرَّة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الأفرنجة وأنَّ ذلك يكون بالأساطيل، والله وليُّ المومنين، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

وكلام ابن خلدون يتنزَّل على حالة الأسطول في زمنه في الدولة المرينية بعد أبي الحسن المريني وغرقه مَرْجِعَهُ من تونس كما سيأتي في محلّه، وإلاَّ فالأساطيل المغربية كان لها شأنٌ وأيُّ شأنٍ بعد ذلك، وخصوصاً في عهد القرصنة السلاوية الرباطية التي أزْعجت أوربَّا وأمريكا. وحيَّرت أقطابها دهراً طويلاً.

والواقع أنَّ الأسطول الموحدي ضعُفَ أمره، كما قال ابن خلدون، بعد يعقوب المنصور ولا يخفى أنَّه كان ثالث عُظماء هذه الدولة، وبعدَه أُصيبتْ بمرض الضّعْف المزْمن والانحلال المؤدِّي إلى الاحتلال والسُّقوط والاضمحلال. ومعلوم أنَّ الدولة إذا كانت قوية قَوِيَ فيها كلُّ شيء، وإذا ضَعُفت ضعُفَ فيها كل شيء، سُنَّة الله في خلقه، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلا. وقد آل ما تباقى من أسطولها بعد انْقضائها إلى الدولة المرينية التي قضتْ عليها وخلفتْها وهو ما سنراه في الفصول الآتية.

أساطيل الدُّول التي خلفت الدولة الموحدية

سقطت الدولة الموحدية وانهدَّ رُكنها، وثُلَّ عرشُها وانْهار كيانها بعدما أنْهكها الضّعْف والانحلال، واخْتفتْ عظمتها وراء تعاقب الدهور والأجيال.

وقام على أنقاضها ثلاث دول بإفريقية الشمالية :

- الدولة الحفْصية بتونس.
- والدولة العبدَوادية الزناتية بتلمسان.
- والدولة المرينية الزَّناتية بالمغرب الأقصى.

واستولى العدُّو على جلِّ ما كان تحت سيادتها من الأمصار والأقاليم بالأندلس، وظهرت دولة بني الأحمر من أسرة ءال نصر بغرناطة وما والاها من جنوب إصبانيا، وانحازوا بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوْعاره متشبِّثين بمعاقله وحصونه، واتَّخذوا غرناطة دار ملكهم وعاصمة سلطانهم، وكلُّ هذه الدول كان لها أسطول على قدر قوَّتها واستطاعتها .

فأمَّا الدولة الحفصية بتونس،

فقد كان لها أسطول مهمٌّ تُنْشئُهُ بدور صناعتها، وتستعمله في حراسة شواطئها البحرية، ونقل جيوشها من ناحية إلى أخرى، وغير ذلك من شُؤُون مملكتها .

وكان لها اعتناء كبير به وبنظامه وتسييره لمجاورتها للعدو ومواجهتها لسواحله وجُزُره التي بالبحر الأبيض المتوسط، وله رؤساء يُدبِّرونه ويتولُّوْن قيادته من ذوي الخبرة والمعرفة الكافية بالشؤون البحرية.

وكان يغزو مراسي العدو وجُزُره، وربَّما انضاف إلى الأسطول المغربي أوْ اتَّحَدَ معه حسبما كانت تدعو إليه الظروف والأحوال، كلَّما اتَّحدت الدولتان أو طغى بحر إحداهما على الأخرى.

ومن أعمال هذا الأسطول أنَّه لمَّا طغى طاغية أرَكُونْ على بلنسية، وحاصرها، واستبْلغ في نكَايَتها أوفد أميرها زيَّان بن أبي الحملات مُدافع بن أبي الحجَّاج بن سعد بن مردنيش، كاتبَهَ أباَ عبد الله بْنِ الأبَّار سفيراً إلى الأمير أبي زكرياء الحفصي بتونس مستصرخاً به، وطالباً نجدته، فوفد وأدَّى الرسالة في يوم مشهود بالحضرة التونسية، وأنشده في ذلك المحفل قصيدته السينية التي مطلعها :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللّهِ أَنْدَلُسَا   إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا

فهزَّت من عطفه، وبعث إليهم أسطوله مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال مع أبي يحيى بن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفصٍ، وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار.

وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار، فنزل بمرسى دانية، واستفرغ المَدَد بها، ورجع بالناضِّ، إذْ لمْ يخلُص إليه من قبل ابن مردنيش من يتسلَّمه منه، واشتدَّ الحصار على بلنسية، وعُدمت الأقوات، وكثر الهلاك من الجوع، ووقعت المُراوضة على إسلام البلد، فتسلَّمها ملك الأرگون في صفر سنة ست وثلاثين وستمائة (1238/636)، وخرج عنها ابن مردنيش إلى جزيرة شُقْر(185).

ومن جملة ما سُجِّل من حركات الأسطول التونسي أنَّه لمَّا انْعقد الصِّهر بين السلطانيْن أبي سعيد المريني وأبي بكر بن أبي زكرياء الحفْصي، الأول في ابنه أبي الحسن، والثاني على ابنته الحرَّة السيدة فاطمة، سنة ثلاثين وسبعمائة (1330-1329/730) زفَّها إليه في أساطيله مع مَشْيخة الموحدين وكبيرهم أبي القاسم بن عتُّو فوصلوا إلى مرسى غسَّاسة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة (1331-1330/731)، وبها قابلهم بنو مرين بما لا مزيد عليه من البر والكرامة(186).

وممَّا سُجِّل من أعمال هذا الأسطول أيضاً ما ذكره الزَّرْكَشي في «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية»(187). أنَّ السلطان أبا العباس أحمد الحفْصي جهَّز سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة (1429-1428/832) أسطولاً كبيراً وأغْزَاهُ مالطة برياسة مملوكه القائد رضوان وأمره أنْ يُنَازِلَهَا ثلاثة أيام، فإنْ أُخذت، وإلاَّ رحَل عنها.

فنازلها وضيّق عليها الحصار، ثم أقْلع عنها بعد أنْ أشرف على أخذها. اهـ.

وهكذا كان لهذا الأسطول التونسي جوْلات متَّحدة مع الأساطيل المغربية، أو منفردة على حدَة في الشواطئ الإيطالية والإصبانية، سواءً في عهد الدولة الحفصية أوْ في عهد الولاية التركية، وخصوصاً لمَّا استفحل أمر القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط، وعصفت ريحها، وامتدَّ تيَّارها، فقد كان قراصنة تونس كثيراً ما يتَّحدون مع قراصنة المغرب، وبالأخصِّ قراصنة سلاَ ورباط الفتح، فيتظاهرون ويتآزرون ويحمي بعضهم ظهر بعض.

185) ابن خلدون، ص 391 وما بعدها من المجلد 1، طبع الجزائر.

186) «الاستقصا»، ص 57 من ج 2، طبع القاهرة. وص 116 من ج 4 طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

187) ص 111، طبع تونس.

وأمّا الدولة العبدوادية بتلمسان.

فقد كان لها كالدولة الحفصية أسطول على قدر طاقتها تستعمله في حراسة سواحلها ومراسيها ونقل ما تدعو الحاجة إليه من جيوشها وخصوصاً أثناء حروبها مع الدولة المرينية التي كانت لا تكاد تخبو نارها حتى تشتعل.

وربَّما استعملته في مَدِّ يَدِ المساعدة والإعانة الجهادية بالأندلس، وإغاثة المحاصَرين من المسلمين بمراسيه.

ومن ذلك ما ذكره يوسف أشباخ الألماني في كتابه «تاريخ المرابطين والموحدين بالأندلس»(188) من أنَّ النّصارى لمَّا حاصروا بلنسية برّاً وبحراً وضيّقوا عليها وجَّه أميرها زيان بن مردَنيش نداءه إلى المسلمين بإفريقية والأندلس ؛ فَأَمَّا مسلموا !الأندلس فلمْ يجيبوا لاشتغالهم بحروبهم الأهلية، وتهديد نصارى قشتالة لأراضيهم. وأمَّا مسلمو إفريقية فقد استجاب له منو م الحفصيون، وقد تقدَّم ما قام به أسطولهم.

وبنو زيان، جهّزوا له أسطولاً صغيراً، وحاولوا النَّفَاذَ به إِلَى ثغر بلنسية، ولكنْ حال دون بُغْيتهم الأسطول المحاصِر لها، والعواصف الشديدة التي صَادَفُوهَا في البحر، فعادوا من حيث جاؤوا، ولمْ ينفعوا البلَنْسيِّين بشيء.

وقد كان هذا الأسطول يندمج في الأسطول المغربي المريني كلما امتدَّ تيَّارُ المرينيّين وغمر إفريقية الشمالية كلّها.

وكان مئاله الاندماج في الأسطول الجزائري في عهد سيّادة الأتراك عليها واستفحال القرصنة الجزائرية في عهد خير الدّين باشا وبعده.

وأمَّا أسطول الدولة المرينية، فإليه يُساق الحديث وهو الذي يهمُّنا هنا لأنَّه أُسطول دولة مغربية، كالدَّولة الموحدية التي تقدَّم الكلام عليها.

188) ص 76 من الجزء 2.

المبحث الحادي عشر

الأسطول المريني

لمّا سقطت الدولة الموحدية، كانت الدولة المرينية إحدى الدول الثلاث التي قامت على أنقاضها، كما قدّمْنا، وكانت العامل الفعّال في انْهيار كيانها بالمغرب الأقصى.

وبمجرّد ما تمّ لها الأمر، واجتمعت عليها الكلمة، واستولت على جميع مراسي المغرب وسواحله على البحرين الأبيض المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غربا، انْضَمّ إليها ما كان باقياً من الأسطول الموحدي مفرّقا في مراسيه الشمالية والغربية.

وحيث أنّها تحمّلت عِبْءَ الجهاد والذّبّ عن حمى الإسلام والمسلمين بالعدوتين : المغربية والأندلسية في وقت كان العدوّ فاغراً فاه لابتلاع ما قدر عليه أو توصّل إليه من المدن والأقاليم الموالية له بالأندلس والمراسي البحرية الحربية المغربية كسبتة، وسلا وغيرهما، وهو مُصَمِّمٌ العزم عى استرجاع جميع ما بقي بأيدي المسلمين بإصبانيا، وله إذْ ذاك قوة جبّارة وجيش برّي، وأسطول بحري يُتّقى بَأْسُه، ويحسب له حسابه، ويدعو إلى المقابلة بالمثل، ويستوجب الأخذ بالاحتياط قبل فوات الوقت، فقد صرفتْ وِجهتها، وكامل عنايتها إلى إصلاح الأسطول الموحدي، فلمّتْ شعثه وقوّته، وبذلت في ذلك جهوداً كثيرة لا يُسْتهان بها.

فأحيتْ دار صناعة الأساطيل بسلا، واعتنى بها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بعدما أنقذها من يد الإصبان الذين تسلّطوا عليها واحتلوها غدراً، وبنى سُورها الغربي ورفع هيكله وأبراجه، وقد استوْفينا الكلام على ذلك في دراستنا لآثار بني مرين بسلا.

وكان الأسطول المريني بعد إصلاحه وتقويته وتنميته، كامل العدّة، وافر العدد، قائما بحراسة الشطوط والسواحل الافريقية، متنقّلا بينها من تونس إلى أقْصى السُّوس، مسخّرا في حمل الغُزاة والجيوش بين المغرب والأندلس.

وممّا امتاز به عن الأسطول الموحدي قبله أنّه صادف وقت ظهور البارود والمقذوفات النارية فكان مسلّحاً بها، مُستعْملاً لها في بعض معاركه البحرية وهجومه على بعض المراسي والموانئ الحربية.

وكمْ له من مواقف جهادية، بالعدوة الأندلسية، حارب فيها الأساطيل القوية القشتالية القاطالونية، وكان له الفوز والفلج عليها في أيام معلومة حفظها التاريخ وسجّلها بقلم الفخر والإعجاب، وبقي ذكرها محفوظاً على ممرّ الدهور والأحقاب.

وبهذا الأسطول، جاز أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني أربع مرّات إلى الأندلس مجاهداً ومُغيثاً أهلها، وحامياً لبقية الإسلام والمسلمين فيها.

وكان جيشه الجرّار يشتمل على الجمّ الغفير من سائر قبائل المغرب، كزناتة والعرب، والموحدين والمصامدة، وصنهاجة، وأوْرَبَة، ومكناسة، وجميع المرتزقة والمتطوعة.(189)

وما ظنّك بأسطول يقوم بنقل جيوش كهذه وما تتطلّبه من عدّة وسلاح ومُؤَن وأقوات وما تستلزمه من سفر طويل في دار حرب لا يُعلم مَآلُها وما سيكون مصيرها.

وزيادة على هذا، فقد كان قائماً كغيره من الأساطيل بأعمال القرصنة التي كانت شائعة بين الدول القوية في ذلك العهد، طوّافا مُتنقّلا بين جُزر البحر الأبيض المتوسط والبوغاز وسواحل الاصبان والبرتغال، وكانت بينه وبين قراصين هاتين الدولتين مواقف وحروب، نال فيها بعضهم من بعض، واختطف كلٌ منهم أموال وصبيان ونساء ورجال الآخر، فقضوْا شطراً من أعمارهم أو باقيها في الأسر والاسترقاق بقشتالة وأراكونيا، وفاس، ومراكش، وسلا، ورباط الفتح، وسبتة، وتطوان، والعرائش وغيرها من المدن البحرية التي كانت مراكز للأساطيل القرصانية، واستوجب ذلك مخابرات ومذاكرات ورُسُلاً ومراسلات بين الدولتين لعدم احترام العهود والعقود التي كانت تُبرم وتُحَكَّم.

وقد سجّل مؤرخو الإصبان من هذه الحوادث القرصانية وما نتج عنها شيئاً كثيراً. ومن راجع ما جاء في مجموعة الوثائق السياسية العربية، من الرسائل السلطانية والصكوك الصلحية المتبادلة بين ملوك الدولة المرينية وغيرهم من سلاطين إفريقية ومملكة أراكون التي جمعها ونشرها ماكسيمليانو أ. ألَرْكُون (Maximilians A. Alarcón)، وسانْطُون رامُون كَارْسيا دوليناريسْ (Santón Ramón Garcia de Linares)، وطبعاها بمدريد سنة (1359/1940)،(190) تبين له أنّها تَضمَّن كلُّها أو جلُّها مسائل الأساطيل والقرصنة والقراصين والأسْرى الماسورين في البحر وإطْلاق سراحهم.

---

189) «الاستقصا»، ص 19، ج 2، طبع القاهرة. وص 45 من ج 4 طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

190) Archivo de la Corona de Aragon Editados y Traducidos par Maximiliano A . Alarcón y Santón Ramón Garcia de Linares. Madrid 1940.

وكذلك المؤرخ شارْلْ إيمانُويل دوفورك، سجَّل في تاريخه المسمى «إصبانيا الكاطالونية والمغرب في القرنيْن الثالث عشر والرابع عشر» في عهد الدولة المرينية، وحركات أساطيلها بين المغرب وإصبانيا وما نشأ عنها أخباراً مهمَّة كثيرة تُعْلَمُ من الوقوف عليها[191]

اتخاذ يعقوب المنصور المريني سبتة وطنجة مركزا حربيا لأساطيله

لمَّا كانت سبتة وطنجة منذ أول دولة الموحدين من أعظم عمالاتهم وأهمّ مدن مملكتهم، لاسيما وهما الثَّغْران المُقابلان للعدوة الأندلسية ومقرّ الأساطيل الجهادية ودار إنشاء الآلات الحربية وفُرضة الجواز من المجاز المعروف بالبوغاز إلى المدن المقابلة لها من برّ العدوة الأخرى كجبل طاريق والجزيرة الخضراء وطريف، فقد قرّر السلطان يعقوب المنصور بن عبد الحق، قبل شروعه في الجهاد، ضمَّهما إلى مملكته واتِّخاذَهُما مركزاً حربياً لأساطيله المُعدَّة للجهاد بالأندلس فنهض إليهما، واستولى عليهما من يد أبي القاسم العَزَفي، وكان ذلك فاتحة جهاده[192].

والعَزَفيون من بيوتات سبتة وأهل الرياسة والعلم والدِّين فيها، وكان لهم أسطول مهمّ بها كانت رياسته في عهد أبي سعيد المريني مسندة إلى الرئيس محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم.

وفي سبتة يقول لسان الدين بن الخطيب في «معيار الاختيار»[193]: «سبتة دار الناشبة والحامية المضرمة للحرب المناشبة، والأسطول المرهوب المحذور الألْهوب»، يعني أنَّه كان يُلقي بالمقذوفات النارية، وكان ذلك في ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة (ربيع الأول 772/ شتنبر 1273).

واستمرت سبتة محلَّ اعتناء واهتمام ءال مرين، تغدو منها وتروح إليها أساطيلهم الماخرة في بحر الزُّقاق بين العدوتين : المغربية والأندلسية إلى عهد دولة أبي الحسن منهم، فازداد اعتناؤه بها، وصيانة مرساها بما أنشأه فيها من الحصون والأبراج.

---

191) L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIII° et XIV° siècle, Paris 1966. par Ch. Emmanuel du Fourcq

192) ابن خلدون، ص 268 من ج 2 طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 17 من ج 2، طبع القاهرة.

193) «مشاهدات لسان الدين»، ص 102.

قال ابن مرزوق في «المُسْنَدُ الصَّحيح الحسن» :(194)

«ومن أعجب ما أنشأه، رضي الله عنه، الأبراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني، وعرفاء العمارة عليها، قبل أن تُنشأ ليتصوَّر بناءها على الوجه الذي قدّره وأراده، فجرت على أنعم الوجوه من الإحسان.

فمنها برج الماء الذي أنشأه داخل البحر ووسط الأمواج ببحر أبي السُّول(195) من ساحل سبتة، وقد حضرتُ إنشاءه، وكان قد اجتمع الملأ على عدم إمكان بنائه هنالك، فنُقلت الصخور التي هي كالرَّوابي والأحجار التي لا يتزحزح مثلها إلاّ بِهَنْدَسَةٍ وإحكام وعجل، فأُلقيت في تلك العروش وضُمّ إليها أمثالها حتى صارت جزيرة في وسط البحر فأقام عليها ذلك البرج المُشيَّد المعروف هنالك.

ثمَّ أمر بعَمَل جسر يمرُّ من الساحل إلى هذا البرج، بحيث يمكن مشيُ البهيمة عليه واتِّصال ممشاه من البرِّ إلى البرج، فصان ذلك البرجُ جميعَ المرسى، فلا يتهيَّأ لأحد الدخول لذلك المرسى إلاّ أنْ يكون صديقاً وإلاّ فهو يُشرف على جميع ما يدخل تحتَهُ وهو من أعاجيب معمورات المعمور.

ومنها البرج الذي على المشْحن أيضاً من المدينة المذكورة، وآخر من هذا النَّمط بالجبل المحروس (جبل الفتح)». اهـ

قلت : وهذه هي التحصينات والحصون التي تحصّن بها الموانئ الحربية والمراكز الستّْراتيجية في عصرنا هذا.

فاتحة الأعمال الجهادية للأسطول المريني بالأندلس

لمَّا استولى أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق على سبتة وطنجة كما تقدم في الفصل السابق، ورد عليه مشيخة أهل الأندلس ورُسُل ابن الأحمر وألقَوْا إليه كُنْهَ الخبر عن كَلَبِ

---

194) ص 16 من المنتخب الذي طبعه بروڤنسال بباريس سنة 1925.

195) ذكره محمد بن القاسم السبتي في كتابه : «اختصار الأخبار عمّا بسبتة من سني الآثار» ، وعبَّر عنه بالبحر الجنوبي، المعروف ببحر أبي السّول، وكذلك الإدريسي. وعبّر عنه صاحب «الاستبصار» بالبحر القبلي.

العدوُّ على المسلمين وثِقَلُ وطْأته، فأصغى إليهم، وبادر بإجابة دعوتهم، ونهض من فاس في شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة (شوال 673/أبريل سنة 1275) إلى طنجة وجهَّز منها خمسة آلاف من قومه، وأزاح عللهم وأجْزل أعْطيتهم، وعقد عليهم لابنه أبي زيَّان منْديل، وأعطاه الراية.

واستدعى من العَزَفي صاحب سبتة السُّفن لإجازتهم، فوفاه بقصر المجاز منه عشرون أسطولاً، فأجاز العسكر المذكور، ونزل بطريف في سادس عشر ذي القعدة من السنة المذكورة (16 قعدة/14 ماي)، وتوغَّل الأمير أبو زيان في أرض العدو، وأثخن قتلاً وأسْراً، ورجع وقد امْتلأت يدُه بالسَّبي والغنائم من الأموال والسِّلاح والأثاث وغير ذلك.[196]

وفي ذلك يقول أبو فارس عبد العزيز الملزوزي في «دُرَّة السلوك»:[197]

لَمَّا غَدَتْ مِلْكًا إِلَيْهِ طَنْجَةَ ... كَانَتْ عليه لِلْجِهَادِ حُجَّةَ
فَخَشِيَ الأُمُورَ أَنْ تَطُولاَ ... فَجَهَّزَ الغُزاةَ والأُسْطولاَ
وصَالَحَ الفَقِيهَ خَيْرَ صُلْحِ ... وَصُلْحُهُ لِلدِّينِ دَاعِي الفَتْحِ
عَلَى التُّقَى والبِرِّ قَدْ تَعَاوَنُوا ... وَضَجَّتِ الرُّومُ مِمَّا قَدْ عَايَنُوا
فَجَهَّزَ الفَقِيهُ لِلجوازِ ... قَطَائِعًا لِلْبَحْرِ في المَجَازِ
ولَمْ يُقَصِّرْ في الذي قَدْ صَنَعَا ... دُنْيَاهُ والأُخْرَى بِهِ قَدْ جَمَعَا

عمل الأسطول المريني في رفع الحصار عن الجزيرة الخضراء

حدثتْ حوادثُ بالأندلس كَدَّرَتْ صَفْوَ الجَوِّ بين ابْنِ الأحمر سلطان غرناطة والسلطان أبي يوسف يعقوب المنصور بن عبد الحق، وأوْجس ابن الأحمر منه خيفةً على سلطانه خشية أنْ يكون مَآلُهُ معه كَمَآلِ ابن عبَّاد مع يوسف بن تاشفين، فتظاهر مع ملك الإصبان عليه، وتحالفا على اتّخاذ الأسباب لمنعه من الجواز إلى الأندلس، وأغْزا الطاغية أساطيله الجزيرة

196) ابن خلدون، ص 277 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا» ص 19 من ج 2، طبع القاهرة، وص 43-44 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

197) ص 35 المطبعة الملكية بالرباط.

الخضراء بحراً، وحاصرها بجيوشه براً، حيث كانت مَسَالِحُ السلطان أبي يوسف يعقوب وجنوده، وأرستْ بالزُّقاق أساطيله، وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر منفصلةً عنه لاياتيها نبأ منه إلاَّ بواسطة الحَمَام من جبل طارق، وضيَّق العدوُّ نطاق الحصار عليهم، وبلغ ذلك إلى السلطان يعقوب وهو بمرّاكش، ووافقت هذه الحوادث ثورة مسعود بن كانون السُّفياني بمسفيوة من أرض المصامدة، وانْخرقت عليه بمراكش الفتون، وتوالت الخطوب، وأهمَّه الأمْر جدًّا، فبادر بتوجيه ولده يوسف إلى طنجة أوائل شهر صفر سنة ثمان وسبعين وستمائة (صفر 678/ يونيه 1279) لرفع الحصار عن الجزيرة.

وكتب إلى الثُّغور بإعداد الأساطيل وعمارتها وتوْجيهها إليه، ونفَّذ العطاء، وحضّ الناس على النهوض، فتوفَّرت لديه الجموع.

وهيَّأ أبو القاسم العزفي بسبتة خمسة وأربعين أسطولاً، واستنفر كافَّة أهل بلده، من المحتلم إلى الشَّيخ، فركبوا البحر أجمعون، ولم يبق بسبتة إلاَّ النِّساء والشيوخ والعجزة والصِّبيان.

ولمَّا رأى ابن الأحمر ما حَلَّ بالجزيرة نَدِمَ على ما صدر منه، وأعدَّ أساطيل سواحله من المنكب والمريَّة ومالقة، فكانت اثني عشر أُسطولاً، وبعثها مدداً للمسلمين.

وقَدِمَ من باديس، وسلا، وأنْفا، خمسة عشر أسطولاً، فتمَّ في الوقت اثنان وسبعون أسطولاً. وفي «دُرَّةُ السلُّوك» سبعون فقط.

واجتمعتْ كلُّها بمرْفإ سبتة، وأخذت بطرفي الزُّقاق في أحفل زيٍّ وأكمله، ثمّ تقدّمت إلى طنجة ليراها الأمير يوسف، فشاهدها واستعرضها وسُرَّ بها ورفع الراية المرينية عليها.

وأقلعتْ من طنجة ثامن ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستِّمائة (8 ربيع الأول 20/678 يوليوز 1279)، وانتشرتْ قلوعها في البحر، وبات المجاهدون ليلة المولد النَّبوي الكريم بجبل الفتح، وصبَّحوا العدوّ، وكانت أساطيله يومئذ تناهزُ أربعمائة. وفي «درَّة السلُوك» ما يزيد على الثلاثمائة فقط. فتظاهر المسلمون في دروعهم، وأخْلصوا لله في تضرُّعهم، وذكروا صلحاءهم، ووعظ وُعَّاظهم وخُطباؤهم، فلم تمْضِ إلاَّ مُدَّة يسيرة حتى أتى الله بالنَّصر من عنده، واخْتلَّ مصافُّ العدو، وانكشف وتفرَّق أسطوله، وتساقط جيشه في عُباب البحر، واستلحمهم السيف، وغشيهم اليمُّ، واستولى المسلمون على أساطيلهم كلِّها فملكوها، وتقوَّوا بها، وأسروا قائدها الْمِلَنْد في جماعة من حاشيته، واستمر مثقَّفاً بفاس حتَّى فرَّ منها بعد

ذلك، وعمَّ أهلَ الجزيرة الفرح، لمَّا أتاهم الله بالفرج، وخرجوا كأنَّما نُشروا من القبور، بعدما فرَّ الجيش البرّيّ الذي كان محاصراً لهم، وغنموا ما كان معه من المُؤن والأقوات التي كانوا في احتياج إليها.

وانتقل السلطان يعقوب عقب انتصار أسطوله إلى طنجة، وأشرف على الجزيرة وأصْلح شأنها، بعدما أقام الأفراح وشكر اللّه على ما أنْعم عليه به من النَّصر الخارق بواسطة أسْطوله.

وقد سجَّل أبو فارس عبد العزيز الملزوزي أخبار هذه الغزوة في رجزه : «نظم السُّلوك»، ونوَّه بأعْمال الأسطول المريني، واستوعب ما قام به وما نتج عن انتصاره، ولا بأس أن ننقله هنا لأنَّه جمع فأوعى.(198) قال :

وَكُلَّ يَوْمٍ خَبَرٌ يَاتِيهِ ... قَدْ ذُلَّ دِينٌ لَمْ تَزَلْ تُعْلِيهِ
وَكَانَتِ الرُّومُ عَلَى الْجَزِيرَةْ ... قَدْ عَمَّرُوا عِمَارَةً كَثِيرَةْ
قَرَاقِرٌ تَتْبَعُهَا قَطَائِعْ ... كَأَنَّهَا فِي بَحْرِهَا مَصَانِعْ
غَطَّتْ زُقَاقَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ ... كَأَنَّهُ مِنْ عَهْدِ ذِي الْقَرْنَيْنِ
زَادَتْ عَلَى ثَلاَثَةٍ مِّنَ الْمِئِينْ ... مَشْحُونَةً بِكُلِّ خِنْزِيرٍ لَّعِينْ
وَقَدْ أَعَدُّوا زَادَ عَامٍ كَامِلِ ... وَكُلَّ مَا شَاؤُهُ مِنْ مَّأَكِلِ
وَأَظْهَرُوا فِي دِينِهِمْ حَمِيَّةْ ... حَمِيَّةً فِي الدَّهْرِ جَاهِلِيَّةْ
لَمْ يَتْرُكُوا مَنْ يَعْبُدُ الأَوْثَانَا ... وَلاَ فَتىً يُعَظِّمُ الصُّلْبَانَا
وَأَقْسَمُوا لاَ فَارَقُوا الْجَزِيرَةْ ... وَحَارَبُوهَا أَعْصُراً كَثِيرَةْ
فَخَيَّمُوا فِي الْبَحْرِ فِيهَا عَامَا ... لَمْ يَتْرُكُوا لِمَنْ بِهَا أَنْعَامَا
بَرّاً وَبَحْراً أَحْدَقَتْ بِالْمَوْضِعِ ... جُمُوعُهُمْ كَخَاتَمٍ فِي الأُصْبُعِ
فَالْبَحْرُ بَرّاً عَادَ بِالْمَرَاكِبِ ... وَالْبَرُّ بَحْراً عَادَ بِالْمَوَاكِبِ
فَنُصِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَجَانِقُ ... كَأَنَّمَا صُخُورُهَا صَوَاعِقُ
وَضَيَّقُوا بِأَهْلِهَا تَضْيِيقَا ... وَلَمْ يَجِدْ خَلْقٌ لَّهَا طَرِيقَا

198) ص 111 وما بعدها، المطبعة الملكية بالرباط.

لَوْلاَ حَمَامٌ كَانَ يَاتِيهِمْ سَحَرْ ... لَمْ يَعْلَمُوا فِي الْعَدْوَتَيْنِ مِنْ خَبَرْ
قَدْ فَنِيَتْ أَرْوَاحُهُمْ بِالْجُوعِ ... وَقِلَّةِ الأَمَانِ وَالْهُجُوعِ
لَمْ يَرْقُدُوا لَيْلاً وَلاَ نَهَارَا ... وَلَمْ يَرَوْا أَهْلاً وَلاَ قَرَارَا
لَهُمْ عَلَى أَبْرَاجِهِمْ أَنِينُ ... وَدُورُهُمْ لأَهْلِهَا حَنِينُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَرْقُبُونَ أَسْرَهُمْ ... أَوْ قَتْلَهُمْ وَسَبْيَهُمْ وَغَدْرَهُمْ
وَلاَ نَصِيرَ لاَ وَلاَ مُغِيثُ ... إِلاَّ النَّصَارَى فِيهِمُ تَصِيتُ
وَكُلُّ مَا لاَقُوهُ فِي الحِصَارِ ... وِزْرٌ عَلَى مَسْعُودِ الْغَدَّارِ(199)
وَأَنَّهُ قَدْ نَغَّصَ الْمَنْصُورَا ... حَتَّى بَنَوْا وَأَبْرَمُوا الأُمُورَا
فَاللَّهُ جَازَاهُ بِمَا جَزَاهَا ... بِالْحَصْرِ وَالْحَالِ الَّتِي لاَقَاهَا
فَإِنَّهُ مَفْسُودٌ لاَ مَسْعُودُ ... قَدْ خَانَهُ الْمَرْغُوبُ وَالْمَقْصُودُ

إلى أن قال :

لَمَّا رَأَى يُوسُفُ مَا دَهَاهَا ... عَشِيَّةً تُوخَذُ أَوْ ضُحَاهَا
وَكَانَ قَدْ جَاءَ مِنْ أَرْضِ الْقِبْلَةْ ... فَمَرَّ مِنْ فَاسٍ بِغَيْرِ مُهْلَةْ
حَتَّى أَتَى طَنْجَةَ بِاجْتِهَادِ ... بِأَمْرِ يَعْقُوبَ أَخِي الرَّشَادِ
فَأَمَرَ الأُسْطُولَ بِالْجِهَازِ ... وَحَضَّهُ حَضّاً عَلَى الْبِرَازِ
وَكَتَبَ الْكُتْبَ إِلَى الْفَقِيهِ ... مِنْ طَنْجَةٍ بِكُلِّ مَا يُرْضِيهِ
أَنْ يَسِّرِ الأَجْفَانَ وَالزَّوَارِقَا ... وَكُنْ لِمَا يُرْضِي الإِلاَهَ سَابِقَا
نَادَى أَبُو حَاتِمٍ الْغُزَاةَ ... جِدُّوا عَسَى تُشَتِّتُوا الْعُدَاةَ
وَتُنْقِذُوا الْجَزِيرَةَ الْخَضْرَاءَ ... فَالدِّينُ قَدْ لاَقَى بِهَا ضَرَّاءَ
قَدْ قِيلَ حَقّاً إِنَّهَا مَعْصُومَةْ ... عَلَى النَّصَارَى لَمْ تَزَلْ مَشُومَةْ
فَجَهَّزُوا أُسْطُولَهُ الْمُظَفَّرَا ... وَكُلُّ مَنْ فِي سَبْتَةٍ مَا قَصَّرَا

199) يشير إلى مسعود بن كانون السفياني الثائر بنفيس، وقد تقدّمت الإشارة إليه.

وَأَقْبَلَتْ قَطَائِعُ ابْنِ الأَحْمَرِ ... مَشْحُونَةً بِكُلِّ نَجْدٍ قَسْوَرِ
وَظَهَرَتْ فِي دِينِنَا حَمِيَّةْ ... مِنْ كُلِّ ذِي دِينٍ مِنَ الْبَرِيَّةْ
فَأَمَّ أُسْطُولُ الْفَقِيهِ طَنْجَةْ ... لِكَيْ يَرَى يُوسُفَ تِلْكَ الْبَهْجَةْ
وَيُوسُفٌ أُسْطُولَهُ قَدْ جَهَّزَا ... فَجَاءَ أَيْضاً نَحْوَهُ وَبَرَّزَا
وَالنَّصْرُ وَالْفَتْحُ بِهَا يَبُوحُ ... وَصَارَ فِيهَا نَيِّراً يَلُوحُ
قَدْ جَهَّزُوا بِأَحْسَنِ الْجِهَازِ ... وَعَوَّلُوا قَصْداً عَلَى الْبِرَازِ
وَجَعَلَ الأَمِيرُ فِي أُسْطُولِهِ ... عِصَابَةً بِالسُّمْرِ مِنْ قَبِيلِهِ
وَكُلَّ ذِي النَّجْدَةِ مِنْ عُبْدَانِهِ ... وَكُلَّ مَنْ عَيَّنَ مِنْ فُرْسَانِهِ
كَأَنَّهَا فِي بَحْرِهَا خُيُولُ ... وَحَيْثُمَا شَاءَتْ بِهِ، تَجُولُ
عِدَّتُهَا سَبْعُونَ جَفْناً كُلُّهَا ... لَكِنَّهَا صِغَارُهَا أَقَلُّهَا
وَقِطَعُ الرُّومِ انْتَهَتْ فِي الْعِدَّةْ ... إِلَى ثَلاَثِمَائَةٍ مُعَدَّةْ

ثم قال :

سَارُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ ... وَأَعْلَنُوا بِالذِّكْرِ فِي الأُسْطُولِ
يَوْمَ الثُّلاَثَا مِنْ رَبِيعِ الأَوَّلِ ... مَنْ سَارَ فِيهِ لِلْعِدَا لَمْ يُخْذَلِ
شَهْرٌ بِهِ تَقْتَرِبُ السَّعَادَةْ ... وَالنَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ وَالإِرَادَةُ
شَهْرٌ بِهِ دِينُ النَّبِيِّ يُنْصَرُ ... وَسَعْدُهُ وَفَضْلُهُ لاَ يُحْصَرُ
شَهْرٌ عَظِيمٌ عَوَّدَ الإِسْلاَمَ ... نَصْراً عَزِيزاً وَالْعِدَا الآلاَمَا
فَهَذِهِ مِنْ مُعْجِزَاتِ أَحْمَدِ ... خَيْرِ الأَنَامِ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدِ
فِيهِ مَضَى الأُسْطُولُ لِلْخَضْرَاءِ ... وَزَوَّدَتْهُ النَّاسُ بِالدُّعَاءِ
وَابْتَهَلُوا لِلْمَلِكِ الْعَلاَّمِ ... خَوْفاً عَلَى الأُسْطُولِ وَالإِسْلاَمِ
لأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمْ أَمْرُ ... لَمْ يَكُنْ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ ذِكْرُ
فَوَدَّعُوا وَوَدَّعُوا وَسَارُوا ... كُلٌّ لَهُ لِدِينِهِ انْتِصَارُ
فَانْتَشَرَتْ قُلُوعُهُمْ فِي الْبَحْرِ ... كَأَنَّهَا مَوَاكِبٌ فِي الْبَرِّ
قَدْ قَدَّمَتْ أَمَامَهَا الْمَنَاطِحَا ... وَرَدَّتِ الْمَوْجَ لَهَا أَبَاطِحَا

وَقَرَّبَ اللّهُ لَهَا الْبَعِيدَ ... وَجَعَلَ الشَّهْرَ عَلَيْهَا عِيدَا
فَسَكَنَتْ بِسَعْدِهَا الرِّيَاحُ ... لِكَيْ يَطِيبَ الْحَرْبُ وَالنِّطَاحُ
فَإِنَّهُ تُعَطَّلُ الْقَرَاقِرْ ... إِنْ سَكَنَتْ بِحَارُهَا الزَّوَاخِرْ
فَقُرِّبَ الأَسْطُولُ لِلأُسْطُولِ ... وَجَاءَ عَرْضٌ قَاصِداً لِلطُّولِ

ثم قال :

فَعِنْدَمَا أَبْصَرَهَا الْمَلاَنْد ... قَامَ مَرُوعاً خَائِفاً يَشْتَدُّ
وَعَدَّدَ الْقُلُوعَ وَالأَجْفَانَا ... حَتَّى غُشِي وَغَمَّضَ الأَجْفَانَا
وَعَدَّ كُلَّ كَافِرٍ كَذَلِكَا ... فَأَبْصَرُوهَا سَدَّتِ الْمَسَالِكَا
قَالُوا جَمِيعاً إِنَّهَا آلافُ ... وَلَيْسَ فِيهَا عِنْدَهُمْ خِلاَفُ
مَنْ قَالَ جَهْلاً مَا هِيَ الْمَلاَئِكُ ... فَإِنَّهُ عَبْدٌ ظَلُومٌ، ءَافِكُ
حِينَئِذٍ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمُ ... وَأَيْقَنُوا بِأَنَّهَا تُرْدِيهِمُ
فَأَقْبَلَتْ قَطَائِعُ الْمَنْصُورِ ... مُصْطَفَّةً إِلَيْهِمُ كَالسُّورِ
وَأَقْبَلَ الْمَلاَنْدُ فِي أُسْطُولِهِ ... مِنْ بَعْدِمَا أَقْسَمَ فِي إِنْجِيلِهِ
فَمَا تَرَى إِلاَّ السِّهَامَ الْوَاكِفَةْ ... عَلَى النَّصَارَى كَالْغُيُوثِ عَاكِفَةْ
وَنَفَذَ الأَتْرَاسَ وَالدُّرُوعَا ... وَكُلُّهُمْ غَدَا بِهَا مَرُوعَا
وَهُمْ لَهَا قَدْ لَبِسُوا الْحَدِيدَا ... وَجَدَّدُوا الْعُدَّةَ وَالْعَدِيدَا
كَأَنَّمَا سِهَامُنَا قَضَاءُ ... لَهَا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ مَضَاءُ
وَكُلُّ مَنْ مِنْهُمْ لَهُ إِفْرَاطُ ... فَحَدُّهُ رَكِيمُهُ أَوْقَاطُ
فَمَاتَ مِنْهُمْ عَدَدٌ لاَ يُحْصَرُ ... وَالْبَحْرُ فِيهِ قَدْ تَفَانَى الأَكْثَرُ
تَرَاهُمُ فِي الْبَحْرِ كَالضَّفَادِعِ ... مِنْ سَاقِطٍ وَخَاسِرٍ وَدَارِعِ
فَعِنْدَمَا أَبْصَرَتِ الْكُفَّارُ ... قَدْ بَزَّهَا الْفِرِنْدُ وَالْعَبَّارُ
وَلَّتْ وَخَلَّتْ أَكْثَرَ الأَجْفَانِ ... خَالِيَةً مِنْهُمْ بِلاَ نَصْرَانِي
وَلَمْ يَزَلْ أُسْطُولُنَا الْمَيْمُونُ ... لَهُ عَلَى أُسْطُولِهِمْ تَمْكِينُ
يَقْتُلُهُمْ بَعْضاً وَبَعْضاً يَاسِرُ ... إِلاَّ الَّذِي قَدْ حَمَتِ الْقَرَاقِرُ

ثم قال :

وَكُلُّ مَنْ فِي دَاخِلِ الْخَضْرَاءِ   مُسْتَبْشِرٌ بِمَصْرَعِ الأَعْدَاءِ
قَدْ أَيْقَنُوا بِالْعَيْشِ وَالْحَيَاةْ   مِنْ بَعْدِ إِشْرَافٍ عَلَى الْوَفَاةْ
كَأَنَّهُمْ مِنَ الثَّرَى قَدْ خَرَجُوا   وَأَنْشَدُوا : لِكُلِّ هَمٍّ فَرَجُ
وُجُوهُهُمْ يَوْمَ فَنَاءِ الْكَفَرَةْ   مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةْ
مَا أَصْلَحَ الأَمَانَ بَعْدَ الذُّعْرِ   مَا أَطْيَبَ الإِثْرَاءَ بَعْدَ الْفَقْرِ
مَا انْتَفَعَ الْمَرْءُ بِغَيْرِ الصَّبْرِ   وَلاَ تَحَصَّنَ بِمِثْلِ الْحَذَرِ
أَبْشِرْ بِيُسْرٍ إِنْ أَتَاكَ الْعُسْرُ   عَاقِبَةُ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ النَّصْرُ
فَانْظُرْ إِلَى مَنْ سَكَنَ الْخَضْرَاءَ   قَدْ بُدِّلَتْ ضَرَّاؤُهُ سَرَّاءَ
وَفَازَ بِالْجِهَادِ وَالرِّبَاطِ   وَصَارَ بِالْحِصَارِ ذَا اغْتِبَاطِ
إِنَّ الظَّلاَمَ بَعْدَهُ يَبْدُو الصَّبَاحْ   وَكَمْ فَسَادٍ كَانَ عُقْبَاهُ الصَّلاَحْ
الدَّهْرُ لاَ يَجْرِي عَلَى قِيَاسِ   فَسَلِّمِ الأَمْرَ لِرَبِّ النَّاسِ

ثم قال :

وَكَانَ فِي جَزِيرَةِ الْجَزِيرَةْ   مِنَ النَّصَارَى عِدَّةٌ كَثِيرَةْ
فَجَاءَهُمْ مَنْ كَانَ فِي الْخَضْرَاءِ   وَغَيْرُهُمْ مِنْ سَائِرِ الأَنْحَاءِ
فَمُزِّقُوا مِنْ حِينِهِمْ بِالْبُتْرِ   وَدُمِّرُوا كَمِثْلِ أَهْلِ الْبَحْرِ
يَوْمَ الثُّلاَثَا حَقُّهُ أَنْ يُشْهَرَا   حَتَّى يُرَى مِنْ كُلِّ يَوْمٍ أَظْهَرَا
كَذَاكَ يَوْمُ الأَرْبِعَاءِ بَعْدَهُ   فَهْوَ الَّذِي أَضْفَى عَلَيْنَا سَعْدَهُ
فِيهِ تَفَانَتْ جُمْلَةُ الْقَرَاقِرْ   وَنُوِّخَتْ فِي الْبَرِّ كَالأَبَاعِرْ
كَأَنَّهَا حَفَّتْ بِهَا الأَجْفَانُ   نُوقٌ تُرَى وَهِيَ لَهَا فُصْلاَنُ
كَأَنَّهَا فِي بَحْرِهَا غَرَانِيقْ   عَكْسَهَا فِي بَرِّهِ شُوذَانِقْ
مَا مِنْهُمُ إِلاَّ قَتِيلٌ وَأَسِيرْ   وَيَوْمُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرْ
فَأُخِذَ الْمَلاَنْدُ مَعْ جَمَاعَةْ   أَسْرَى وَكَانُوا ضَمِنُوا الشَّجَاعَةْ

كَـأَنَّهُمْ فِي بَحْـرِهِمْ مَـا كَـانُوا ... وَلَـمْ يَكُـنْ جَـفْـنٌ وَلاَ إِمْكَانُ
وَهَذِهِ عَـاقِـبَـةُ الْكُفَّـارِ ... فَـاعْـتَـبِـرُوهَا يَا ذَوِي الأَبْصَـارِ
فَـاحْـتَـمَلَتْ غُـزَاتُنَا مَـا اكْـتَسَـبُوا ... وَاسْـتَلَبُـوا أَدْرَاعَـهُمْ وَانْتَـهَـبُـوا
وَامْـتَـلأَتْ أَيْدِيـهِمُ بِالسَّلَبِ ... وَكُلُّـهُـمْ صَـارَ بِهِ ذَا نَـشَبِ
مَـاذَا سَـبَـوْا بِهَـا مِنَ الذَّخَـائِرْ ... جَـاءَتْ بِهَـا التُّـجَّـارُ فِي الْقَـرَاقِـرْ
أَمَّـا الثِّـيَـابُ وَالْمَـتَـاعُ وَالْعُـدَدْ ... فَلَيْسَ يَحْـوِي بَعْضَ بَعْـضِـهَـا عَـدَدْ

ثم قال :

فَـعِنْدَمَـا أَبْصَـرَ مَنْ فِي الْبَـرِّ ... مِنَ النَّصَـارَى مَـوْتَ مَنْ فِي الْبَـحْـرِ
خَـافُوا جَـمِـيعـاً أَنْ يَجُـوزَ يُوسُفُ ... فَـارْتَحَلُوا مِنْ حِـينِهِمْ وَانْصَـرَفُـوا
فَطَلَبُـوا النَّجَـاةَ ثُمَّ صَـارُوا ... وَكُلُّـهُـمْ حُـزْنـاً لَهُ خُـوَارُ
وَخَلَّفُـوا مَـا جَـمَـعُـوا بِأَسْـرِهِ ... لِسَـاكِنِي الْخَـضْـرَا يَفِي بِوَفْـرِهِ
فَـخَـرَجَ النَّاسُ مِنَ الْخَـضْـرَاءِ ... وَانْتَـشَـرُوا فِي سَـائِرِ الأَنْحَـاءِ
مِنْ بَعْـدِ مَـا طَالَ الحِـصَـارُ عَـامَـا ... وَلَمْ يَرَوْا فِي عَـامِـهِمْ إِنْعَـامَـا
فَـوَجَـدُوا الدَّقِـيقَ وَالأَثْقَـالاَ ... وَجَـدَّدَ اللَّـهُ لَـهُمْ آمَـالاَ
وَانْتَـهَـبُـوا فِي الدُّورِ مَـا لاَ يُحْـصَـرُ ... كَـأَنَّهُ كَـانَ لَـهُمْ يُدَّخَـرُ
فَـهَلْ رَأَيْتُمْ مِـثْلَ هَذَا الْعَـجَبِ ... أَوْ هَلْ سَـمِـعْـتُمْ مِـثْلَهُ فِي الْكُتُبِ
سَـبْـعُـونَ جَـفْـنـاً غَلَبَتْ مِـئِـينَا ... وَأَخَـذَتْهَـا كُلَّهَـا يَقِـينَا
سُـبْـحَـانَ مَنْ أَيَّدَهَا تَأْيِيـدَا ... وَجَـدَّدَ السَّـعْـدَ لَهَـا تَجْـدِيدَا
يَاغَـزْوَةً أَنْسَتْ لَنَا دِمْـيَـاطَا ... وَزَادَتِ الدِّينَ بِهَـا اغْـتِـبَـاطَا
هِيَ الَّتِي قَـدْ أَعْلَتِ الإِسْـلاَمَـا ... وَزَادَتِ الرُّومَ بِهَـا اسْـتِـسْـلاَمَـا

ثم قال :

فَـحَـمِـدَ اللَّهَ الْعَظِيمَ يُوسُفُ ... عَلَى فُـتُـوحٍ مِـثْلُهَـا لاَ يُعْـرَفُ
وَكَـتَبَ الْكُتْبَ إِلَى الْمَنْصُـورِ ... مِنْ طَنْجَـةٍ بِمُـقْـتَـضَى الأُمُـورِ

وَكَـانَ قَـدْ ضَـيَّقَ بِالسُّـفْـيَـانِي بِالْحَـصْـرِ حَـتَّى عَـادَ فِي حِـرْمَـانِ
لَمَّـا أَتَـاهُ خَـبَـرُ النَّصَـارَى وَأَنَّـهُـمْ قَـدْ لَقَـوُوا الدَّمَـارَا
فَـعَـفَّـرَ الْخَـدَّ عَلَى التُّـرَابِ شُكْراً لِـرَبِّ الْوَاحِـدِ الْوَهَّابِ
وَضُـرِبَتْ مِنْ حِـينِهَـا الطُّبُـولُ وَجَـاءَتِ الأَبْطَالُ وَالْخُـيُـولُ
وَرَكِبَ الْمَنْصُـورُ كَـالشِّـهَـابِ يُـلاَعِبُ الأَبْـطَـالَ بِـالْـحِـرَابِ
وَكَـادَ مِنْ أَفْـرَاحِـهِ يَطِيـرُ وَوَجْـهُـهُ مُـسْـتَـبْـشِـرٌ مُنِيـرُ
كَمْ طَالَ فِي لَيْلِ التَّـمَـامِ هَمُّـهُ خَـوْفـاً عَلَى الْخَـضْـرَا وَزَادَ غَـمُّـهُ
وَلَـمْ يَـطِـبْ لَهُ بِـذَاكَ عَـيْـشُ لَهُ إِلَيْـهَـا كُلَّ يَـوْمٍ طَـيْشُ
لَكِنَّـهُ نَـغَّـصَـهُ الشَّـقِـيُّ مَـسْـعُـودٌ الْمُنَافِقُ الْقَـوِيُّ
هَـذِي أُمُـورٌ كُلُّهَـا بِسَـعْـدِهِ لَوْلاَهُ مَـا فَـازَ ابْنُهُ بِقَـصْـدِهِ
فَـاتَّصَلَ الأَمْـرُ إِلَى مَـسْـعُـودِ بِنَصْـرِ دِينِ أَحْـمَـدَ الْمَـحْـمُـودِ
فَـبُـدِّلَتْ أَفْـرَاحُـهُ أَتْرَاحَـا وَمَـا رَجَـا مِنْ أَمْـرِهِ سَـرَاحَـا
وَقَـالَ إِذْ تَـهَـدَّنَ الْمَنْصُـورُ فَـإِنَّهُ مَـقْـتُـولٌ أَوْ مَـغْـدُورٌ...

وقد ازداد الأسطول المريني بعد هذا الانتصار قوّة ورفعة شأن، وحسب العدُوّ له ألف حساب، واعْتزّتْ به الدولة المرينية بالمغرب، وعقد المسلمون عليه الآمال بالأندلس.

استعراض يعقوب المنصور الأسطول المريني بالجزيرة الخضراء(200)

لمّا عزم السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور بن عبد الحق على الرجوع من الأندلس بعد إتمام أعماله الجهادية بأرض العدوّ في جوازه الرابع سنة أربع وثمانين وستمائة (1285/684) إتّصل به أنّ العدوّ أوْعَزَ إلى أساطيله باحتلال بحر الزّقاق والاعتراض دون الفراض.

(200) ابن خلدون، ص 303 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 30 من ج 2، طبع القاهرة. وص 63 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

فأوعز هو أيضاً إلى جميع سواحله من سبتة وطنجة وبلاد الريف ورباط الفتح والمنكَّب والجزيرة وطريف بتوجيه أساطيلهم.

فتوافت منها ستَّة وثلاثون أسطولاً متكاملة في عدتها، فأحْجمت أساطيل العدو عنها، وارتدَّت على أعقابها، واحتلَّ السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء غرَّة رمضان من السنة المذكورة (31 أكتوبر)، ونزل بقصره من المدينة الجديدة التي بناها بإزائها.

فبرزت أساطيل المسلمين أمامه بالمرسى وهو جالس بمشوره من قَصْرِه فاستعرضها، وقامت بمناورة حربية أمامه في البحر، ولعب بحّارتها وتجاولوا وتناطحوا وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب، فسُرَّ بذلك، وأحسن إليهم، وصرفهم إلى حال سبيلهم.

أعمال الأسطول المريني في عهد السلطان يوسف بن يعقوب[201]

بعدما كان السلطان أبو يعقوب يوسف، قدم عليه وفد طاغية الإصبان عقب بيعته بالأندلس، طالبين تجديد الهُدْنة السِّلمية معه، وأجابه إلى طلبه ورجع إلى المغرب، بلغه أنَّه نقض العهد وتجاوز التخوم، وأغار على الثغور، فأوعز إلى قائد المسالح بالأندلس بالدخول إلى دار الحرب وشنِّ الغارة على بلاد الطاغية، فنهض إليها في ربيع الأول سنة تسعين وستمائة (ربيع الأول 690/ مارس 1291)، وجاس خلالها، وتوغَّل في أقْطارها، وأبلغ في النِّكاية.

ثم استنفر السلطان أهل المغرب وقبائله، فنفروا إليه، وشرعوا في جواز البحر من قصر مصمودة، فبعث الطاغية أساطيله إلى بحر الزُّقاق حجزاً لهم دون الجواز، فأوعز السلطان حينئذ إلى قوَّاد أساطيله بعمارتها لمقابلة أساطيل العدوّ، ففعلوا، والتقوْا معها ببحر الزقاق في شعبان (غشت) من السنة المذكورة، فاقتتلوا، وانكشف المسلمون ومحَّصهم اللَّه، وقُتل قوَّاد الأساطيل.

وأمر السلطان يوسف باستيناف العمارة ثمَّ أغزاهم ثانية، فحامت أساطيل العدو عن اللِّقاء، وصاعدوا عن الزُّقاق، فملكته أساطيل السلطان، وأجازوا أواخر رمضان (شتنبر) من

---

201) ابن خلدون، ص 313 من ج 2، طبع الجزائر، و«القرطاس»، ص 229، طبع فاس، و«الاستقصا»، ص 34 من ج 2، طبع القاهرة، وص 72 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

السنة إلى الأندلس، واحتلَّ بطريف ثم دَخَلَ دار الحرب غازياً، وأثْخن فيها إلى أنْ حلَّ فصل الشتاء فجاز إلى المغرب فاتح سنة إحدى وتسعين وستمائة (1 محرم 1/691 شتنبر 1292).

وتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه من الجواز مرَّة أخرى.

وبعد هذه الحوادث والحروب البحرية، ءالت الحالة السياسية بين الدولتين النَّصْرية والمرينية إلى اضطراب وانفصال واتّصال منذ عهد السلطان يوسف بْن يعقوب، فكان النَّصريون إذا ضايقهم العدو وتخطَّف أراضيهم، استعانوا بالمرينيين واستغاثوا بهم، وإذا اطْمأنُّوا وأمِنوا على أنفسهم، قلبوا لهم ظهر المِجَنّ، وتظاهروا مع العدو عليهم، فتنقطع المواصلة، وتتعذَّر حركة الأساطيل بين العدوتين.

وإذا صفا الجوُّ بينهم، عادت المواصلة لما كانت عليه، وتردّدت الأساطيل المرينية على مراسي العدوة الأندلسية، حاملة المسافرين والغُزاة والعُدد والمَدَد. ودامت هذه الحالة إلى أنْ بويع السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب في جمادى الاخرة سنة عشر وسبعمائة (جمادى الآخرة 710/ نونبر 1310).

وكان رحمه الله له اهتمام بأمر الجهاد كأسلافه، فجاء إلى رباط الفتح في ذي القعدة من السنة المذكورة (قعدة 710/ أبريل 1311)، لتفقد الأحوال، والنظر في أمور الرعية وإنشاء الأساطيل الجهادية، فعيَّد هناك عيد الأضحى وباشر أمور الناس، وأمر بإنشاء الأساطيل بدار الصناعة بسلا برسم جهاد الافرنج، ثم رجع إلى فاس،[202] وتوقَّف العمل.

استرجاع جبل طارق بواسطة الأسطول المريني

تقدَّم لنا عند الكلام على الأسطول الموحدي أنَّ عبد المومن اعتنى بجبل طارق وأخذه مركزاً لأساطيله، واستعرضها به في حفل خاص، تبارى فيه الشعراء بإنشاد قصائدهم الحافلة بمدحه والتَّنْويه بأسطوله.

وتداول جبل طارق بعد الدولة الموحدية من أتى بعدها من بني الأحمر بالأندلس وبني مرين بالمغرب الأقصى.

202) ابن خلدون، ص 356 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 50 من ج 2، طبع القاهرة. وص 103 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. و«كشف العرين عن ليوث بني مرين» لمؤلف «الاستقصا»، ص 15، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

ثم استولى عليه الإصْبان سنة تسع وسبعمائة (1309/709) أثناء حروبهم التي كانت في مدٍّ وجزْر مع الدولتين المذكورتين ليضايقوا بنزولهم فيه حركَةَ الأساطيل المرينية، ويعوقوها عن إغاثة وإعانة البلاد الأندلسية التي تناثر في ذلك العهد عقدُها، وانحلت عُراها، وآذنت شمس الإسلام فيها بالغروب، وزاحم الفرنج بالبوغاز أو المجاز أساطيلَ المسلمين، وصار الجبل شجىً في حلْق الدولتين.

واستمرَّ الحال على ذلك إلى أنْ بويع السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد المريني، وكانت له رغبة في الجهاد اقتداءً بجدّه يعقوب بن عبد الحق. وبادر السلطان محمد ابن اسماعيل بن الأحمر بالْوِفادة عليه بفاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (1332-1331/732) مهنِّئاً بالمُلك، ومجدِّداً للعهد، ومفاوضاً في أمر الجهاد وغيره ممَّا فيه صلاح أمره ودولته، وشكى إليه حال جبل طارق، وما يلحق المسلمينَ بالعدوتين من استمرار احتلاله، فأشكاه السلطان أبو الحسن، وأمدَّه بخمسة آلاف جندي من أنجاد بني مرين تحت رياسة ابنه الأمير أبي مالك، وركبت هذه الجيوش الأساطيل فوراً وجاوزت المجاز لمنازلة جبل طارق.

واحتلَّ الأمير أبو مالك الجزيرة الخضراء، وتتابعت إليه الأساطيل بالمَدد والعُدد، وأرسل ابن الأحمر في مدائن الأندلس حاشرين، فتسايل الناس إليه من كل حدب ينسلون، وأحاطوا بالجبل برًّا، وحماهم الأسطول بحرا إلى أن اقتحموه عنوة، وتمّ فتحه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة (1333-1332/733)، وشحنوه بالأقوات.

وبعد ثلاث من فتحه، جاء الطاغية لإنقاذه، وحاصره برًّا، ثمّ إنَّ ابن الأحمر تدارك الأمر، واجتمع بالطاغية، وعقد معه هدنة، فأفرج عنه، ورجع عمَّا كان عازماً عليه من مطاولة حصاره.

واهتمّ به السلطان أبو الحسن بعد فتحه، وحصّنه وسوّره، وبنى أبراجه وجامعه ومخازنه ودوره، وأنفق عليه أموالاً طائلة. وما كاد يتمّ حتى نازله العدو مرَّة أخرى براً وبحراً، فصبر المسلمون له وقاوموه بجيوشهم وأساطيلهم وردُّوه على عقبه.

وحصّنه السلطان أبو الحسن بعد هذه الإغارة الثانية بسور أحاطه به إحاطة الهالة بالهلال، بعدما دام احتلاله نيّفاً وعشرين عاما، وكانت مدة حصاره ستّة أشهر.[203]

203) ملخص من ابن خلدون، ص 376-377 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 59 من ج 2، طبع القاهرة، وص 121-122 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. و«نفح الطيب»، ص 1202 من المجلد 2، طبع بولاق.

وإلى هذا الفتح يشير ابن الخطيب بقوله في «رقم الحُلَل»، بعد ذكر محاسن أبي الحسن :

وقَــبْلُ مَــا كَــانَ افْـتِـتَــاحُ الْجَـبَلِ نَشِــيــدَةُ الْعِــزِّ وفَـــخْـــرُ المِلَلِ

وقد زارَه الرحّالة ابن بطوطة بعد افتتاحه، ووصف ما شاهده فيه في رحلته بقوله:[204]

... وأوّل ما شاهدته من البلاد الأندلسية جبل الفتح، فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكرياء يحيى بن السّرَّاج الرُّنْدي، وقاضيه عيسى البربري. وعنده نزلت وتطوّفْتُ معه على الجبل فرأيْت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن، رضي الله عنه، وأعدّ فيه من العُدد، وما زاد على ذلك مولانا أيّده الله (يعني أبا عنان كما سياتي)، ووددتُّ أنّي لو كنت ممّن رابط فيه إلى نهاية العمر.

قال ابن جزّي : جبل الفتح هو معقل الإسلام المعترض شجىً في حلوق عبدة الأصنام، حسنة مولانا أبي الحسن، رضي الله عنه، المنسوبة إليه، وقُربته التي قدّمها بين يديه محل عدد الجهاد، ومقرّ آساد الأجناد، والثّغْر الذي افترّ عن نصر الإيمان، وأذاق أهل الأندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان. ومنه كان الفتح الأكبر، وبه نزل طارق بن زياد مولى موسى ابن نُصَير عند جوازه، فنُسب إليه، فيُقال له جبل طارق وجبل الفتح[205] لأنّ مبدأه كان منه وبقايا السّور الذي بناه وما معه باقية إلى الآن تُسمّى سور العرب، شاهدتها أيام إقامتي به عند حصار الجزيرة أعادها الله.

ثمّ فتحه مولانا الحسن رضوان اللّه عليه، واسترْجعه من أيدي الرُّوم بعد تملُّكهم له عشرين سنة ونيِّفا، وبعث إلى حصاره ولده الأمير الجليل أبا مالك، وأيّده بالأموال الطائلة والعساكر الجرَّارة. وكان فتحه بعد حصار ستّة أشهر، وذلك عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة (1333-1332/733). ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه، فبنى به مولانا الحسن، رحمة الله عليه، المآثر العُظمى بأعلى الحصن، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدّم باحْجار المجانيق، فبناها مكانه، وبنى به دار الصناعة، ولم تكن به دار صنعة، وبنى السّور الأعظم المحيط بالتُّربة الحمراء الآخذ من دار الصّنْعة إلى القرمدة.

---

204) ص 173 من ج 2، طبع وادي النيل سنة 1287.

205) الذي سماه «جبل الفتح» هو عبد المومن، لمّا فتحه واتّخذه مركزاً حربياً لأسطوله، كما تقدّم عند الكلام على الأسطول الموحِّدي.

انتصار أسطول أبي الحسن المريني بمعركة الزُّقاق

كان السلطان أبو الحسن المريني، رحمه الله، أغزا سنة أربعين وسبعمائة (1340/740) ولده الأمير أبا مالك أمير الثُّغور الأندلسية دار الحرب وتوغَّل فيها، واستُشهد رحمه الله في غزاته هذه، فتفجَّع السلطان أبو الحسن لابنه واسترْحم عليه، واحتسب أجره عند اللَّه.

ثم أنفذ وُزراءه إلى سواحل المغرب بتجهيز الأساطيل، وفَتَحَ ديوان العطاء، وعرض الجنود وأزاح عللهم، واستْنْفر أهل المغرب كافَّة، ثم ارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد. وتسامعت به أُمم النصرانية، فاستعدّوا للدِّفاع، وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزُّقاق ليمنع السلطان من الإجازة.

واستحثّ السلطان أساطيل المسلمين من مراسي المغرب، وبعث إلى أصهاره الحفصيّين بتجهيز أسطولهم إليه، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية، ووافى سبتة في ستة عشر أسطولاً من أساطيل إفريقية، كان فيها من طرابلس وقابس وجرْبة وتونس وبونة وبجاية، وتوافت الأساطيل المغربية بمرسى سبتة تناهز المائة، وعقد السلطان عليها لمحمّد بن علي العَزَفِي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها أيام السلطان أبي سعيد، وأمره بمناجزة النصارى بالزُّقاق، وقد تكامل عديدهم وعدّتهم، فاستلأموا وتظاهروا في السلاح، وزحفوا إلى أسطول النصارى، وتواقفوا مليّا، ثمّ قرّبوا الأساطيل بعضها من بعض، وقرنوها للمصاف، فلم يمض إلاّ كلاًّ ولاَ، حتّى هبّت ريح النّصر، وأظْفر الله المسلمين بعدوّهم، وخالطوهم في أساطيلهم، واستلْحموهم هَبْراً بالسيوف، وطعنا بالرّماح، وألقوْا أشلاءهم في اليمِّ، وقتلوا قائدهم الْمِلَنْد، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة، فبرز الناس لمُشاهدتها، وطيف بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد، ونُظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشا، (وهي دار الصناعة)، وعظُم الفتح، وجلس السلطان للتَّهنئة، وأنشد الشعراء بين يديْه.

وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة أربعين وسبعمائة (6 شوال 5/740 أبريل 1340)، وعُدَّ ذلك اليوم من أعزِّ أيّام الإسلام.

ثم شرع السلطان أبو الحسن في إجازة العساكر من المتطوّعة والمرتزقة، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العُدْوة.

ولمًّا تكاملت العساكر بالعُبور، وكانت نحو ستين ألفاً، أجاز هو في أسطوله مع خاصّته، آخر سنة أربعين وسبعمائة 740/يونيه 1340)، ونزل بساحل طريف حيث كان اللِّقاء بالعدو، ثالث المحرم سنة إحدى وأربعين وسبعمائة (3 محرم 29/741 يونيه سنة 1340)[206].

وشرع في منازلتها، ووفاه السلطان يوسف بن اسماعيل بن الأحمر في جيش الأندلس من غُزاة مرين وحامية الثغور ورجالة البدو، فعسكروا حِذَاءه، ونصبوا على المدينة ءالة الحصار.

وجهَّز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزُّقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطال مُقام المسلمين حتَّى فَنِيَت الأزواد، وقلَّتْ العلوفات، وانضمّ إلى الإصبان البرتغال وغرب الاندلس، وزحفوا إلى المسلمين لستة أشهر من نزولهم على طريف.

ثم تسرَّبوا إلى المدينة على حين غفلة من أهلها، واحْتَلُّوها ومحَّص الله المسلمين، وفتكوا بمن فيها حتّى حاشية السلطان وأهله. وكان الحادث بها عظيماً، حسبما هو مبسوط في محلّه من كتب التاريخ.

ورجع ابن الأحمر إلى غرناطة، وخلص السلطان أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء، ومنها إلى جبل الفتح، ومنه رَكِبَ الأسطول إلى سبتة.

وهذه المعركة هي المعروفة عند الإصبان بمعركة ريو سلادو (Rio Salado)، ولا غالب إلاّ الله[207].

المحارس والمنائر البحرية لحراسة السواحل البرية والأساطيل المرينية

تقدَّم لنا أنَّ الأغالبة كان لهم اعتناء ببناء المنائر البحرية، على الشواطئ الإفريقية حتَّى كانت النار توقد في سبتة بالمغرب للإنْذار بالعدوّ، فيتَّصل إيقادها بالاسكندرية في اللَّيْلة الواحدة.

206) ابن خلدون، ص 386 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 65-66 من ج 2، طبع القاهرة. وص 135-136 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

207) ابن خلدون، ص 387 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 66 من ج 2، طبع القاهرة. وص 133 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

ولاعتناء السلطان أبي الحسن رحمه الله بأساطيله، أنشأ هذه المحارس والمنائر، وكان العمل جارياً بها في عهده، وعدّها ابن مرزوق في «المسند الصحيح الحسن» من مآثره فقال :[208]

أنشأ المولى الحسن رضي الله عنه من المحارس والمناظر ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار، وحَسْبُك أنَّ من مدينة ءاسفي، وهي ءاخر المعمور، إلى بلاد الجزائر، جزائر بني مزْغَنَان، ءاخر وسط الغرب، وأوّل بلاد إفريقية محارس ومناظر إذا وقعت النِّيران في أعلاها، تتَّصل في الليلة الواحدة، أو في بعض ليلة، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نَحْواً من شهرين، وفي كل محرس منها، رجال مرتَّبون نظَّار وطلاَّع، يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين، إلاَّ والتَّنْيير يبدو في المحارس يُحذِّر أهل كلِّ ساحل من السواحل ساحلهم، فأمنت السواحل في أيامه السعيدة، ممَّا كان يستمرّ فيها من أسْر أهل البوادي وتصبُّحهم، والاستيلاء على كثير من أهل العمود الذين يأوون إلى البلاد الشطِّية والسواحل.

موقف الأسطول المريني
من سقوط الجزيرة الخضراء

لمَّا جاز السلطان أبو الحسن رحمه الله إلى سبتة، بعد وقعة طريف، أخذ على نفسه بالعوْد إلى الجهاد لردِّ الكرّة، فأرسل في المدائن حاشرين، وأخْرج قوّاده إلى السواحل المغربية لتجهيز الأساطيل، فتكامل له منْهَا عدد معتبر، وأشرف من سبتة على ثغور الأندلس، وقدَّم عساكره إليها مع وزيره عسْكر بن تاحضريت، وعقد على الجزيرة لمحمد بن العبّاس بن تاحَضْريت من قرابة الوزير، وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن ابراهيم الْيَرْنِياني، من المرشَّحين للوزارة.

وبلغ الطاغية خبره، فجهّز أسطوله وأجراه إلى بحر الزُّقاق، فملكه دون المسلمين، وأقبل من إشبيلية حتَّى أناخ على الجزيرة الخضراء مرفإ أساطيل المسلمين وفُرْضة المجاز، وضرب عليها نطاق الحصار وطاولها به، وجاء ابن الأحمر فنزل بظاهر جبل طارق، فلم يُغن شيئاً. وكان السلطان يُسرِّب إلى المحصورين بالجزيرة المَدَد من الفرسان والمال والقوت

208) ص 30 من «المنتخب» الذي طبعه ليفي پْروفَنْسالْ بباريس سنة 1925.

ليْلاً أوقـات الغـفلة مـن أسـاطيل العـدو الرّابض بالمـجـاز، وكـانت بينهم وبين العـدوّ حـروب استعملوا فيها المقذوفات النارية، ولم يُغْن ذلك عن أهل الجزيرة شيئا، إلى أنْ ملّوا الحرب وضاقوا درعاً بالحصار وما همْ فيه من الخوف وتوقّع سوء المآل.

ثم خاطب ابن الأحمر السلطان أبا الحسن مبينا له الأمر، ووجّه له من يُفاوضه في السلم، فأرصد له العدوّ الأساطيل في طريقه، فصدقهم المسلمون القتال، وخلصوا إلى الساحل بعد غصٍ الرّيق، وكانت النتيجة أن طلب المحصورون الأمان من الطّاغية على أنفسهم ويُسَلّموا له البلد، فأمّنهم وسلّموها له، وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة (1341/743)، فأنزلهم السلطان ببلاده، ولقّاهم مبرّة وكرامة، وتقبّض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقاباً له على التّقصير في المدافعة مع تمكّنه منها، والله غالب على أمره(209).

هذا، وقد وقع هذا التّمحيص من السلطان أبي الحسن موقعاً عظيماً، وتأثّر له تأثّراً كبيراً، وصمّم العزم على استيناف الحرب، وتسيير أساطيله وجيوشه إلى دار الحرب أخذاً بالثّار، ومحواً لأثر العار. وقد صرّح بذلك رحمه الله، وبسطه في رسالته المؤرخة بسادس وعشري صفر عام خمسة وأربعين وسبعمائة (26 صفر10/745 يوليوز 1344) التي خاطب بها بعد هذه الحوادث سلطان مصر أبا الفداء إسماعيل بن محمد بَنْ قلاوون في شأن التّعزية بوفاة والده والتّهنئة له بولاية السلطنة من بعده، ووجّهها له صُحبة كاتبه وصاحب ديوان الخراج ببابه أبي الفضل بن عبد الله بن أبي مدين.

ولا بأس أن ناتي هنا بما جاء فيها ممّا يتعلّق بهذه القضية لِمَا فيه من بيان حقائق ومزيد تفصيل، وخصوصاً فيما يرجع لخسارة الأساطيل.

قال بعدما استعرض علاقته الودية مع والده وترحّم عليه وهنّأه بما ساقه الله من الملك إليه.

ثم بسط له حالة الأندلس وتكالب العدو على مدنها وحصونها واستصراخ المسلمين الذين بها، وأنّه سمع صُراخهم، ولبّى نداءهم، لاسيما بعد حصار الجزيرة الخضراء، لأنها كانت مركز أساطيله، ومعقِل المجاهدين من جنده وقبيله :

«... فقدّمنا من يشتغل بالاساطيل من القوّاد، وسرنا على أثرهم إلى سبتة منتهى الغرب الاقصى وباب الجهاد، فما وصلناها إلاّ وقدْ أَخَذَ أخذه العدوّ الكفور، وسدّت أجفان

209) ابن خلدون، ص 388 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 67 من ج 2، طبع القاهرة، وص 135 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

الطّواغيت على التعاون مجاز العبور، وأتوْا من أجفانهم بما لا يُحْصى عدداً، وأرْصدوها بمجْمع البحرين حيثُ المجاز إلى دفع العدا، وتقلّصوا عن الانبساط في البلاد، واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء، أعادها الله، بكلٍّ منَ جمعوه من الأعاد. لكنّا مع انسداد تلك السبيل، وعدم أمور نستعين بها في ذلك العمل الجليل، حاولنا إمداد تلكم البلاد بحسب الجهد، وأصْرخناهم بما أمكن من الجند، وجهّزنا أجفاناً مختلسين فرصة الإجازة، تتردد على خطر بمن جهّز للجهاد جهازه، وأمرنا لصاحب الأندلس من المال بما يجهِّز به حركته لمداناة محلّة حزب الضلال، وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزْل مشاهرة، وأرضخْنا لهم من النّوال ما نرجو به ثواب الآخرة، وجعلتْ أجفانُنا تتردّد في مينا السّواحل، وتلج أبواب الخوف العاجل، لإحراز الأمن الآجل، مشحونة بالعدد الموفورة، والأبطال المشهورة، والخيل المسوّمة، والاقْوات المقوّمة، فمن ناج حارب دونه الأجل، وشهيد مضى للّه عزّ وجلّ، وما زالت الاجفان تتردّد على ذلك الخطر، حتى تلف منها سبع وستّون قطعة غزويّة، أجْرها عند الله يُدّخرْ. ثمّ لم نقنع بهذا العمل في الإمْداد، فبعثنا أحد أولادنا - أسعدهم اللّه - مساهمة به لأهل تلك البلاد، فلقي من هوْل البحر وارتجاجه، والحاح العدوّ ولجاجه، ما به الأمثال تُضْرب، وبمثله يُتحدّثُ ويُستغرب.

ولمّا خلُص لتلك العدوة بمن أبقته الشّدائد، نزل بإزاء الكافر الجاحد، حتّى كان منه بفرسخيْن أو أدنى، وقد ضرب بطعن يُصابح العدوّ ويماسيه بحرب بها يُمنى.

وقد كان بمدَدنا بالجزيرة جيش شَرِيَتْ شرارته، وقويت في الحرب إدارته، يبلون البلاء الاصْدق، ولا يبالون بالعدوّ وهم منه كالشّامة البيضاء في البعير الأزرق، إلاّ أنّ المطاولة لحصارها في البحر مدّة ثلاثة أعوام ونصف، ومنازلتها في البرّ نحو عامين معقوداً عليها الصفُّ بالصّف، أدّى إلى فناء الأقوات في البلد، حتى لم يبق لأهله قوت شهر مع انقطاع المدَد، وبه من الخلف ما يربى على عشرة ءالاف، دون الحرم والولد، فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الإذن له في عقد الصلح، ووقع الاتّفاق على أنّه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح، فأذنّا له فيه الإذن العام، إذْ في إصراخه وإصراخ من بقُطره من المسلمين توخّينا ذلك المرام.

هنالك دعا النصارى إلى السلْم فاستجابوا، وقد كانوا علموا فناء الأقوات، وما استرابوا، فتمّ الصلح إلى عشر سنين. وخرج من بها من فرسان ورجال وأهل وبنين، ولا رُزِءوا مالاً ولا عدّة، ولا لُقّوا في خروجهم غير النّزوح عن أوّل أرض مسّ الجلد ترابها شدّة، ووصلوا إلينا فأجزلْنا لهم العطاء، وأسلَيْناهم عمّا جرى بالحباء. فمن خيل تزيد على الألف عتاقُها، وخلَع تربى على عشرة ءالاف أطواقها، وأموال عمّت الغني والفقير، ورعاية شملت

الجميع بالعيْش النَّضير، وكفّ الله ضُرّ الطواغيت عمَّا عَداها، وما انقلبوا بغير مدرة عفا رسمها، وصمّ صداها.[210]

وكان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثَّغر، أن قدّر لنا فتح جبل طارق[211] من إيدي الكفْر، وهو المطلّ على هذه المدْرة، والفرْصة منه إن شاء الله متيسّرة حتَّى يُفْرق عقْد الكفَّار، ويُفرج بهذه الجهة منهم مُجاورو هذه الأقطار، فلوْلا إجلابهم من كل جانب، وكونهم سدُّوا مسْلك العبور بما لجميعهم من الأجفان والمراكب، لَمَا بالَيْنا بإصفاقهم، ولحَلّلْنا بعون الله عُقدَ اتّفاقهم، ولكن للموانع أحكام، ولا رادَّ لِمَا جرت به الأقلام.

وقد أمرنا لذلك الثَّغر بمزيد المدد، وتخيَّرْنا له ولسائر تلك البلاد العَدَد والعدد، وعُدْنا لحضْرتنا فاس لتستريح الجيوش من وعْثاء السّفر، ونرتبط الجياد، وننتخب العدد لوقت الظهور المنتظر، ونكون على أهبة الجهاد، وعلى مراقبة الفُرصة عند تمكّنها في الأعاد، وعند عوْدنا من تلك المحاولة نُسيّر الرّكب الحجازي موجّهاً إلى هناكم رواحله...»

وقد أجابه السلطان ابن قلاوون عن هذه الرسالة برسالة مؤرخة بسادس رمضان عام خمسة وأربعين وسبعمائة (6 رمضان 12/745 يناير 1345) من إنشاء الشيخ خليل الصّفدي، شارح «لاَميَة الْعَجَم»، ضمّنها أسفه على سقوط الجزيرة وأنّه ليس في استطاعته أن يُعينه بشيء إلاّ بالدعاء الصالح الذي يرجو من اللّه قبوله وأنَّ ما أنفقه في سبيل الله سيخلفه اللّه فقال :

وأمَّا مَا وصفْتموه من الجزيرة الخضراء، وما لاقاه أهلها، ومُنِيَ به من الكفَّار حَزْنها وسَهْلها، فإنّه شقّ علينا سماعه الذي أنْكى أهل الايمان، وعدّد به نوب الزمان كلّ قلب بِأنَامِلِ الخفقان، وطالما فُزْتم بالظفر، ورُزقتم النَّصر على عدوكم، فجرَّ ذيل الهزيمة وفرّ، ولكنّ الحرب سجال، وكلُّ زمان لدوائره دوْلة، ولرجائه رجال. ولوْ أمكنت المساعدة لطارت إليكم عقبان الجياد المُسوّمة، وسالت على عدوّكم أباطحهم بقسيِّنَا المعوجة، وسهامنا المُقوّمة، وكحلنا عيْن النجوم بِمَرَاوِدِ الرماح، وجعلنا ليل العجاج مُمزّقاً بِبُروقِ الصّفاح، واتّخذنا رءوسهم لصوالج

210) قد وردت الرسائل المتبادلة بين ابن الأحمر وأبي الحسن وملك الأركون في شأن هذا الصلح وإبرامه في مجموعة «الرسائل الملكية» المحفوظة بالمملكة الأركونية لجامعها رامون غارسيا دو ليناريس (Ramón Garcia de Linares) المطبوعة بمدريد سنة 1940 تحت رقم 56، ص 110 ورقم 66 ص 128. فليرجع إليها من أراد الوقوف عليها، ومنها يعلم كيف كان ملوك بني الأحمر يخاطبون ملوك الإصبان في ذلك العهد.

211) تقدّم لنا في فصل سابق كيفية استرجاع السلطان أبي الحسن لجبل طارق وما بناه فيه من الحصون والأسوار وغير ذلك.

القوائم كرات، وفرجْنا مضايق الحرب بتَوالي الكرّات، وعطفنا عليهم الأعنّة، وخُضْنا جداول السّيوف، ودُسْنا شوْك الأسنّة، وفلقنا الصَّخْرات بالصَّرخات، وأسلنا العبرات بالرُّعبات. ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول، وأين الثُّريّا من يد المتناول، وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا، والتوجّه الصّادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا.

وأمّا ما فقدْتموه من الأجفان الذي طرقها طيف الإتلاف، وأمَّ حرم فنائها الفناء وطاف به بعد الألطاف، فقد روّع هذا الخبر قلب الإسلام، ونوّع له الحزن على اختلاف الإصْباح والإظْلام. وهذه الدّار ما يخلو صفوها من كدر، وطالما أنامت بالأمْن أوّل اللّيل وخاطبت بالخطْب في السّحر. ولكنْ في بقائكم ما يُسلّي خَطْب العَطَب، ومع سلامة نفسكم الكريمة فالأمر هيّن، لأنّ الدُّرَّ يُفْدى بالذّهب.

وأمّا ما رأيتموه من الصُّلح فرأيٌ عقده مبارك، وأمرٌ ما فيه فارط عزم وإنْ كان فيتدارك، والأمر يجيء كما يُحبّ، لا كما نُحبّ، والحروب يزورها نصرها تارة ويغبّ، ومع اليوم غدا، وقد يردّ الله الرّدى، ويُعيد الظّفر بالعدا.

وأمّا عوْدكم إلى فاس المحروسة، طلبا لإراحة من عندكم من الجنود، وتجْهيزاً لمن يصل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوُفود، فهذا أمر ضروريّ التّدبير، سروري التّثْمير، لأنّ النُّفوس تملّ وَثِيرَ المهاد، فكيف ملازمة صهوات الجياد، وتسأم من مجالسة الشُّرْب، فكيف بممارسة الحرب، وتُعْرض عن دوام اللّذّة، فكيف بمباشرة المنايا الفذّة.

وهذا جبل طارق الذي فتح الله به عليكم، وساق هدْي هديّته إليكم، لعله يكون سبباً إلى ارْتجاع ما شرد، وحسماً لهذا الطاغية الذي مرد، فعادةُ الألطاف معروفة، وعزماتكم إلى جهات الجهاد مصروفة، وقد تفاءلْنا لكم من هذا الجبل، بأنّه طارق خيْر من الرحمان يطرُق، وجبلٌ يعْصم من سهمٍ بمرْمى قِسِيِّ الكفار ويَمْرُقُ.

وأمّا ما منحْتُموه من الخيل العتاق، والملابس التي تُطْلِعُ بُدور الوجوه من مشارق الأطواق، والأموال التي زكت عند الله تعالى ونمت على الإنْفاق، فعلى الله عزّ وجلّ خلفُها، ولكم في منازل الدنيا والآخرة سرفها وشرفها، وإليكم تُساق هدايا أثْنيتها، وتحفُكم تُحفُها... (212)

---

212) ملخص من «نفح الطيب»، ص 1191 وما بعدها من السفر الثاني، طبع بولاق، و«الاستقصا»، ص 68 وما بعدها من ج 2، طبع القاهرة، وص 137 وما بعدها من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

ركوب السلطان أبي الحسن المريني البحر من تونس وغرق أسطوله

لمَّا غزا السلطان أبو الحسن المملكة التونسية، واختلّ أمره بها، وأراد الرُّجوع إلى المغرب، لتدارك أمر ولده أبي عنان القائم عليه سنة تسع وأربعين وسبعمائة (1348/749)، وكانت بطانته تُوَسْوِس إليه بذلك لاسترجاع نِعْمتهم باسترجاع ملكه، مع ما أصابهم بتونس من الغلاء والمَوْت الذَّريع، فأجابهم إلى ذلك، وشَحَنَ أساطيله بالأقوات، وأزاح علل المسافرين وقرّر السّفر.

ولمَّا قضى نُسُك عيد الفطر سنة خمسين وسبعمائة (شوال 750/ دجنبر 1349) ركب البحر أيَّام استفحال فصل الشّتاء وهيجان البحر وكَلَب البرْد، بعد أنْ عقد لابنه أبي الفضل على تونس، وأقْلع من مرسى تونس، ولخمسٍ من إقلاعه، دخل مرسى بجاية، وقد احْتاجوا إلى الماء، فمنعهم صاحب بجاية الحفصيُّ من الوُرود، وأوْعز إلى سائر سواحله بمنعهم فزحفوا إلى الساحل، وقاتلوا من صدّهم عن الماء إلى أن غلبوهم، واستقوْا وأقْلعوا، وعصفت بهم الريح لَيلتئذ، وجاءهم الموج من كل مكان، وألقاهم إلى الساحل بعد أن تكسَّرت الأجفان، وغرق الكثير من بطانة السلطان، فألقاه إلى حجر قُرْب السَّاحل من بلاد زواوة، عاري الجسد، مباشراً للموت، وقد هلك كلُّ من كان معه من الفقهاء والعُلماء والكُتَّاب والأشراف والخاصّة، وهو يُشاهد مصارعهم، واخْتطاف الموْج لهم من فوق الصُّخور التي تعلَّقوا بها، فمكثوا ليلتهم على ذلك، وصبّحهم جَفْن من بقية الأساطيل كان قد سَلِمَ من ذلك العاصف، فبادر أهل الجفن إليه حين رأوْه فاحتملوه وقد تصايح به البربر من الجبال، وتواثبوا إليه حين وضح النهار وأبصروه، فتداركه الله بهذا الجفن فاحتملوه وقذفوا به في مدينة الجزائر.(213)

وفي غرق أسطول أبي الحسن يقول ابن الخطيب في «رقم الحلل»:(214)

وَرَكِبَ اللُّجَّةَ فِي فَصْلِ الشِّتَا	وَقَدْ طَغَا الْمَوْجُ لَدَيْهَا وعَتَا
فَعَطِبَ الأُسْطُولُ وانْبَتَّ الرَّجَا	يَا عِبْرَةً قَدْ ذَهِلَتْ مِنْهَا الحِجَا
وَمَاتَ فِي كَسْرَتِهِ كُتَّابُهُ	وتَلِفَتْ يَوْمَئِذٍ أَسْبَابُهُ
والبَرُّ مِنْ أعْدائِهِ مَلْآنُ	لاَمَلْجَأٌ يُرْجَى ولاَ أَمَانُ

---

213) ابن خلدون، ص 421 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 84 من ج 2، طبع القاهرة، وص 160 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

214) ص 82، طبع تونس.

وَلَطَفَ اللّهُ بِهِ وأنْقَذَهُ   وجَاءَ جَفْنٌ مُقْلِتٌ فَأخَذَهُ
وقدْ أُصِيبَ صَحْبُهُ ومَالُهُ   وكَانَ بالجَزَائِرِ احْتِلالُهُ

وعلّق على ذلك بمثل ما ذكره ابن خلدون وغيره من المؤرخين.

وفي «نفح الطيب»(215) أنَّ أساطيل السلطان أبي الحسن كانت نحو السِّتّمائة، فغرقت كلُّها، ونجا هو على لوْح، وهلك من كان معه من أعلام المغرب، وهم نحو أربعمائة عالم، منهم أبو عبد الله محمد بن سليمان السطّي، شارح الحوفي، وأبو عبد الله محمد بن الصَّبَّاغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على «حديث يا أبا عُمير ما فعل النُّغيرُ» أربعمائة فائدة، والأستاذ الزّواوي أبو العباس، وغير واحد. وكان غرق الأسطول على ساحل تدلس.

وذكر الشيخ أبو عبد الله الابِّي في «شرح مسلم»(216) عند كلامه على أحاديث العيْن ما معناه، نقلاً عمَّنْ يَثِقُ به أنّ رجلاً كان ببجاية معروفاً بإصابة العيْن، فأمرهُ بعض الموْتورين للسلطان أبي الحسن، وهو أحد الأمراء من قِبَل الموحِّدين أنْ يُصيب أسَاطِيلَهُ بالعيْن، وكانت كثيرة، فنظر إليها الرّجل العائن، فكان غرقها بقُدْرة الله الذي يفعل ما يشاء، ونجا السلطان بنفسه، وجرت عليه محنٌ.

قلتُ : لقد كانت عليه فيها محنٌ حقيقة، ضاع فيها ملكه، كما هو معلوم، كما كانت في هذه المأساة خسارة عظيمة على الأسطول المريني أضعفت قوَّته، وأقلَّتْ عدده، وإنْ كان ولده وخلفه من بعده، عمل ما في وُسعه لرأب صَدْعِه، ولمِّ شعثه، واسترجاع ما ضاع من قوَّته، كما سنراه فيما سياتي.

---

215) ص 438 من السفر 4، طبع القاهرة، بولاق.

216) ص 5 من ج 6، طبع دار السعادة بمصر.

المبحث الثاني عشر

الأسطول المريني في عهد أبي عنان

لمَّا تُوفي السلطان أبو الحسن، وتمَّ الأمر لولده أبي عنان، واجتمعت الكلمة عليه، صرف وجهته لحراسة مملكته وصيانتها، وحفظ كيانها، فسيطر على جيوشه، واعتنى بأسطوله، واهْتمَّ به، وبتعويض ما ضاع منه بدور صناعة مملكته، وغزا به إفريقية، وأعاد الكرّة على تونس كما سياتي، وأقام بها دعوته مدّةً مديدةً.

قال ابن بطُّوطة في «رحلته» :[217] وممَّا شَاعَ من أفعال مولانا أيَّده الله (يعني أبا عنان) إنشاؤه الأجفان بجميع السّواحل واستكثاره من عدد البحر، وهذا في زمن الصُّلح والمهادنة إعداداً لأيام الغزو، وأخذاً بالحزْم في قطعْ أطْماع الكفار، وأكَّد ذلك بتوجُّهه، أيَّده الله، بنفسه إلى بلاد «جانتة» ؟ في العام الفارط، ليباشر قطع الخشب للإنشاء، ويُظهر قدر ما له بذلك من الإعتناء، ويتولَّى بذاته أعمال الجهاد، مترجّياً ثواب الله تعالى، وموقناً بحُسْن الجزاء.

إعتناء أبي عنان بجبل طارق،
مأوى الأساطيل المرينية

لمَّا كان جبل طارق قاعدة بحرية، في الدولتين الموحدية والمرينية، واعتنى به عبد المؤمن، ثم أبو الحسن، بعد فتحه واسترجاعه من يد الإصبان، وجدّد مبانيه كما تقدّم، فإنّ ولده أبا عنان لمَّا تمَّ له الأمر، وتفرّغ لشأنه وتجديد أسطوله، ورتّق فتق ما أصابه من الغرق

217) ص 177 من ج 2، طبع وادي النيل بالقاهرة عام 1287 (1870-1871).

أثناء محنة والده، اهتمّ بإصلاح قواعده البحريّة التي كان يأوي إليها ويعتصم بها، وخصوصاً الموالية منها لدار الحرب بالأندلس، كجبل طارق، فإنّه صرف إليه وجهته وهمّته وعنايته.

قال ابن جُزَّي فيما دوّنه عن هذا الجبل في رحلة ابن بطُّوطة بعد كلام ما شيّده فيه أبو الحسن حسبما تقدّم :[218]

ثم جدّد مولانا أمير المومنين أبو عنان، أيّده الله، عهد تحصينه وتحسينه وزاد به بناء السُّور بطرف الفتح، وهو أعظم أسواره غناءً وأعمُّها نفعاً، وبعث إليه العُدد الوافرة والأقوات والمرافق العامّة، وعامل الله تعالى فيه بحسن النِّية وصدق الإخلاص.

ولمّا كان في الاشهر الأخيرة من عام ستّة وخمسين وسبعمائة (1355/756)، وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيّده الله، وثمرة توكُّله في أموره على الله، وبان صدق ما اطّرد له من السعادة الكافية، وذلك أنّ عامل الجبل الخائن الذي ختم الله له بالشّقاء عيسى ابن الحسن بن أبي منديل، نزع يده المغلولة عن الطاعة، وفارق عصْمة الجماعة، وأظهر النِّفاق، وجمع في الغدْر والشّقاق، وتعاطى ما ليس من حاله السّيّء وما له، وتوهّم الناس أنّ ذلك مبدأ فتنة تُنفق على إطفائها كرائم الأموال، ويستعدّ لاتِّقائها بالفرسان والرجال، فحكمت سعادة مولانا، أيّده الله، ببطلان هذا التوهُّم، وقضى صِدقُ نيّته بانخراق العادة في هذه الفتنة، فلم تكنْ إلاّ أيّام يسيرة، حتى راجع أهل الجبل بصائرهم، وثاروا على الثّائر، وخالفوا الشّقيَّ المخالف، وقاموا بالواجب من الطاعة، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النّفاق، وأتِي بهما مصفّديْن إلى الحضرة العالية، فنفّذ فيهما حكم الله في المحاربين، وأراح الله من شرِّهما.

وفي ابن خلدون[219] أنّ أبا عنان جهّز إليه أساطيل، وظنّ أنّه تدبيرٌ من الطاغية وابن الأحمر، وبعث أحمد بن الخطيب قائد البحر بطنجة إلى الجبل، فثار به أهل الجبل خوفاً من السلطان، وأسلموه لقائد الأسطول، فساقه إلى سبتة، وسيق إلى السلطان فقتله.

ثم قال ابن جُزَّي في «رحلة» ابن بطُّوطة : ولمّا خمدت نار الفتنة أَظْهَرَ مولانا، أيّده الله، من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن في حساب أهلها، وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد، المبارك، الأرشد، أبا بكر، المدعوّ من السماة السلطانية بالسّعيد، أسعده الله، وبعث معه أنجاد الفرسان، ووجوه القبائل، وكُفاة الرجال، وأذرّ عليهم الأرزاق، ووسّع لهم الاقطاع،

218) ص 178 من ج 2، مطبعة وادي النيل سنة 1278 (1870-1871) .

219) ص 437 من السفر الثاني، طبع الجزائر.

وحرّر بلادهم من المغارم، وبذل لهم جزيل الإحسان. وبلغ من اهتمامه بأمور هذا الجبل أنْ أمر، أيّده الله، ببناء شكل يُشْبه شكله، فمُثّل فيه أشكال أسواره وأبراجه، وحصنه وأبوابه، ودار صنعته ومساجده، ومخازن عدده، وأهرية زرعه، وصورة الجبل وما اتّصل به من التربة الحمراء، فصُنع ذلك بالمشور السعيد، فكان شكلاً عجيباً أتْقنه الصُّناع إتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل، وشاهد هذا المثال، وما ذلك إلاّ لِتَشَوُّقِه، أيّده الله، إلى استطلاع أحواله، وتهمُّمه بتحصينه وإعداده، والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة الغربية على يديه، ويُحقّق ما يؤمّله في فتح بلاد الكُفّار، ويُشتّت شمل عُبّاد الصَّليب.

وفيه يقول أبو الحسن بن سعيد الغرناطي :

أُنْظُرْ إِلَى جَبَلِ الْفَتْحِ رَاكِباً مَتْنَ لُجٍّ ... وَقَدْ تَفَتَّحَ مِثْلَ الأَفْنَانِ فِي شَكْلِ سَرْجِ

هذا، وما زال جبل طارق منذ الفتح الاسلامي، لمّاً طرقه طارق بجيشه وأسطوله، وهو مطمحُ الدول، وعليه في السّيطرة على البوغاز أو المجاز المعوَّل، وقد تداوله الملوك، وجُهزت له ومنه وإليه الأساطيل الإسلامية والمسيحية، وقامتْ حوله حروب طاحنة طاغية، بريّة وبحرية، لأنّه المرقبة العلْيا، كسبتة على البحرين، والحارس الشامخ بأنفه المطلُّ على البرّين، وعرض مجازه خمسة عشر كيلومترا، وعُمْقه ثلاثمائة وخمسون مترا.

وقد استرجعه الإصبان نهائياً من يد بني الأحمر سنة سبع وستّين وثمانمائة (1462/867).

واستولى عليه الإنجليز منهم سنة ستّ عشرة ومائة (1704/1116)، واتّخذوه قاعدة لأساطيلهم التي كان لها الظهور والامتياز على غيرها في البحرين : المتوسط والمحيط الاطلانطيقي، منذ ذلك العهد إلى وقتنا هذا، حيث ضعف شأنها بالنِّسبة لأميركا وروسيا اللّتين أصبح لهما التفوُّق عليها، وهما الآن في نزاع حادّ، وسباق مستمر بينهما على السّيْطرة على البحر الأبيض المتوسط.

ومنذ استولت إنكلترا على جبل طارق وإصبانيا تصيح وتستغيث متظلِّمة من إنكلترا، ومطالبة باسترجاعه منها، وتعدّ هذه المسألة من جملة المسائل الدولية التي تنظر فيها جمعية الدول.

ولكن، من الحقّ والإنصاف والقسط أنّه إذا استرجعت إصبانيا جبل طارق من إنكلترا، لكونه قطعة من أرضها، فيجب عليها أن تردّ مليلية وسبتة المقابلة له في العُدوة الأخرى

للمملكة المغربية، لأنهما قطعة من أرضها أيضا، وكذلك ما بقي تحت نفوذها من الصّحراء المغربية جنوب المغرب، ومن طالب بحق فيتعيّن عليه أن يبدأ بِنَفْسِهِ ويودّي ما عليه من الحقوق لغيره.

بعض أعمال أسطول أبي عنان بإفريقية

لمَّا استتبّ الأمر لأبي عنان وخَلاَ لَهُ الجوّ، أجمع على غزْو بني عبد الواد، فنهض إلى تلمسان، يتبعه في البحر أسطوله، واستولى عليها، وكانت بينه وبينهم حروب ومعارك طاحنة.

وفي أثناء ذلك تنازل له أبو عبد الله الحفصي على بجاية، فأخذها منه وولّى عليها وليًا من قبَله. فثار عليه أهل بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة (1353/754)، وتدخّل الأسطول العناني في هذه الثورة بمناورات حربية حول البلد، ورمى المدينة بمقذوفاته النارية، وكان الحادث بها عظيماً إلى أن راجعت طاعته، وأقرّت ولايته ؛ وتقبّض حاجب أبي عنان على جماعة من غوغاء بجاية المتّهمين بالخوض في الفتنة يُناهزون المائتين، فاعتقلهم، وأركبهم الأسطول إلى المغرب، فاطْمأنّ النّاس وسكنوا.

وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة (1357/758) غزا إفريقية، واستولى على قُسَنْطينةَ واستسلم له أميرها أبو العباس، أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي، فتقبّض عليه، وبعثه في أسطوله إلى سبتة، فاعتقله بها.(220) ثمَّ جهّز الجيش والأسطول إلى تونس برياسة الرئيس محمد بن يوسف المعروف بالأبكم. وبمجرّد وُصوله بأسطوله إلى المرسى، قاتل الوزير الحفصي ابن تَافْرَكِينْ، واستولى على تونس في السنة المذكورة.

ثمَّ وقعت اضطرابات وفتن أجبرت أبا عنان على الرجوع إلى المغرب، ولم يكد يُفارق إفريقية، حتَّى رجع الحفصيُّون إلى تونسهم، وثارت شيعتهم على من كان بها من جيش بني مرين، فنجوْا بأنفُسهم إلى الأسطول، وركبوا البحر إلى المغرب.(221)

---

220) «الاستقصا»، ص 99 من ج 2، طبع القاهرة، وص 190 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

221) ابن خلدون، ص 438 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا» ص 100 من ج 2، طبع القاهرة، وص 191 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

استعانة أبي الفضل محمد وأبي سالم إبراهيم بالأسطول على المطالبة بحقهما في الملك

كان أبو عنان لمّا تمّت بيعته، أشخص أخويه أبا الفضل مُحمّداً وأبا سالم إبراهيم إلى غرناطة ليكونا مع الغُزاة والقرابة بالأندلس.

قال ابن الخطيب في «الإحاطة» :[222] وباشرتُ إركابهما البحر من مدينة سلا، وكان حاضراً بها لمّا جاء مُعزّياً في السلطان أبي الحسن.

ولكنّه بعد استيلائه على المغرب الأوسط أوجس منهما خيفة، وأنفذ رسُله إلى ابن الأحمر يطلب منه إشخاصهما إليه، فخشي غائلته عليهما، ولم يُجبه إلى طلبه، ودسّ إلى أكبر الأخوين أبي الفضل مُحمّد باللّحاق بالطاغية، فالتحق به، وجهّز له أسطولاً أركبه فيه أنزله بساحل من سواحل السّوس، ونذر السلطان أبو عنان بذلك، فأوعز إلى قائد أسطوله باعتراض أسطول الطاغية، فاعترضه وأوقع به، ولم يتمّ أمر أبي الفضل[223].

ولمّا تُوفي أبو عنان في الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة (1361/762)، وبويع ولده الصّبي السّعيد، نزع أبو سالم من غرناطة إلى الطاغية أيضاً طالباً إعانته على المطالبة بملك أبيه، فأسعفه، وجهّز له أسطولاً قذفه بجبال غُمارة، ومنها الْتحق بفاس، وتمّتْ بيعته.[224].

استعمال الأسطول المريني في إبادة وإبعاد المتشوّفين للملك والرّياسة

كان بنو مرين معتزّين بأسطولهم ومُعتمدين عليه في تدعيم صرْح دولتهم. وكان كُلُّ سلطان منهم بمجرّد بيعته أو قيامه بطلب حقّه في الملك، يحرص كلّ الحرص على انضمام الأسطول إليه، والاعتزاز بقوته وتسخيره فيما يشتدّ به أزره، وينتظم أمره، باجتماع الكلمة عليه من شيوخ مرين وأعياصهم من الوُلاة والغُزاة المفرّقين بأطراف المغرب والأندلس.

---

222) ص 165 من ج 2، طبع مصر سنة 1319.

223) ابن خلدون، ص 435 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 92 من ج 2، طبع القاهرة، وص 179 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

224) ابن خلدون، ص 450 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 105 من ج 2، طبع القاهرة، وص 212 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. و«كشف العرين عن ليوث بني مرين» لمؤلف «الاستقصا»، ص 23، مخطوط المكتبة الناصرية بسلا.

ولذلك نرى جلّ سلاطينهم بمجرد ما يتمّ لهم الأمر، أوّل ما يهتمّون به الأسطول وتجهيزه، وإفاضة العطاء على رؤسائه والمدبّرين لشؤونه، ليكونوا معهم، وفي صفّهم، محامين عنهم في الثغور والأقاليم القاصية من المملكة بالمغرب والأندلس، منفّذين لأوامرهم، وعاملين على حمايتهم وصيانة كيانهم، ومدافعين عنهم.

وكثيراً ما كانوا يستعملونه في القضاء على منافسيهم، أوْ من يُتوقّع قيامهم عليهم من أسْرتهم، أوْ وُزرائهم وحُجّابهم، بإبْعادهم عن أوطانهم، أوْ إبادتهم بإغراقهم في البحر، حبّاً في الانفراد بالمُلك، وعدم المشاركة في الرياسة، ومنعاً للباقين من أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضّاربين في المُلك بمثل سهمه، ويستبدّ به وحده دونهم، ولا يُنازعونه فيه، وهي سنّةٌ من سُنن الكوْن جُبل البشر عليها حتّى في مُطْلق التّصرفات الدّنيوية، فضلاً عن المُلك والرِّياسة.

ومن ذلك ما وقع في عهد السلطان أبي سالم، وهو أنّه لمّا تولّى الملْك، وتخلّص من وزارة الحسن بن عمر، عمِل على إبادة المنافسين له فيه من أفراد أسرته.

قال ابن الخطيب في «نفاضة الجراب»[225]: وصرف السلطان (أبو سالم) وكْدَه إلى اجتثاث شجرة أبيه، وأنْ لا يدع من يصلح للملك، أوْ يترشّح للأمر، فالتقط من الصّبية بين مراهق ومحتلم ومستجمع طائفة تناهز العشرين غلاما رَوْقَة من إخوانه وأبناء إخوانه، فأُركبوا البحر إلى رُنْدة، ومنهم ابن أخيه المسمّى بالسّعيد المتصيّر إليه الأمر بعد أبيه، وأفْلَتَ منهم ولدان لَحِقا بغرناطة، فاستقرّا بدار ءامنة، ثمّ تعقّب النظر فيهم، فأركبهم جفنا غزْويا، مُوَرّياً بتغريبهم إلى المشرق، مُبعداً إيّاهم عن حدود أرضه.

ثمّ طَيَّر إلى قائد الأسطول، وهو أبو القاسم بن أبي بكر بن بنج السّابيء، بضاعة الخزْي بعدهم، ثبتاً بخطّه، يامره بتغريقهم منصرفه من مليلية، فأُخرجوا ليلاً من جوف السّفينة من بين أمّهاتهم الثّكالى، بعد أن جلّلتهم الذّلة، ومسّهم الضُّرُّ، وعاث في شعورهم الحيوان، لطول مقامهم في البحر شهوراً عدّة، فأُغرقوا، يركب الصّبيّ منهم زَبْنِيٌّ من تلك الزبانية ليُخْرجه إلى البَرِّ، فإذا خاض به الغمْر، وقارب الضّحضاح قلبه، وأمسك أصحابه بيديه ورجليه، وغمسوا رأسه في الماء، حتى تفيض نفسه، إلى أن كُمل منهم تسعة عشر، بدور ملْك، وشموس إمارة، غُذّوا بالنّعيم، ومهّدت لهم الأرائك، ولمْ تعلق بهم شُبْهة توجب إباحة قطرة من دمائهم.

225) ص 267-268، طبع دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.

حدَّثني متولِّي هذا المكروه بهم بهوْل مصرعهم، فقال :

«لقد علت منهم لَيْلَتَئذٍ الجُثث حتّى صارت هضبة، وحُفر لهم أُخدود هيل عليهم ترابه، كتب الله شهادتهم، وجعل أصاغرهم فَرَطاً لآبائهم، وعنده جزاء الظالمين، وهو أسرع الحاسبين، سبحانه». اهـ.

وهكذا كان يفعل بكل من تُشمّ منه رائحة التَّشوف للظُّهور والتَّغلب على الأمر، والتفرّد بالرياسة من السادات والأعْياص، فإنهم يُرْكبون الأساطيل بحيلة من الحيَل، ويُغْرقون في البحر، سواءً من الأمراء والرُّؤساء بالمغرب، أو أشياخ الغُزاة بالأندلس.[226]

تسخير الأسطول المريني لإرجاع ابن الأحمر المخلوع إلى الأندلس

لمَّا تقرّر رُجوع ابن الأحمر المخلوع اللاّجيء إلى المغرب إلى بلاده لاسترجاع مُلكه، اتَّفق السلطان أبو سالم مع سلطان قشْتالة بيدرو الأول (Pedro I) على مساعدته وإعانته، وأمر أساطيله بالتّجمُّع في فُرْضة المجاز بسبتة مورياً بجهاد من يظهر من عدوّ برْشلونة، وغرضه الحقيقي هو إجازة السلطان المخلوع إلى الساحل الأندلسي.

ووصل الأسطول القشتالي إلى مرسى سبتة أيضاً راغباً في إجازة السلطان المذكور.

ثم حدث خلاف بين رؤساء الأسطوليْن المذكوريْن، وأراد كلٌّ منهم أن يركب السلطان في أسطوله، فاختار الجواز في الأسطول المغربي، بعد أنْ حبا رؤساء الأسطول القشتالي، بما قطع ألسنتهم بما بدله مكارمة لهم.

وأركب أجفانهم طائفة من كبار قرابته، واستقرّ بجبل الفتح الذي كان تحت إمرة بني مرين، إلى أنْ تُمهّد السّبيل لوصوله لدار ملكه.[227]

226) راجع «نُفاضة الجِراب» أيضا، ص 179-180.

227) راجع «نفاضة الجراب»، الصفحات : 36-184-285.

مشاركة الأسطول المريني في استرجاع الجزيرة الخضراء

كان العدوّ استولى على الجزيرة الخضراء في عَهْدِ السلطان أبي الحسن، سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة (743/1341) كما تقدّم، واستمرت في ملكه وتحت سيطرته إلى سنة سبعين وسبعمائة (770/1369) في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن، ونشأتْ فتن بين ملوك الإصبان، وفي خلالها بقيت ثغورهم الموالية لأرض المسلمين عوْرة، وتشوّف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة الخضراء لقرب عهدهم بانتظامها في ملكهم. وكان السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن في شغل عن ذلك بفتنة أبي الفضل بن أبي سالم، فراسل ابن الأحمر بالأندلس أنْ يزحف إليها بعساكره برّاً، وعليه عطاؤهم وإمدادهم بالمال والأساطيل، على أن تكون ثوبة جهاده خالصة له. فأجابه إلى ذلك، وبعث إليه أحمال المال، وأوعز إلى أساطيله بسبتة فعمرت وأقلعت إلى مرسى الجزيرة لحصارها، وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها، وضرب عليها نطاق الحصار برّاً، وطوّقتها الأساطيل المرينية بحرا، ولم تمض إلاّ أيام قلائل حتى أيْقن النصارى بالهلكة لبُعدهم عن الصريخ ويأسهم من المدد، فألقوْا السلّم وسلّموا، وسألوا النُّزول على الصُّلح فأجيبوا إليه، وتملّك المسلمون الجزيرة، وأعادوا إليها شعائر الإسلام.

وولّى عليها ابن الأحمر ولياً من قبَله، ولم تزل إلى نظره، إلَى أنْ تمحّص النظر على هدمها خشية رجوع النصارى إليها، فهُدِّمت أعوام الثمانين وسبعمائة (780/1378).(228)

والواقع أن شمس الإسلام بالأندلس كانت في ذلك العهد على أطراف النّخيل، والمسلمون قوّضُوا خيامهم استعداداً للرّحيل، والعدوّ من ورائهم يتنقّص أراضيهم ويحتلُّ مدُنهم مهما وجد لها السَّبيل، وابن الأحمر عاجز عن حمايتها، ولو بجيش قليل، وبنو مرين في شُغل شاغل عن إمدادها كما كان الشّأن في الماضي بالغزاة والأساطيل، ولسان حالهم يقول :

أهمُّ بأمرِ الحَزْمِ لَوْ أسْتَطِيعُهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ العَيْرِ وَ النَّزَاوَانِ

---

228) ابن خلدون، ص 485 من ج 2، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 131 من ج 2، طبع القاهرة. وص 254 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001. وراجع «الإحاطة»، ص 56 وما بعدها من ج 2.

المبحث الثالث عشر

بعض مشاهير رؤساء الأسطول المريني

كان للأسطول المريني، كما كان لغيره من الأساطيل المغربية، رؤساء يُدبِّرون شؤونه، وإنشاءه، وتسليحه، وجميع ما يتوقّف عليه في تسييره وغزواته البحرية وأسفاره وتنقُّلاته بين المغرب والأندلس والسّواحل الإفريقية من سبتة إلى تونس.

ومن أشهر هؤلاء الرُّؤساء :

بنو الغزفي من سبتة

كانوا من بيوتات سبتة وأهل الرياسة والعلم فيها، واستبدّ بها منهم الفقيه أبو القاسم، منذ عهد أبي حفص عمر الموحِّدي، واستمرّت في ولايتهم إلى أنْ استولى عليها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، وانضاف إليه أسطولهم، وشارك في أعماله الجهادية بالعدوة الأندلسية كما تقدم.

وكان بها إذْ ذاك جيش لاباس به، وأسطول مُهِّم.

* أبو عبد الله محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم

واشتهر بالرياسة البحرية منهم على الأساطيل المرينية أبو عبد الله محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم. تولى النظر فيها لمّا نزع القائد يحيى الرنْدحي إلى الأندلس، وهو الذي كان قائد الأسطول المريني في معركة الزُّقاق، المعروفة عند الإصبان بمعركة ريو سلادو "Rio Salado"، وقد تقدّم الكلام عليها مفصّلا، وكان مع أبي الحسن مرجعه من تونس لمّا غرق أسطوله، وقُتل بتنغمرين من شلف، أثناء حروبه مع إفريقية.(229) :

229) ابن خلدون، ص 175من ج 2، طبع الجزائر.

* الرئيس مُحمَّد بن يوسف المعروف بالأبْكم

أصله من أمراء بني الأحمر النازعين إلى المغرب المنحاشين إلى ءال مرين.

وكان مع أبي عِنان لمَّا غزا إفريقية سنة سبع وخمسين وسبعمائة (1356/757).

ولمَّا انتصر على أبي العبَّاس الحفصي بقُسنطينة، وسرَّح جيوشه منها لتونس، بعث معهم أسطوله في البحر مدداً لهم، وعقد له عليه، فوصل الأسطول إلى مرساها، واستولى عليها في رمضان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة (رمضان 758/ غشت 1357)، ولم يصل إليها أبو عنان، ورجع إلى المغرب، وعاد إليها الحفصيون.[230]

وفي دولة السعيد بالله أبي بكر بن أبي عنان، لمَّا ثار عليه منصور بن سليمان من حفدة السلطان يعقوب بن عبد الحق بالمغرب الشرقي وتلمسان، بايعه وانضمَّ إليه، وكان في جملته إلى أن حاصر البلد الجديد من فاس، فانقلب عليه، لأنه استباح حرمة من حرمه.

وقد وصف ابن الخطيب هذه الحادثة في «نفاضة الجراب»، وتضمَّن وصفه أوصاف هذا الرئيس فقال :[231].

«وأوحش عميداً من رؤساء جنده، المظاهرين له على أمره، المناصحين بالجبلّة والغربة لسلطانه، محمد بن يوسف بن نصر، المُنبز بالأبْكم، الرئيس البطل البهمة، راكب ظهر التهوُّر، الحميّ الأنف، المرشَّح بالأندلس للإِدالة، المفتتح من حضرة تونس دار الخلافة جاهلاً بوزانه، ومجْرياً عليه حكم غمارة، فأمر بثقاف حرمة له لمْ تعْر قط إلا الحجبة فقارضه سوء الدّخْلة.» اهـ.

ولمَّا رجع السلطان أبو عبد الله المخلوع إلى الأندلس طالباً حقّه في الملك في الأسطول المغربي، خفّ لمُظاهرته ونصرته، ولكنّه فرّ عنه لحدوث أحداث عرقلت وصوله إلى غرناطة، قام بها ندُّه المتغلّب عليها، ورجع من كان معه من الجيش المرتزق المريني، وهكذا بقي بالمغرب ينْدُب حظّه حتى انتهى أمره[232].

ومنهم :

---

230) «كشف العرين عن ليوث بني مرين» لأبي العباس الناصري، ص 20، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

231) ص 238، طبع دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

232) نفس المصدر ص 301.

* الرئيس أبو القاسم بن أبي بكر بن بَنْج

وكان من الرؤساء المقرَّبين عند السلطان أبي سالم يُكلِّفه بالمهمّات، ويعتمد في تنفيذ أوامره عند اشتداد الأزمات، لأنّه أخلص إليه، وانضمّ لجانبه بمجرّد ما قذف الأسطول به بسواحل غمارة، لمّا رجع من الأندلس مطالباً بحقّه في الملك.

ولمّا تمّ أمره، واجتمعت الكلمة عليه، وانتصر على مناوئه منصور بن سليمان من حفدة السلطان أبي يعقوب بن عبد الحق، كلّفه بتغريب أخويه عيسى وطلحة إلى غرناطة، بعد عفوه عنهما ليكونا محروسيْن بها، ويأمن غائلتهما.

وخاطب سلطانها أبا عبد الله بن الأحمر برسالة طويلة مؤرّخة بعاشر شعبان عام ستّين وسبعمائة (10 شعبان 8/760 يوليوز 1359)، أخبره فيها برحلته ؛ وما فتح الله به عليه من استرجاع ملكه وبيعته جاء فيها...

«... وبعثنا أخويْ الشّقيّ (يعني منصور بن سليمان) صحبة القائد الأنصح الأثير المرْعي قاسم بن أبي بكر بن بَنج إلى عدْوتكم المحروسة، ليقرّ لهما فيها القرار، وتطمئنّ بهم بحسب عَفْوِنَا في جواركم الدار...»

وهو الذي كلّفه أيضاً بعد ذلك بالمأساة الكبرى، وهي إغراق من يصلح للملك من شباب الأمراء المرينيين المتوقّع منافستهم له في الملك، وقد تقدّم بسط هذه القضية في فصل خاصّ بها.

ولمّا كان هذا الرئيس بهذه المثابة من السلطان، وممّن يُشار إليه بالبنان، وينطلق بمدحه كلُّ لسان، ويتزلّف إليه أرْباب الأقلام الذين لهم الظهور والتّفوُّق في هذا الميدان، فإنّ لسان الدّين ابن الخطيب أيّام التجائه إلى المغرب كان يخطب ودّه، ويقْدحُ في مدحه في كلّ مناسبة زنده.

ومن ذلك أنّه وُلد له ولد، ولعلّه كان يتشوّق إليه، وكان لسان الدين يعده به تفاؤلا، فخاطبه برسالة يُهنّئه فيها بولادته، ويُصرّح له فيها بعُكوفه على محبّته، نصُّها[233].

«أبقاك الله أيُّها القائد الذي باسمه ضرم، وشأنه شجاعة وكرم، ومحلُّ ولايته من العدوّ حرم، لا تسألْ عن شوقي إلى قُربك، وعكوفي على حبّك، وضراعتي في صلة سعادتك، إلى الله ربّي وربّك.

233) «نفاضة الجراب»، ص 193 من السفر المطبوع.

وبلغني الطالع لديْك، والوارد من حضرة المواهب الإلاهية عليك، جعله الله أسعد مولود على والد، ووفّقك لما يُرضيه من مقام الشّاكر الحامد، وأقرّ عينك منه بالقائد بن القائد. وقد كنت أُعِدُّك به تفاؤلاً واستفتاحاً وسؤالاً من اللّه واستمناحا، فالحمد لله الذي صدق الزّجْر، ووضح الفجر.

وقد نظمتُ له أبياتاً إن أدْركته بعدها حياتي برّ وشكر، أو كانت الأخرى، رحم وذكر وهي :

إرْفَعْ قِسيَّ الْمُنْشَئَاتِ بِسَعْدِهِ وَاسْتَنْجِزِ النَّصْرَ الْعَزِيزَ لِوَعْدِهِ
وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَلُحْ إِلَيْكَ بِوَجْهِهِ سِمَةُ الشَّجَاعَةِ مِنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ
لِلَّهِ مِنْ سَيْفٍ لِنَصْرِكَ صَارِمٍ يَنْسَابُ مَاءُ الْحُسْنِ فَوْقَ فِرِنْدِهِ
صَدَرَتْ إِلَيْكَ بِشَارَتِي وَتَفَاؤُلِي بِالأَمْرِ قَبْلَ بُرُوزِهِ مِنْ غِمْدِهِ
يَسْتَبْشِرُ الأُسْطُولُ مِنْهُ بِقَائِدٍ كَالْبَدْرِ تَحْتَ شِرَاعِهِ أَوْ بَنْدِهِ
وَالْبَحْرُ يَفْخَرُ مِنْهُ يَوْمَ وِلاَدَةٍ بِمِلَنْدِهِ ابْنِ مِلَنْدِهِ ابْنِ مِلَنْدِهِ

والعجبُ من لسان الدِّين كيف يخاطبه بهذه الرسالة، ويتقرّب إليه بمحبّته، ويُنوّه به، ويرفع من قدره، في نثره وشعره، ثمّ يقول فيه لمّا سجّل عليه قيامه بتغريق الأمراء الأبرياء بقوله :

«... ثُمّ طيّر (يعني أبا سالم) الإعلام إلى قائد الأسطول، وهو أبو القاسم بن أبي بكر بن بنج السّابيء، بضعة الخِزْي بعدهم...»(234)

ولعلّه مدحه لمّا كان منتهى الأمل، وعليه في ذلك الوقت المُعَوَّل، وشمسه إذ ذّاك في بُرج الحمل، ولمّا أفَلَتْ قال : لا أحبّ الآفلين.

ولا يُستغرب ذلك من لسان الدّين، لأنّ لسانه وقلمه كن يُعبّر بهما عمّا يتجلّى في نفسه بحسب الظّروف والأحوال، ولكلّ مقام مقال.

234) «نفاضة الجراب»، ص 267 من السفر المطبوع.

المبحث الرابع عشر

مآل الأسطول المريني

لمّا شاخت الدولة المرينية، وانحلّتْ عراها بما حلّ بها من الهرم، وكثرة الفتن التي توالت بالمغرب عليها، باستبداد الحُجّاب والوزراء على ملوكها، وتصرّفهم فيها حسب مقاصدهم وأهوائهم، ضعُفت قوتها البرّية، وأساطيلها البحرية، وتلاشى بعضها لإهماله وعدم الاعتناء به وبرؤسائه وقوّاده.

وقد كانت أوّل كارثة حلّت به هي غرقه مع أبي الحسن مَرْجعَه من تونس.

قال ابن خلدون في «المقدمة»:[235] «إن أساطيل أبي الحسن كانت عند مرامه الجهاد، مثل أساطيل النّصرانية وعديدهم، ثمّ تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل، لضعف الدولة، ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب، وانقطاع العوائد الأندلسية»... كما تقدم.

وهذه سنة معلومة، وطريقة مرسومة، لأنّ الدول لها أعمار كأعمار البشر، تطول وتَقْصُرُ، بحسب ما يتجلّى فيها من الحوادث الداخلية والخارجية، أو بسبب بروز دول أخرى لعالم الوجود أشدّ قوّة منها، وأعظم باساً وأكثر جمعا، فتقوِّض سلطانها، وتهدّ أركانها، وتُصبح خبراً يُروى ويُذكر، وتاريخا يُسجّل ويسطّر، وأتبعنا بعضهم بعضاً، وجعلناهم أحاديث، سنّة الله في خلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

وقد وافق هذا الضّعف وهذا الانحلال الذي اعترى الدولة المرينية، ظهور الدولْتين الأوربِّيتين: الإصبانية والبرتغالية، المقابلتين لها بالعدوة الأندلسية، واستفحال جيوشهما

---

235) ص 214، طبع بولاق.

البرية، وعظمة أساطيلهما البحرية، الماخرة عباب البحار، المنتشرة بسواحل البحرين : الأبيض المتوسط والمحيط الأطلانطيقي، وسيطرتهما على جل جزرهما، وتشوّفهما بعد التطاول على الدولة النّصرية الأندلسية، إلى تملّك القواعد البحرية المغربية، وخصوصاً المقابلة لمراسيهما، كسبتة وطنجة، وما والاهما، لتحقّقهما بضعف الأسطول المغربي عن مواجهة أساطيلهما، وبقائها وسائر السواحل المغربية عوْرة لا أسطول يحميها، ويردّ غارة العدوّ عنها.

وهكذا تناثر عقد مراسي المغرب الشّمالية والغربية.

فسقطت سبتة سنة ثمان عشرة وثمانمائة (1407/818) بعد حصار طويل دام نحو ستّ سنين، في عهد السلطان أبي سعيد بن أحمد بن أبي سالم، وعلى حسب رواية منويل في عهد أخيه عبد الله الذي أدرجه في سلسلة ملوك بني مرين.

ثمّ سقط قصر المجاز، وهو القصر الكبير، سنة اثنتين وستّين وثمانمائة (1457/862)، وطنجة سنة تسع وستين وثمانمائة (1464/869)، وأصيلا في حدود سنة ستّ وسبعين وثمانمائة (1471/876)، ومليلية، سنة تسع وتسعمائة (1497/909)، وأنفا وبعض سواحل السوس ونزلوا بأرض الجديدة (مازكان) سنة سبع وتسعمائة (1502/907)، والعرائش سنة عشر وتسعمائة (1504/910)، وأكادير سنة إحدى عشرة وتسعمائة (1505/911) وآسفي سنة اثنتي عشرة وتسعمائة (1506/912)، وأزمور سنة أربع عشرة وتسعمائة (1508/914)، والمعمورة والمهدية سنة عشرين وتسعمائة (1514/920).

وبعد ما كان جلّ هذه الثغور بيد البرتغال، ءالت إلى الإصبان وبعضها إلى الإنجليز، في أخبار طويلة ليست من موضوعنا هنا، وكلّ ذلك لضعف الدولة المرينية والدولة الوطّاسية المتفرّعة عنها، وضُعف أساطيلهما التي كانت قائمة فيما سلف بحماية الثغور وصيانتها، وتفوّق أساطيل العدوّ عليها، بعدما كانت لها السّيادة المطلقة في البحر، وخصوصاً ما بين المغرب والأندلس، ولكن لم يبق للأسطول المريني اعتبار، ولا أهمية، ولا ظهور في ذلك العهد لتلاشيه وتحطيمه بتلاشي وتحطيم الدولة.

هذا، وقد استُرجعت هذه الثغور، ما عدا سبتة ومليلية، بعد ذلك، عجّل الله بخلاصهما، وردّهما لأصلهما لمّا استرجع المغرب قوّته، وأذهب الله عنه محنته، في عهد الدولة السعدية أولاً، حيث استرجعت في فجر قيامها وقبل انهيارها، أكادير وآسفي، وفي عهد دولتنا الشريفة العلوية ثانيا، التي كان لملوكها العظام، حماة الإسلام، اليد البيضاء في خلاص باقي سواحل المغرب وتطهيرها، وطرد العدوّ الذي كان مستولياً عليها منها.

فرحم الله المولى إسماعيل، والمولى محمد بن عبد الله، وقدّس أرواحهما وجزاهما عن المغرب والإسلام والمسلمين أحسن الجزاء، وذلك بجيوشهما الجرّارة وأساطيلهما القوية المختارة، لمّا كان للمغرب في ذلك العهد وقبْله بقليل من الأساطيل القُرْصانية التي أذهلت أوربًا وحيّرتها دهراً طويلا، حسبما تقدّم بيانه وسياتي تفصيله في دراستنا هذه.

كما كان لها الفضل الأكبر، والعمل الذي لا ينكر، وينبغي أن يُعلن هنا ويُذكر، ويُعترف به ويُشكر، وهو ما ادّخره الله لتاج درّة ملوكها، وعيْن أعيان سُراتها، أبي عبد الله محمد الخامس، الذي محا صكّ الحماية وأزال عارها، وأذهب أدرانها، وأعاد للأمة المغربية حرّيتها واستقلالها، تولّى الله جزاءه بما خوّله من الخلود في دار الخلد مع الذين أنعم عليهم برضوانه من الصّالحين الذين أخلصوا للّه وأحسنوا عملا.

وحمى ولده وخلفه من بعده ملك البلاد، وحامي الطّارف والتّلاد، أمير المومنين مولانا الحسن الثاني، حرسه الله بالسّبع المثاني، حتى يرفع صرح هذا الاستقلال عالياً، ويكون لما خلّفه أسلافه من عظمة هذه المملكة مجدداً وبانياً بمنّه وفضله آمين.

ولنختمْ الكلام في الأسطول المريني بما قاله فيه أبو عبد الله محمد بن علي الدّكالي في رجزه «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا».

قال :(236)

ثُم أَتَى بَعْدُ بَنُو مَرِينِ ... وَمَلَكُوا الْمَغْرِبَ بعْدَ حِينِ
فكَانَ يعْقُوبُ الذي قدْ جَدَّدَا ... دَارَ صِناعَةِ سَلاَ كَمَا بَدَا
فَأُنْشِئَتْ لَهُ بِهَا أجْفَانُ ... كَثِيرَةٌ لَيْسَ لَها حِسْبَانُ
وَعَبَرَ الْبَحْرَ بِهَا مِرَارَا ... مُجاهِدًا بِنَفْسِهِ اخْتِيَارَا
وأدْرَكَ العِزَّ الذِي لمْ يُسْبَقِ ... لِغَيْرِهِ وَسَلْ بُطُونَ الوَرَقِ
وبَلَغَ الأُسْطُولُ في عَهْدِ أبِي ... حَسَنٍ مِنْهُمُ أجَلَّ مَرْغَبِ
مِائَةَ جَفْنٍ ثُمَّ أرْبَعِينَا ... قَدْ عَبَرَ البَحْرَ بِها يَقِينَا
ولَمْ تَزَلْ صُبَابَةُ الأجْفانِ ... مَعْروفَةً بِهَذِهِ الأَوْطانِ
لِعَهْدِ فارِسٍ وَمَنْ جَا بَعْدَهُ ... مُتَابِعًا أَوْ مُبْدِيًا مَّا عِنْدَهُ
لآخِرِ الدَّوْلَةِ مِنْ مَرِينِ ... حَتَّى انْتَهَى لِعَاشِرِ القُرُونِ.

236) ورقة 22 من المخطوطة المصوّرة بالمكتبة الناصرية السلاوية.

المبحث الخامس عشر

الأسطول السّعدي

لمّا تمّ الأمرُ لعبد الملك السّعدي، واستولى على فاس، وطرد منها ابن أخيه مُحمد المتوكّل بإعانة جيش التُّرْك، تفرّغَ للنّظر في تقويم المملكة وتقويتها بأسطول يُدافع عن كيانها، ويَحْرس شواطئها، وأمر بإنشاء السُّفن في العرائش وسلا، وصار أهل الأندلس يُسافرون في البحر مع أهل المغرب، وضيّقوا بالنّصارى أشدّ تضييق، وكثرت الغنائم، وكان أكثر ما يستفيده مولاي عبد الملك، ويدخُل بيده من المال، إنّما هو من غنائم النّصارى، وخُمس الغنائم الجهادية.(237)

ثُمّ تولّى بعده عقب انتهاء معركة وادي المخازن أخوه أبو العباس أحمد المنصور، وكان واسطة عقد هذه الدولة، بعيد النّظر طموحاً عالي الهمة، وساعده الحظ، ورافقه في أيّامه السّعد، فامتدّ سلطانه إلى ما وراء الصّحراء الموريطانية، وإنْ كان أعرض عن الأندلس، وقال في مجلس شُوراه الذي عقده للموافقة على غزْو ءال سُكْيَة، إنّ بابها قد سُدَّ دُونَه باستيلاء العدوّ الكافر عليها، كما في «الاستقصا».(238)

وهذا اعتراف منه بقوة إصبانيا وعدم قدْرته على محاربتها في ذلك الوقت، مع قُرْب عهده بمعركة وادي المخازن، وانتصار الجيش السّعدي فيها، وبقيتْ عدّة مُدُن ومراسٍ ترْزح تحت احتلالها...

---

237) «تاريخ الدولة السعدية» لمؤلف مجهول، ص 53، طبع الرباط، سنة 1353. (1934).

238) ص 54-55 من ج 3، طبع القاهرة، وص 118 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

ومع ذلك فقد كان يُظهر الاعتناء بالجهاد، ويرى أنّ مملكته المترامية الأطراف إلى نهر النّيجر، لا تستغْني عن أسطول بحري يحميها، ويُقرّبُ بعيدها، وينقل جيوشها ومعدّاتها الحربية إلى المراكز والثُّغور القاصية، أو المهددة من قبل العدوّ الذي كان مشاركاً ومجاوراً له في مغربه وأرضه وبلاده.

لاسيما وقد كان بالجزائر والقُسْطَنطينة، ورأى الأساطيل البحرية التُّركية بها مُجهَّزة مسخّرة في أعمال الدولة ومصالحها الحربية، فاقتضى نظره أن يَحْذُوَ حذوها، ويسلك سبيلها بإنشاء أسطول يُرْهب به عدوّه، ويقوم بالحركة القرصانية والتجارية بين مملكته وممالك البحر الأبيض المتوسط وسواحل المحيط الأطلسي وجُزره.

فأحْيا دار الصناعة السلاوية، وجدّد بعض ما انْدثر منها، وصُنع له أسطول مهمّ بها في عَدده وعُدّته، واستعمله في نقل جيوشه وعساكره إلى الثُّغور والموانئ الموالية للصّحراء، ومنها كانت تطرق وحداته الجزائر الخالدات، وتسبي منها النّساء والذّريّة.

وشوّش به على القراصين الإصبانية التي كثر تردُّدها في ذلك العهد على الشواطئ المغربية المحتلّة وغيرها، وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك عند الكلام على دار الصِّناعة السلاوية.

وأسند رياسته للرّئيس أبي سالم إبراهيم الشّط وخصّه بالنظر فيه، وقصّر الأمر في تدبير شؤونه عليه.

قال أبو فارس عبد العزيز الفشتالي في «مناهل الصّفا» :(239)

وأمّا ما له أيّده الله من المآثر الشريفة في الجهاد من صرف همّته إلى اتّخاذ الأسطول برباط سلا أمّنه الله، فتعدّدت مراكبه، وعقد على رياسته لرجُل من أهل المغرب يُدْعى : الرئيس إبراهيم الشّطّ، المثل المضروب في الشجاعة والمعرفة بأحوال البحر والحصون.

وكتب له بذلك، أيّده الله، تقليده الشّريف، من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن عيسى على رسم المصطلح الذي كان الانتقال عنه، ونصّه :

هذا ظهير كريم، رفع للجهاد أعزّ منار، واستلّ لإعزاز الملّة عضبا ماضي الغرار، وهيّأ للجواري المنشئات ثبج البحار.

---

239) ص 244، طبع تطوان سنة 1384 (1964).

أمر به عبد الله تعالى، أمير المومنين، أبو العباس، المنصور، بن أمير المومنين، بن أمير المومنين أيّد الله تعالى أمره، وأعزّ نصره، للرئيس الأمجد الأوجه الأسعد أبي سالم إبراهيم الشطّ.

ولمّا كان ممّن عُلمت كفايته، واشتهرت في الجهاد عنايته، وأرْبت في البرّ والبحر على الغايات غايته وأحاطت بتصاريف ذوات الألْواح والدُّسُر درايته، رأى، أيّده الله، أنْ يُقلّد قيادة الأسطول، ويقضي به لوظيفته الجهادية دينه الممْطول، ويُسند إليه رياسة القطائع والشوّاني، ويحُطّ زمامها من يده بيده الحازم اليقظ الذي لا يُلمُّ به الكسل والتواني فقدّمه أعْلى الله قدمه، وعرّفه الخير والبركة في كلّ ما توجّه إليه عزمه ويمّمه، قائداً على العمارة البحرية، والقطائع الجهادية، فليتقدّمْ لذلك بما لديه من الجدّ والمضا، والكفاية التي يستمدّ منها الصّارم المُنتضى، عاملاً بما يُقْضى له من الله الثّواب، ومنّا مزيد العزّ والرِّضى.

وأنا أسأل الله له توفيق الأعمال، والبلوغ في هذا القصد إلى أقصى مراتب الكمال، بمنّه وكرمه.

فمن وقف عليه، فليعْمل به ولا يتعدّاه والسّلام.

وأنزله، أيّده الله، بمرسى العرائش التي هي باب البحر، ومتبوّاء السّفين، تَوَثُّقاً بمكانه، واستنامة إلى حزْمه وضبطه، وصحّة عهده ووفائه ونُصحه، وأدال منه برجل هاجر لممالكه العليّة، يُدْعى الرئيس شعبان، فهو اليوم قبطان الأسطول الإمامي الجهادي، ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية والقطائع البحرية، وما زال، أيّده الله، تتوالى بها نزواته على أرض الكُفْر وطواغيت الشِّرك، فتقتاد السَّبْي والأنفال، ولا كالجزائر الخالدات التي ضَرّسَتْها بأنيابها، وأضحت مشمّرات اليد بما تستاق كلّ عام من سبيها المغرب بالظّباء العفر من نسائها العربيات الأصْل والخلق يسحبْن الأذيال، ويمشين مَشْيَ قطا البطاح تأوّداً، رهف الخصور رواجح الأكْفال.

وهو اليوم، أيده الله، لهذا العهد بصدد الاستكثار من الأساطيل رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدِّين قوي الأسر بحمد الله، وافر العدد والمدَد، مراش الجناح، بما أُتيح لسيوفه المظفّرة من الاستيلاء على الممالك السُّودانية المُعينة بخراجها المستبحر، ومعادن الذهب، على التوسُّع في الإنفاق الذي لا يَخشى معه علية ولا فقرا، وبالسّواد الأعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجاديف الثقيلة بالأساطيل كأجنحة الطير خَفَقاناً وسرعةً وطيرانا، كمّل الله قصده، وأنجز وعده، فإنّه أحد وجوه الجيل التي كان بنى، أيّده الله، على أساسها الوثيق نيّته الصّالحة عند انبعاث عزيمته على تجهيز العساكر لبلاد السُّودان، كما

أجاب في تلك دعاءه، ونصر لواءه، أنْ يُجيب في هذه نداءه، ويشحد عزائمه الماضية، وآراءه حتى يبلغ أمل السلام في الجهاد، ويفتح من أرض الطُّغاة البلاد والأقطار البعاد، بعزّته وقدرته. اهـ.

وما سُطّر أعلاه هو ما نظمه أبو عبد الله محمد بن علي الدُّكالي في رجزه : «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا»[240].

وقد أتَتْ دَوْلَةُ عَبْدِ الْمَلِكِ — لَيْثِ بَنِي سَعْدٍ أَجَلِّ مَلِكِ
لَمَّا اسْتَقَامَ أَمْرُهُ بِفَاسِ — بِجَيْشِهِ التُّرْكِي أَخَا احْتِرَاسِ
أوْعَزَ لِلصُّنَّاعِ بالثَّغْرَيْنِ — بِعَمَلِ الأَجْفَانِ فِي البَحْرَيْنِ
بَحْرِ سَلاَ ثُمَّتَ بِالعَرَائِشِ — وجُلُّ مَا بِالفُرْضَتَيْنِ قَدْ لَشِي
ثُمَّ أدَالَ اللّهُ لِلمَنْصُورِ — أحْمَدَ ذِي المَئَاثِرِ المَشْهُورِ
فَأَرْهَبَتْ أجْفَانُهُ الطُّغْيَانَا — وَصَالَحُوهُ حَيْثُ عَزَّ شَانَا
وكَانَتِ الْبِحَارُ في ذَا العَهْدِ — قَدْ مُلِئَتْ سُفْنًا بِغَيْرِ حَدٍّ
غَالِبُهَا شُحِنَ بِالأَنْفَاضِ — لِمَا عَسَى يَعْرُو مِنَ اعْتِرَاضِ
وَكَانَ قُرْصَانُ سَلاَ مُزَاحِمَا — فِي ذَا الزَّمَانِ غَازِيًا وغَانِمَا
يَجُولُ بينَ الخَالِدَاتِ السَّبْعِ — وَبَيْنَ أشْبُونَا بِغَيْرِ مَنْعِ
ثُمَّ اقْتَضَى الصُّلْحُ السُّكُونَ فَسَكَنْ — وَاتَّصَلَتْ بِمَوتِ أحْمَدَ المِحَنْ

والذي يُستفاد ممَّا تقدّم، هو أنَّ هذا الأسطول السّعدي أقلق راحة السفن الإصبانية والبرتغالية على الخصوص، والإنجليزية وغيرها على العموم، التي كانت تتردَّد في البحرين المتوسط والأطلانطيقي في طريقها إلى الهند.

ونتج عن ذلك مبادلة رسائل رسمية، بين ملكيْ إصبانيا وإنجلترا، والمولى أحمد المنصور السعدي، وتردّد السفراء بينهم مصحوبين بالهدايا والطُّرَف، وكان المآل عقد معاهدات سلمية بينهم، حسبما هو مُبيّن ومُفصّل في كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة» التي جمعها الكونت دوكَاسْطْرِي وغيره،

240) ورقة 23 من مخطوط المكتبة الناصرية السلاوية.

"Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc" par le L-t Colonel H. de Castries et autres.

فليرجع إليها من أراد الوقوف عليها هناك.

وقال بعض المؤرخين الفرنسيين : إنّ مرسى العرائش التي كانت تُصْنع بها سُفن المنصورالسعدي، وتغدو منها وتروح إليها، أقضّت مضجع الأصبان، وحزّت في نفوسهم حزًا لأنهم قاسَوْا منها المرائر، لموقعها الجغرافي، وقربها من طنجة والبوغاز، ولأنّها كانت ملجئًا للقراصنة الذين يقطعون عليهم طريق الهند البحرية كما تقدّم، فلم يهنأْ بالهم حتى استولوْا عليها، لمّا سلّمها لهم الشّيخ المامون السّعدي في جملة ما اشترطوا عليه من تسليمها هي وسلا، فاستولوْا عليها دون سلا، سنة تسع عشرة وألف (1610/1019)، وبقيت تحت نفوذهم إلى أنْ استرجعها منهم المولى إسماعيل، رحمه الله، سنة إحدى ومائة وألف (1688/1101)، في خبر طويل مبسوط في كُتُبِ التاريخ في جملة ما استرجع منهم من المراسي المغربية، جزاه الله خيرا.

انتهى

ويليه الجزء الخامس، ويبتدئ بـ :

«عن كيفية نشأة الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي،

وأنواع سفنه، وكيفية تجهيزه، وقرصنته، وأسبابها،

وموجباتها، وأقسامها، وأطوارها.

الفهرس

الفصل الأول : عن اهتمام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بفداء الأسرى وسياسته الخارجية الرامية إلى ذلك وعن محاولاته وضع حد للقرصنة المستفحلة وعن السفارات الموجهة لهذا الفرض، وعن عقد المواصلة والمؤازرة مع الدولة العثمانية 3

المبحث الأول : اهتمام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بفداء الأسرى وما بذله من الجهود في ذلك 5

المبحث الثاني : معاهدات سيدي محمد بن عبد الله وفداء الأسرى 11

ـ كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى لويس السادس عشر يعرض فيه فداء الأسرى الدائم 12

ـ عقد معاهدة بين المغرب والسويد وهولاندا 12

المبحث الثالث : حالة الأسرى المسلمين بإصبانيا وما نتج عنها من سفارة الغزّال 19

ـ رسالة سيدي محمد بن عبد الله إلى كارلوس الثالث ملك إصبانيا 19

المبحث الرابع : سفارة أبي العباس الغزّال لإصبانيا وما كان من أمره 21

ـ التعريف بأحمد بن المهدي الغزّال ورحلته 21

ـ أخبار سفارته 24

ـ سفارة الغزال بإصبانيا وأعماله فيها 25

ـ مقابلته للملك ومذاكرته مع وزيره في مهمته 26

ـ زيارته للأسرى المسجونين بمدينة شيقوبية (Segovia) 27

ـ توجهه للإسكوريال (Escurial) واجتماعه بالأسرى الذين كانوا بطريقه 28

ـ رجوع الغزال إلى مدريد 29

- الغزال بقرطاجنة (Cartagena) وما باشره من شؤون الأسرى بها 29
- رجوع الغزال إلى المغرب 30
المبحث الخامس : سفارة الغزال إلى الجزائر لتبادل الأسرى بينها وبين إصبانيا 33
- تتابع فداء الأسرى مع إصبانيا 34
- أسر أميرة إصبانية بالجزائر وفداؤها على يد السلطان سيدي محمد بن عبد الله 35
المبحث السادس : سفارة علي مارسيل لتصفية مسائل الأسرى بفرنسا 37
- التعريف بالسفير أبي الحسن علي مارسيل 37
- موجب السفارة 38
المبحث السابع : سفارة الكونت دو برونيون (Comte de Breugnan) لدى سيدي محمد بن عبد الله لعقد الصلح وفداء الأسرى 41
- توجه السفير لمراكش وكيفية مقابلته بها 43
- رجوع السفير من مراكش إلى آسفي وسفره لبلاده 46
المبحث الثامن : سفارة الرئيس الطاهر بن عبد الحق فنيش السلاوي إلى فرنسا في مهمة تتعلق بالأسرى 49
- التعريف بالرئيس الطاهر فنيش 49
- مهمته في سفارته إلى فرنسا 51
المبحث التاسع : سفارة أبي عبد الله محمد بن عثمان إلى إصبانيا لفداء الأسرى .. 55
- التعريف بالسفير محمد بن عثمان 55
- أخبار سفارته بإصبانيا وما فداه من الأسرى 57
- مهمة ابن عثمان في هذه السفارة 58
- مبارحة السفير لرباط الفتح 58
- مبارحة السفير سبتة وتوجهه إلى إصبانيا 59

- وصوله إلى مدريد ومقابلته مع الملك 60
- زيارته للأسرى بمدينة شقوبية (Ségovia) 61
- الاتفاق على تجديد المعاهدة الصلحية وتحريرها وإمضائها 62
- استقبال الملك لابن عثمان ووداعه معه 62
- توجه ابن عثمان إلى طليطلة (Tolédo) وقرطاجنة (Cartagéna) لرؤية
الأسرى الجزائريين والتوسط في إطلاق سراحهم 63
- الأسرى الجزائريون بقرطاجنة وإطلاق سراحهم 63
- مبارحة ابن عثمان لإصبانيا ورجوعه إلى المغرب 65
المبحث العاشر : جزيرة مالطة كانت عشا للقراصنة 67
- بعث أبي عبد الله الحافي إلى مالطة لإحصاء الأسرى وفدائهم 68
* التعريف بأبي عبد الله الحافي السلاوي 68
* مهمة أبي عبد الله الحافي بمالطة 69
المبحث الحادي عشر : سفارة ابن عثمان إلى مالطة لفداء الأسرى 71
- توجه السفير ابن عثمان إلى نابولي لفداء الأسرى 74

الفصل الثاني : عن محاولات السلطان سيدي محمد بن عبد الله عقد المواصلة والمؤازرة مع الدولة العثمانية وفداء الأسرى الذين كانوا بجزيرة مالطة والسفارات المبعوثة لهذا الغرض الشريف 81
المبحث الأول : مبادلات السفارات بين الدولتين المغربية والعثمانية في شأن الأسرى وتقوية الأساطيل القرصانية الجهادية 83
المبحث الثاني : سفارة الحاج الخياط عديّل الفاسي والسيد الطاهر بناني الرباطي إلى الدولة العثمانية 85
المبحث الثالث : سفارة السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي والسيد الطاهر بناني الرباطي إلى الدولة العثمانية 87
- مهمتهما في هذه السفارة وما نشأ عنها 88

المبحث الرابع : سفارة الرئيس عبد الكريم راغون التطواني
إلى الدولة العثمانية 91
المبحث الخامس : سفارة الطّاهر بن عبد السّلام السّلاوي الثانية
إلى الدولة العثمانية 93
المبحث السادس : سفارة القائدين علاّل الدراوي وقدّور البرنوصي ومحمد
الحافي إلى الدولة العثمانية بالأموال لفداء الأسرى 95
المبحث السابع : سفارة الرئيس عبد الكريم العوني التطواني
إلى الدولةالعثمانية 97
المبحث الثامن : سفارة أبي عبد الله بن عثمان إلى تركيا والحجاز 99
- ابن عثمان يصاحب الأسرى المسرحين إلى تلمسان 101
المبحث التاسع : سفارة أبي القاسم الصياني إلى الدولة العثمانية 103
- التعريف بأبي القاسم الصياني 103
- أسباب هذه السفارة وما راج فيها من السلف 104
- سفر السفارة وما كان من أمرها 104
- استقبال الوزير والسلطان للصياني ومسألة السلف 105
– السلف 107
– تلخيص ما أعان به السلطان سيدي محمد بن عبد الله الدولة العثمانية
من الأموال والأعتدة الحربية 107
المبحث العاشر : سفارة القائد محمد الزوين إلى السلطان عبد الحميد الأول
مصحوبا بالأسرى الأتراك 111

الفصل الثالث : عن السفارتين المبعوثتين إلى النامسا والطوسكان واصبانيا
لتسوية مسائل الأسرى، وعقد صلح دائم وغير ذلك 113
المبحث الأول : سفارة عامل طنجة محمد بن عبد الملك إلى فيينا لتسوية
مسائل الأسرى وعقد صلح دائم 115

- طنجة وآل علي بن عبد الله الريفي 115
- بعثه إلى الطوسكان (La Toscane) لفداء الأسرى 116
- سفارته إلى ڤيينا (Vienne) للاتفاق على السلم المستمر وتحرير الأسرى من الجانبين 117
- نظرة عامة على سياسة سيدي محمد بن عبد الله الخارجية ومآلها 119
المبحث الثاني : سفارة ابن عثمان في العهد اليزيدي إلى سبتة وإصبانيا لتسوية مسائل الأسرى وغير ذلك 121
- بقية أخبار السفير ابن عثمان إلى وفاته 124
- وفاته، رحمه الله 126
المبحث الثالث : مسائل الأسرى في عهد السلطان المولى سليمان 127
- العهد السليماني 128
المبحث الرابع : حوادث أمريكية تتعلق بالأسرى 131
- أسرى السفينة الفرنسية «صوفي» (Sophie) 133
المبحث الخامس : الأسرى في عهد السلطان المولى عبد الرحمان 135
- أسرى مدينة الصويرة 136

الفصل الرابع : عن الأسطول المغربي في التاريخ، من بداية الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، وعن رجاله وأعماله، وما بلغه من رفعة شان وضخامة سلطان 139
المبحث الأول : الأسطول المغربي زمن الفتح 141
- أولية الأسطول المغربي 141
- الأسطول المغربي زمن الفتح 142
المبحث الثاني : الأسطول في عهد الأغالبة 145
- المناير البحرية في عهد الأغالبة 146
المبحث الثالث : الأسطول في عهد الدولة الفاطمية 147
- بعض ما قيل من شعر في الأسطول الفاطمي 149

- غزو الأسطول الفاطمي لمدينة أريو من جزيرة قلورية 153

المبحث الربع : الأسطول في عهد آل زيري وآل حماد الصنهاجيين 157

- أسطول صقلية 161

المبحث الخامس : أسطول الدولة المرابطية 163

- تمهيد 163

- أولية الأسطول المرابطي 164

- آل ميمون رؤساء الأسطول المرابطي 164

* أبو عبد الله بن ميمون 164

- مشاركة الأسطول المرابطي في فتح سبتة 165

- رفع الأسطول المرابطي الحصار عن جزيرة ميورقة 167

- إنقاذ سبتة من الاحتلال النورماندي بواسطة الأسطول المرابطي 168

- عزو الأسطول المرابطي لصقلية والسواحل الأوروبية 168

- مآل الأسطور المرابطي 168

المبحث السادس : أسطول بني غانية 171

- استعمال بني غانية أسطولهم في نقل الجيوش لمحاربة الموحدين بإفريقية 173

المبحث السابع : الأسطول الموحدي 175

- بداية الأسطول الموحدي 175

- مدرسة عبد المومن الحربية لتخريج قادة الجيوش البرية والأساطيل البحرية 178

- اتّخاذ عبد المومن جبل طارق قاعدة بحرية لأسطوله 180

- عبور عبد المومن إلى جبل طارق واحتفاله به وبأسطوله 181

المبحث الثامن : مشاهير رؤساء الأسطول الموحدي 189

- تمهيد 189

- آل ميمون 189

- الأميرال غانم بن محمد بن سعد بن مردنيش 189

- الأميرال عبد الله بن جامع 190

- الأميرال أحمد الصقلي 191
- الأميرال ابن طاع الله الكومي 192
المبحث التاسع : أعمال الأسطول الموحدي 193
- فتح الأسطول الموحدي للمهدية 193
- استعداد الأسطول الموحدي في عهد أبي يعقوب يوسف لغزو البرتقال 193
- حصار الأسطول الموحدي لمدينة قابس 194
المبحث العاشر : استنجاد صلاح الدين بالأساطيل الموحدية في حروبه الصليبية 195
- سفارة عبد الرحمان بن منقذ إلى المنصور الموحدي مستنجدا بأسطوله . 197
- الهدية 198
- السفير عبد الرحمان بن منقذ بالمغرب 201
- مسألة الخطاب بأمير المؤمنين، وعدم نجاح سفارة ابن منقذ 203
- تعليق وتعقيب على ما راج في هذه القضية من المسائل الرسمية 209
- مآل الأسطول الموحدي 211
- أساطيل الدُّول التي خلفت الدولة الموحدية 213
- فأما الدولة الحفصية بتونس 213
- وأما الدولة العبدوادية بتلمسان 215
المبحث الحادي عشر : الأسطول المريني 217
- اتخاذ يعقوب المنصور المريني سبتة وطنجة مركزا حربيا لأساطيله 219
- فاتحة الأعمال الجهادية للأسطول المريني بالأندلس 220
- عمل الأسطول المريني في رفع الحصار عن الجزيرة الخضراء 221
- استعراض يعقوب المنصور الأسطول المريني بالجزيرة الخضراء 229
- أعمال الأسطول المريني في عهد السلطان يوسف بن يعقوب 230
- استرجاع جبل طارق بواسطة الأسطول المريني 231
- انتصار أسطول أبي الحسن المريني بمعركة الزقاق 234

- المحارس والمنائر البحرية لحراسة السواحل البرية والأساطيل المرينية .. 235
- موقف الأسطول المريني من سقوط الجزيرة الخضراء 236
- ركوب السلطان أبي الحسن المريني البحر من تونس وغرق أسطوله 241
المبحث الثاني عشر :الأسطول المريني في عهد أبي عنان 243
- اعتناء أبي عنان بجبل طارق، مأوى الأساطيل المرينية 243
- بعض أعمال أسطول أبي عنان بإفريقية 246
- استعانة أبي الفضل محمد وأبي سالم إبراهيم بالأسطول على المطالبة بحقهما في الملك 247
- استعمال الأسطول المريني في إبادة وإبعاد المتشوّفين للملك والرِّياسة ... 247
- تسخير الأسطول المريني لإرجاع ابن الأحمر المخلوع إلى الأندلس 249
- مشاركة الأسطول المريني في استرجاع الجزيرة الخضراء 250
المبحث الثالث عشر : بعض مشاهير رؤساء الأسطول المريني 251
- بنو الغزفي من سبتة 251
* أبو عبد الله محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم 251
* الرئيس محمد بن يوسف المعروف بالأبكم 252
* الرئيس أبو القاسم بن زبي بكر بن بَنْج 253
المبحث الرابع عشر : مآل الأسطول المريني 255
المبحث الخامس عشر : الأسطول السّعدي 259
الفهرس 265